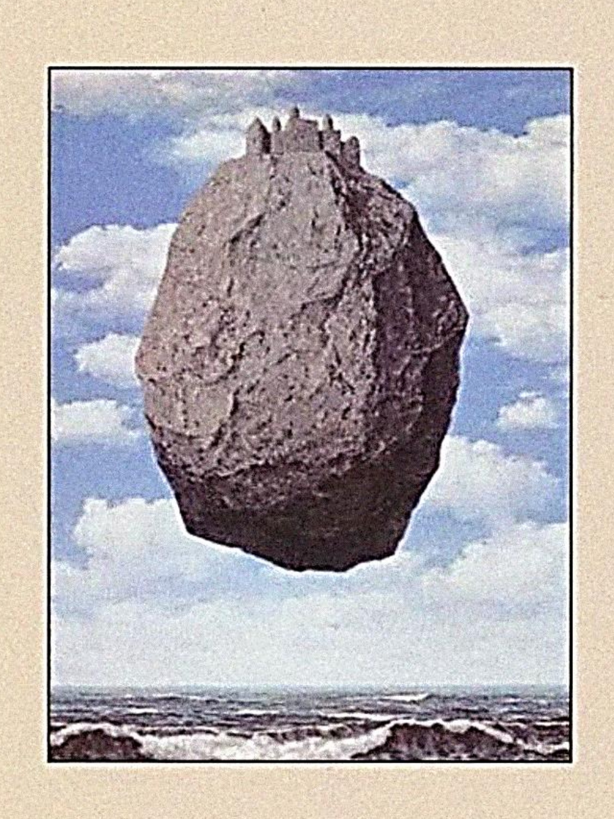


عبده خال

ترمي بشرر...



منشورات الجمل

رواية

عبده خال

ترمي بشرر...

روايــة

منشورات الجمل

عبده خال، من مواليد عام ١٩٦٢، حاصل على بكالوريس علوم سياسية، تُرجمت بعض أعماله إلى لغات أخرى كالإنجليزية والألمانية والفرنسية، له العديد من الأعمال الروائية والقصصية مثل: **الموت يمر من هنا**، رواية؛ **الأيام لا تخبئ أحداً**، رواية؛ **الطين**، رواية؛ **نباح**، رواية؛ **مدن تأكل العشب**، رواية؛ **فسوق**، رواية، والعديد من المجموعات القصصية. فازت روايته: **ترمي بشرر** بجائزة البوكر العربية ٢٠١٠.

للتواصل مع الروائي: abdookhal@yahoo.com

عبده خال: ترمي بشرر...، رواية
الطبعة الأولى ٢٠٠٩، الطبعة الخامسة ٢٠١١

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ - ٠١ - ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣ - ٥٤٣٨ بيروت - لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إهـــداء

التلويحة شارة للبعد، للغياب.

و(هنو) لم ترفع يدها أبداً..

فأي خيانة اقترفتها حينما لم تلوح من بعد؟!

لها، ولبقية من عصفت بهم في طريقي، يندلح هذا البوح القذر.

طارق فاضل

عتبة أولى

خسئت روحي، فانزلقت للإجرام بخطى واثقة.

وقفت في غرفة التعذيب، أتأمل جسدي العاري الملطخ بآثار آثامه؛ جسد خاض عشرات المهمات التعذيبية، والتأديبية المنتصرة والمهزومة، الفاشلة والمتقنة. كنت أقدم على تعذيب ضحيتي بهمة وإتقان من غير أن تثيرني الصرخات أو الاسترحام المنطلق من أفواه الضحايا. أقدم على أداء مهمتي من غير إخلال بأي ركن من أركان الخطة التي أعدها السيد، مع حرصي على عدم إنقاص نشوة التشفي المجتاحة لروحه، وهو يراني أوسع فجوات خصومه، فينشرح صدره منتشياً بما أفعل بهم.

أنهض من على ضحيتي بعد أن أدك عظامها دكاً، ولا يبقى ناهض من الضحية إلاّ نحيبها، وآخر استرحاماتها.

أعرف ضحاياي بصورهم، فقد دأب السيد على منحي نسخة من صورة الضحية بعد إنهاء تعذيبي لها (فوتوغرافية وتسجيلية).

أحمل أرشيفاً لكل الضحايا، ولم أكن أقدر قيمة هذا الأرشيف، فقد كان بإمكاني المتاجرة به، وجني أرباح وفيرة من خلال عرضها مرة أخرى على الضحية مرفقة بمساومة وضيعة حول المبلغ الذي يرضيني مقابل ستره، هذه الفكرة سربها أسامة ليقنعني بالاستفادة من كل الصور التي أحملها في خزانة غرفتي.

تراجعت عن الإقدام والسير في طريق هذه المتاجرة خشية أن يصل خبري للسيد، فيسحقني قبل أن أرفع صوتي، إلاّ أنها ظلت فكرة قائمة يمكن تنفيذها في الوقت المناسب.

سنوات طويلة قضيتها مؤدباً لخصومه لا تظهر قيمتي لدى سيد القصر إلاّ عندما يحضر لمشاهدة أحد ضحاياه، وأنا أخضعه لعملية تعذيب مُرّة، في معظم الأوقات أكون داخل القصر آلة عديمة الجدوى حتى إذ جلب السيد ضحيته غدوت المفتاح الضائع الذي يخرج كل من بداخل القصر للبحث عنه.

استقليت في سكني بعد رجاءات متكررة، متخذاً من رعاية عمتي عذراً ملحاً للسكن خارج القصر؛ ومع هذا الخروج لم أبتعد عن عينيه، يعرف كل تحركاتي وسكناتي، ولم يتنازل عن شرط وقوفي أمامه بمجرد استدعائي؛ كنت كالطائرة الورقية أحلق في الفضاء، وخيط رفيع يمسكني به، وبمجرد جذبه إليه، أهوي، وأكون معفراً بالتراب، منتظراً لحظة أخرى ليرفعني في مواجهة الريح لأحلق عالياً. وصلني صوته عبر الجوال حاراً متدفقاً بأوامره:

ـ عليك الحضور في الحال.

ظننته علم بلعبتي معه، وفكرت بالهرب؛ هاتفت (مرام) عل خبراً ما وصل إليها لكنها استبعدت معرفتها بأي شيء؛ كانت كل المحاذير الجالبة لغضبه لاغية، ولم يكن لي من خيار سوى تلبية طلبه؛ قطعت شارع الملك شمالاً لأصل إلى قصره الكائن بشرم أبحر في نصف ساعة أو تزيد، ومع اقترابي تلقيت مهاتفة أخرى منه لملاقاته بالقصر القديم، هكذا فجأة يغير آراءه من غير أن يجرؤ أحد على التعليق أو مراجعة ما أمر به.

أدرت مركبتي باتجاه الجنوب، وعدت في طريقي، والهواجس تتشعب وتنداح في مخيلتي:

- ما الذي يريده مني الآن؟

السمكة الصغيرة حينما تعلق في شبكة صياد يبحر بقاربه جاذباً شبكته من خلفه، تفكر في أمرين: التخلص من الفخ الذي وقعت فيه؛ أما أعز أمنية فهي أن يقف القارب في مكانه لتكون محاولة فكاكها ناجحة.

ومنذ أن علقت في شباكه، وأمنية أن يخفف من سرعته أو أن يتوقف تلازمني في كل حين؛ لأتدبر طريقة أنفك بها من شركه. في أحيان نحتاج للسكون لتحديد أي الطرق نسلك هرباً، أو إقداماً، وهذا الثعبان لم يسكن يوماً؛ حركته المستمرة تجعل فرائسه مشتتة الذهن غير قادرة على معرفة أي طريق سآخذ، وأي سرعة سينهج للانقضاض.

ومنذ أن علقت في شباكه، وأنا أفكر في الوسيلة التي أتخلص بها من الفخ المحكم الذي وقعت فيه، وأمنية أن تتباطأ سرعته ليس لها من سبيل سوى أن يموت.

تأخر كثيراً على الموت، وصحته تشي بأن الوقت ما زال مبكراً على قيامه بهذه الرحلة.

دلفت للبهو الذي يقتعده، كانت الضحية ملقاة على الأرض في حالة يرثى لها يحف بها الحرس ويخضعونها بالضغط على بطنها بأحذيتهم؛ ارتعدت لذلك المنظر، وتصلبت في مكاني، وخواطر متضاربة تموج في داخلي بلا هوادة.

- عليك أن تنجز مهمتك الأخيرة.

دفع بنا (أنا والضحية) لغرفة التأديب مخفورين بالحرس، هذه المرة

أقف متأملاً ساحة التعذيب (التي أعرفها جيداً، وكأني أجهلها) وحالة من التقزز تتسع دائرتها وتسحبني إلى جوف الظلمة.

اقتصرت وسائل التعذيب في هذه الغرفة على طريقة واحدة انتهجتها منذ أول عملية تعذيب قمت بها، وغدوت مدرباً على إجادتها وفي أحيان كثيرة على تمثيل إتقانها.

في كل حالات التعذيب التي مارستها ضد الآخرين كان ثمة جسدان وروحان، كل منهما يتعذب بصاحبه، كمفتاح وقفل صدئ وبينهما لزوجة تطري التصلب وتنهي انغلاق القفل بهزيمة منكرة ليبقى المفتاح معلقاً منتظراً مهمة أخرى ليؤدي دوره.

في كل العمليات التي خضتها كان الجلاد والمجلود مجذوبين لهاوية سحيقة، والروح تسحق وتذوب فيما بينهما.

كان كل شيء خاطئاً هذه المرة: المكان، والشخص، والتوقيت؛ فما أن شرعت بالتعذيب حتى ارتفع أذان صلاة العشاء صوتاً ندياً يصلنا مخترقاً دواخلنا ناخراً الطبقة السفلى منها؛ ويرتد، يعاود سكب مفرداته بتنغيم آسر، فينتفض جسدانا، ترتعد فرائصنا، نستغيث فلا نغاث، فنعجن بكاء مكلوماً في أعماقنا لننهي لحظات العذاب المتبادلة.

المجلود والجلاد يدسان وجهيهما في الفراش بحثاً عن نجاة تبعدهما عن بعضهما، يبحثان عن الافتراق، عن التلاشي.

ومع انتهاء اللحظة أسحب سروالي لتغطية عورتي المكشوفة على الدوام واسحب معه نفسي المهترئة الذابلة؛ كنت قادراً على تغطية سوأة جسدي، بينما عجزت عن انتشال روحي من أوحالها، وتنقيتها، فذبلت واهترأت وتمزقت.

دخلت إلى هذه الغرفة مراراً، وفي كل مرة أزداد رسوباً وثقلاً، وكلما حاولت أن أقتلع نفسي من هذا الغرق وجدته يعيدني للقاع يقذفني ككتلة حديد عليها أن تبقى مغمورة يحاصرها الصدأ والطحالب النافقة والحية حتى غدوت مدرباً على أن أعيش منكوساً مثل كومة صوف تهتك وبرها.

ـ عليك أن تنجز مهمتك الأخيرة.

انهرت تماماً، لم يكن يدور بخلدي بتاتاً أن أجتمع أنا وهو في تلك الغرفة تحديداً. عيوننا تتبادل الانكسار وحمحمة الروح تصهل، وتذوي. السنوات الطويلة التي بيننا تتقطر ماءً مالحاً، سال من العيون، وانحدر باعثاً شيخوخة ذاكرة مليئة بنزقها وهياجها؛ تكومت دموعي عند ذكرى مراهقة بعيدة حين رفع عيسى الدريني يده ليمنع مصطفى القناص من نهش اعتدادي برجولتي.

ـ من يقينا الآن من بعضنا؟

أذان صلاة العشاء طال هذه الليلة. شعرت بأن المؤذن بقي يردد أذانه لمنتصف الليل من غير أن يستجيب المصلون لندائه؛ تتموج مفردات الأذان داخل القلب في محاولة لإنارة عتمة قديمة فيحبس هناك. تغلق المعاصي أبوابها عليه، وتتسع بقعة الظلام، ومع عتمة الروح تزداد عملية التعذيب قسوة، عملية مستمرة لم تنته في وقتها، وبكاؤنا المكلوم يواصل نحيبه، ويفيض عن حاجتنا.. يفيض عن كل شيء، لأرى أيام وليالي جدة تبحر في دمعنا كما لو كانت مراكب تسابق بعضها بحثاً عن شاطئ قريب، وترتد لعمق البحر حين تجد أن الشواطئ محاصرة بالأبنية والأسوار الطويلة الممتدة. لا منجى لنا من بعضنا.

مضى الوقت وما زال الأذان متواصلاً والليل يلملم عباءته لا ليسترنا بل ليكشف سوأتنا معاً.

كان قراري بقتله قد نضج تماماً، لقد مضى زمن طويل وأنا أحمل جثته في مخيلتي ولا أعرف كيف أواريها، فحينما آوي إلى فراشي أستجلب النوم بخيالات مقتله، وفي كل ليلة أقتله بطريقة مغايرة عن الليلة السابقة.. آه كم هي المسافة بعيدة بين الخيال والواقع..

** **

اليوم أنهيت أعسر عملية تعذيب قمت بها خلال عملي داخل القصر؛ كنت قد أقلعت عن أداء هذا الدور، إلاّ أن السيد رغب أن أنهي وظيفتي بهذه العملية الأخيرة (كما قال، وإن كنت أشك في كل ما يقول)، والتي سماها لعبة الاعتزال، فدعا لها القريبين خاصة الخاصة؛ ليشاهدوا آخر العمليات القذرة؛ ولم يكن أمامي من خيار، فالتراجع يعني أن أتحول إلى ضحية، أو أن أُقاد للسجن بتهمة الشروع في القتل، ليس مهماً التهمة فهو قادر على تلفيق أي تهمة توصلني لساحة القصاص وبأدلة دامغة وربما باعتراف شخصي.

أن تعقد صفقة مع الشيطان فكل اليقين أن الحياة تعد لك فخاً قميئاً، ولن تستطيع أن تنجو منه، فاللعبة القذرة تنهي حرصك على إبقاء ثيابك ناصعة.

حملت ملابسي بين يدي، تاركاً فريستي تلملم عظامها، وتكفكف دموعها قبل أن تستوعب ما حدث.

أيقنت أني لم أعد قادراً على مواصلة إتيان هذه الآثام العظيمة، كنت خائفاً من التصريح بهذا اليقين كي لا أوضع في خانة المجلود، وقف في مواجهتي تماماً مهنئاً إياي على أداء المهمة بنجاح:

ـ لا زلت قادراً على العطاء كما عهدتك!!

ـ . . . .

ـ ربما أتراجع عن قرار اعتزالك!

بصقت أسفل قامتي في غفلة منه، إلاّ أن بصقاته التي وجهها للضحية كانت أكثر كثافة واحتقاراً.

ـ أغثني يا اااااااااااااااااااااااااااااااااالله!

منذ تلك الليلة غدوت حبيس صوته، يأمر فأطيع.

له غضبة طفل.

هكذا وصفه العم محمد الركابي، ولم أكن موقناً من دقة هذا الوصف حينما سمعته.

لا أحد يعرفه كما يعرفه الأقربون، له أمزجة بعدد بزاته، يستحضر كل سمة وفق الموقف الذي هو فيه، ولا أحد يجرؤ على تنبيهه أنه يرتدي البزة الخطأ.

صورته المتماسكة التضاريس احتلت مكاناً بارزاً عبر الجريدة الأكثر ذيوعاً فبدا كما لو كان ملاكاً هبط ليمسح بجناحيه عذابات أهل الأرض.

ابتسامته تفلق القلوب الصلدة، وتكذب أي نية خبيثة يمكن أن تساورك لتشي به عندك، في كل الصور التي تنشر له في الصحف والمجلات يبدو ودوداً وديعاً له سمات الصالحين.

عنوان كبير يعتلي صورته ممجداً تبرعه بعشرة ملايين لذوي الاحتياجات الخاصة، وفي صورة أخرى ظهر محدقاً في الكاميرا ومطلقاً ابتسامته الآسرة، وهو يسلم الشيك لرئيس جمعية المعوقين.

كلمته المصاحبة للخبر تهجو الأثرياء لشح أيديهم، وضمورها في ميادين الخير، ومتمنية تكاثف الجهود، والمبادرات في الأعمال الخيرية، وختمت بدعوة جميع الأثرياء للالتفات، والمساهمة في مد يد العون للمحتاجين بإطلاق المشاريع المساندة والتطوعية.

رفعت بصري من قراءة الخبر عند رؤية جميل بدري وهو ينزع قدمه المعطوبة لينتقل إلى الجهة الأخرى من القصر لاستكمال تشذيب الأشجار الملتفة حول منابع الإنارة المحتجبة بفعل تشابك الأغصان.

لم يكن ليتأخر عن أداء هذا الدور وإلاّ اكتسب عاهة مضاعفة، لا يوجد مخدوم داخل القصر دون إعاقة. كل منهم يحمل عاهته الخاصة به، والزائر يحسن الظن بصاحب القصر كونه جمع ذوي الإعاقات ليكفيهم ذل السؤال من خلال أعمال شريفة، وان كانت تبدو متواضعة.

ومن هم بداخل القصر يعلمون أن الإعاقة قدر قادم ما داموا على رأس العمل، ومن لم تكن له إعاقة ظل ينتظرها بدعاء حار أن لا تكون معطلة للحياة. وأنا ممن ينتظر استلام إعاقته، فبعد أن دخلت الجنة عبث بحياتي كما يشتهي ولا زلت سليم البدن.

خلال عمر طويل قلبتني مخالبه ذات اليمين وذات الشمال، نشوة التقليب تلك يمعن فيها كهرٍّ أيقن من استسلام فريسته فركز قائمتيه بجوارها يتأملها بتله مبعثه تزجية وقت، أو إماتة ملل باقتراف الشهوات الممكنة، وغير الممكنة. بالنسبة لي كان استسلامي الطاغي محفزاً له لأن يهملني، وعيناه تتربصان بي عن بعد، فإذا أبديت حركة ما، اندفع بسرعته القصوى، ليضع إحدى قائمتيه في بطني، وينزعني إليه. ينزعني نزعاً لكي يخلق الإثارة لنفسه المترعة برغبة تحقيق كل ما هو غير ممكن.

قادر على الوصول لكل المتع، وكلما اجتاز متعة بحث عن سواها. هذا السير الآمن في الدروب الزلقة زوده بمتعة التلهي. يبحث عن نشوته بأي طريقة كانت، غدا ماهراً في التشويه، فامتلأ قصره بأنواع من الدمى البشرية، وبسبب عبثه المستمر بها لم يبق داخل القصر خلقة سوية،

هناك العوراء والعرجاء والمخصية والمحروقة والمنتوفة والمصدومة والمعلولة، ومن لم يصب العطب جسدها قرضتها الوساوس وشتى الأمراض النفسية، كلها كائنات شوهاء، وفي كل يوم له سلوى جديدة!

في يوم قديم (غير رحيم) كنت دميته الجديدة.

الدمى وجدت لكي يلعب بها، ومن ذا الذي لا يلعب بدماه، لهذا لم أكترث كثيراً لآثار التشوهات التي تركتها مخالبه في أحشائي.

قادتني لهذا الاستسلام حكمة عظيمة تعلمتها عندما كنت صغيراً ولم أبرح أتذكرها.

سنوات طويلة مضت على ذلك الدرس أسترجعه في كل حين كي لا أبتئس من كل التصدعات التي أحدثتها في حياتي، وحياة الآخرين.

منذ عشرات السنين انطلقت تكبيرات صلاة العيد تملأ فضاء حيّنا الرطب بجو روحاني اختلط بفرح غامر، عشّش في حنايا الروح، فتقاطر المعيدون في الشوارع بثياب بيض، ووجوه تشع بهجة، وهم يتبادلون التهاني والتبريكات، وغردت الصبايا والصبية في حللهم الجديدة، يتسابقون لقرع الأبواب، وانتظار عيديتهم مفضلين النقود على الحلوى التي فاضت بها جيوبهم. . .

مثلهم تماماً خرجت فرحاً بملابسي الجديدة، وحلم غلة (العيدية) يزداد وفرة مع توصية والدتي بذكر الأقرباء، والأصدقاء الذين علي أن أعايدهم إن رغبت في الحصول على النقود الوفيرة.

في فجر ذلك اليوم خضعت لغسيل متكرر كشف مخزناً من الأوساخ تغلغل في ثنايا ومنعطفات جسدي. كانت تمر عليه يد عمتي بسرعة فائقة من غير إزالته تماماً نكاية بأمي لتستخدم هذه الأوساخ كدسيسة توغر بها صدر أبي عليها هذا إذا تنبه أبي لقذارتي أصلاً.

جميع أقراني خضعوا لذلك الفحص الدوري، فيوم العيد فرصة لجميع أهل الحي للتذكير بتغيير أثاث منازلهم، وإعادة طلاء الجدران والأبواب كي يستقبلوا هذه المناسبة بنظافة أكثر.

نحن تنبهنا لهذا اليوم، فازدانت بيوتنا، وخلع الجميع أسمالهم البالية، وارتدوا حللاً جديدة. إلاّ أن حيّنا لم يكترث بهذا اليوم كثيراً، فأبقى قاذوراته في أماكنها، وكأنه يولم للذباب والحشرات في يوم سيطردون من المنازل عنوة. كنت أهم بالانتقال إلى بيوت الأقرباء من غير أن تطال ملابسي قاذورات الأزقة الملتوية، اعترضتني بقعة ماء موحلة، وكلما حاولت اجتيازها تمددت، سرت بمحاذاتها، فاتسعت رقعتها، عدت أبحث عن الجانب الضيق منها كي أقفزه، وكنت أحاذر من أن تصل أوحالها إلى ثيابي الجديدة، فتعكر صفاء العيد، القفز كان وسيلة غير آمنة لتجنب ما لا يحمد عقباه، فاحتجت لوقت ليس بالقصير لأن أنقل عدداً من الحجارة، والأخشاب، وأعبد بها ممشاي كي أصل للجهة الأخرى من حيّنا بثياب نظيفة، وقبل أن أكمل خطواتي المتأرجحة فوق الجسر الذي شيدته، كانت ثمة يد تلقي بصفيحة قاذورات من أحد الأسطح المطلة فوق هامتي مباشرة عندها لم يعد مجدياً المحاذرة من قاذورات الشوارع، فعدت للبيت أكثر اتساخاً، مما حمل عمتي على ضربي (حتى في يوم العيد)، وأطلقت قسماً غليظاً أن أبقى على هيئتي بقية النهار، ليتطاير شجارها مع أمي إلى المساء غير عابئتين بأنهما انشغلتا في عراكهما عن استقبال المعيدين، أو تزييني للخروج ثانية، فمضى العيد، وأنا أتناشج بحرقة ليس على اتساخ ملابسي الجديدة بل على ضياع العيدية، وبقيت أتساءل من أي الأسطح اندلقت كل تلك القاذورات دفعة واحدة، وليظل سؤالي موصولاً:

ـ هل تحرزنا، وحذرنا مما في الأرض، يقيناً مما يلقى علينا من السماء؟!

هذه هي الحكمة العظيمة التي تعلمتها!

وبسببها لم أُحاذر بقية حياتي من أي دنس يعلق بي، سعيت في كل الدروب القذرة وتقلدت سنامها. سمة القذارة هذه هي التي أدخلتني القصر. عندها لم يعد من مناص سوى البقاء مغموراً في دناستي لأتعلم حكمة أخرى:

«كل كائن يتخفى بقذارته، ويخرج منها مشيراً لقذارة الآخرين!».

حكمة متواضعة أصطدم بها يومياً، ولا يريد أحد ممن يتسربل بها الاقتناع بممارسته للغباء، لذلك أجد في تذكرها ممارسة لغباء إضافي!

في ليالي القصر الصاخبة تتزاحم السيارات الفارهة في المواقف الداخلية، ويتحول الخدم ببزاتهم المزركشة إلى كائنات غير مرئية، وهم يتنقلون بين المدعوين بالمشروبات، والفواكه، والحلويات ذات الأصناف، والأشكال المتنوعة، يتحركون من غير أن تمسهم عيون الحضور كبيوت حيّنا المواجه للقصر، بيوت تبدو من داخل القصر كما لو كانت قامات انحنت في حالة ركوع دائم لم يؤذن لها برفع هاماتها.

الليل صاخب، والنساء أحرقن أطرافه بهز قدودهن، وغنجهن الفائر، والرؤوس ثقلت، وبقيت الكلمات المعجونة تستعر على لهيب شهوة مؤجلة.

الشهوة. . هذه النار المشتعلة من أول قطرة دم سفكت على الأرض، تحتاج دوماً إلى نفط الدم كوقود لمواصلة اشتعالها.

شهوة، ودم، وضحية. تثليث معاكس للقداسة، ومعاكس لشرائع

كل الديانات. هذا التثليث الموازي هو الملعب المقابل لإحداث الفعل، ومن ثم صناعة التاريخ.

جوزيف عصام عُمِّد في كنيسة مريم العذراء في بيروت، وجاء إلى هنا غاضًّا الطرف عن العذرية، ممتهناً التبشير على طريقة بيع الخواتم، والأحجار الكريمة لمن لا يريد حجًّا.

ـ اذا أردت التطهر، فاعترف بذنوبك، واصفح عن خصومك، فأبونا الذي في السماء تذوق ألمك من الأزل، ما فتئ يتألم من أجلك.

ـ من أبونا هذا؟!

وقفته المضحكة في صلاة الفجر التي أمّها سيد القصر، جعلتني أتيقن من تلبسه حالة تدين متذبذبة، يتذكر أنه لم يدخل إلى كنيسة منذ أن قدم إلى هنا، وبعد كل كارثة يشارك فيها، يكون جواز سفره ممهوراً لأداء حجة متأخرة لإحدى الكنائس (هو يطلق عليها حجة تيمناً بالحج الأكبر الذي وقف لمشاهدته عشرات المرات)، وإذا أراد الخلاص، والتطهر التامين تكون وجهته إلى روما!

الدين هذا النفق الذي يسلكه الجميع لتبرير الغايات النبيلة والحقيرة، يسلك طريقه الجميع للوصول إلى مقر المصنع الخلفي حيث تفصّل وتطرز الملبوسات لارتدائها في المناسبات التي تحتاج إلى الوجوه الصقيلة والعابسة. ولكل تصميم طريقة لبس وحركة.

كل فكر هو فخ لمن ضل عن إيمانه الخاص، وتنشأ الحفر في مناطق منخفضة عن سطح الحياة، ومع امتلائها لا تصل إلى السطح بتاتاً، تبقى مغمورة كفخ أو ماء آسن.

لي خمسون عاماً (تزيد قليلاً) متورطاً في هذه الأيام المتعاقبة،

وكلما بعدت عن المشهد اكتشفت أن الحياة يصنعها: المعتوهون، والمرتشون، واللصوص، والوصوليون، والقوادون، والزناة، واللوطيون وطالبو السلطة وحائكو المؤامرات. هم من يقومون بدور الدفع مثلهم مثل المصلحين تماماً.

وفي القصر تتواجد تلك العجينة من فاسدي الذمة، يقيمون أضلاع المثلث ليلياً، فتنهش الضحية، ويسيل الدم، وتبقى الشهوة متجددة متأججة، متعطشة للدم، فهي الداء الذي يتوالد، ولا يقتل، هي المغناطيس الذي يجذبنا للنهاية، ويجذب الحياة لأن تواصل تجددها. لا أحد ينجو من سمة فساد ما، كلنا معفر بدناسة يغطيها جيداً إلاّ أولئك السفلة يسيرون ملطخين بقاذوراتهم من غير غطاء، أو تورية، وأنا منهم.

أجول ببصري بين نساء القصر بحثاً عن تهاني، علني أجدها فلا يمكن أن تكون هي التقية الوحيدة التي تنقض كل براهيني على أن الإنسان كائن قذر بفطرته.

ذات مساء حين دلفت إلى مخدع تهاني كنت ألثم جيدها، فهمست في أذني:

- لن تهرب مني، سألحق بك أينما كنت.

أظنها برت بوعدها، ولحقت بي لداخل القصر، وأظنها ترقبني من مكان خفي، تلاحقني ببصرها مفتشة عن المرأة التي اصطفيتها بدلاً منها.

نساء كثمار الأرض كل واحدة منهن لها تربتها التي تتشبث بها، ولها مذاقها المثير لشهوة القضم، تغيب عنا في فصول، وتظهر في فصول،

ونحن ننتظر موعد ظهورها. في الصيف كالشتاء ثمة تقليب يحدث في الأرض، وفي الروح، والرغبة.

لم استطع التخلص من ذكرى تهاني، تأتي في المواسم كفاكهة لا تخلف موعدها، لأتذكر أول طعم لذيذ تسلل إلى جوفي.

فورة غضب أسامة الدائمة تجعلني دائماً أمرر مذاقها عبر حنجرتي، ذكراها غدت مذاقاً مراً، أبحث عن وجودها لتصحيح هذه الذكرى مع قدوم أي امرأة للقصر، أخشى أن تكون هي. امتلاء القصر بالنساء ذوات المآسي المختلفة يجعلني متيقناً أنها موجودة في مكان ما منه، في أحيان أجزم أنها جاءت، وخرجت، رأتني منبوذاً كما كنت منبوذاً في الحي فلم تصطفيني هذه المرة.

أمارس أحلام اليقظة كلما طرأت على بالي، ألمحها تدخل إلى البهو تخلع عباءتها، وتدعوني (في حضرة سيد القصر) لأن أقبلها فتضمني لصدرها وتبكي، تنتفض، وتفر من بين أحضاني لتوزع جسدها على الراغبين في المتعة، تمنحهم خلاصة أنوثتها، وتبصق في وجهي، وتمضي إلى حيث تلملم حزنها كما يليق بامرأة عاشقة فقدت حبيباً لم يكن جديراً بخفقة قلب صادقة.

- أين هي الآن؟! في أي فجوة من فجوات هذا القصر سقطت؟

تهاني إحدى الضحايا التي هربت منها منذ خمسة وثلاثين عاماً، بترت علاقتنا بصورة دموية، ليكون الوداع قاطعاً غير قابل للالتحام، والذي لم أتنبه له أني أفسدت حياتها، وبقيت أمضغ سيرتها كلما اشتقت لاستعادة جزء من البراءة.

توصلت أنا وأسامة إلى اتفاق يقضي أن لا نتحدث عنها كي لا نكون

حضانة للبغضاء، وتفريخ المشاحنات الصادمة، ولكي ينام كل منا في شرنقته التي أعدت له كرحم امرأة ألفت الولادة المتكررة، ارتضينا إبقاء نبض الحقد فيما بيننا من غير أن نجسه في كل حين.

هذا الاتفاق ينقضه أسامة كلما جاءه خبر عن تهاني، ويجعل حياتنا حقلاً لتبادل التصويبات العشوائية، وتمرير الغيظ إلى أوردتنا ليغدو قلبانا أكثر ضيقاً ببعضنا.

نشعر بأن كل منا أخرج صاحبه من حناياه وأبقاه أمامه عل فرصة تأتي وتمكنه من تمريغه لتشفى الروح المعلولة مما بها.

بقاؤنا معاً قدرياً أشبه بحاجتنا إلى مرآة لنتلمس حالة بثور انتشرت في وجهينا وشوهتنا، كل منا يحتاج للآخر ليعرف إلى أي مدى ساءت حالته.

لم أعد أميز في أي جهة يمكن لي أن أتجه لاستعيد ذاتي، فكل الاتجاهات تشير للعبودية التي فرضها سيد القصر، يريدنا أمامه في غفوته، ويقظته، وفي الليالي الصاخبة نهرب (أنا وأسامة) من عينيه المنشغلتين بمتابعة تمايل النساء على نغمات موسيقى العازفين، وهو يتفحص أجساد الراقصات بغية الوصول إلى أكثرهن تموجاً لينصب رايته في أمواجها المتكسرة، يقتعد صدر الجلسة، يحف به ندماؤه متابعين معه اكتشافاته، ومؤتمنين على أي قول يتلفظ به، وكلما أوشك كأسه على الانتهاء رفع إصبعه ليتسابق الخدم لإعادته إلى نشوته قبل أن تهد أسوار غضبه المنخفضة.

في هذا الصخب المكتظ بالعشوائية، يقترب أسامة هامساً بحرقة:

ـ كم تبقى من العمر للخروج من هنا؟

هذه الحرقة كانت ملازمة لنا ونحن خارج القصر حين كانت الحياة تجري إحماءها للركض في أوردتنا، في ذلك الزمن كان يقف القصر على أهدابنا فيقتعد أهالي حيّنا أمام أضوائه المشعة، وحلم عاصف يعبث بهم للوصول إلى داخل أسواره.

أظن أن أهل حيّنا ما زالوا يوسوسون بأحلامنا القديمة ويقلبون احتمالات السؤال:

ـ كيف السبيل لدخول القصر؟

بينما نحن (الذين في الداخل) نحصي الأيام للخروج منه.

﴿إِنَّهَا تَرمِي بِشَرَرٍ كَالقَصرِ، كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفرٌ﴾
[سورة المرسلات، الآيتان ٣٢ و٣٣]

القصر

من أي جهة تدخل إلى المدينة يظهر القصر، ويستطيع أي شخص أن يراه من بعيد إلاّ أن رؤية صاحب القصر يحظى بها قلة قليلة من البشر، ويعدون من المحظوظين لنيلهم هذا الشرف.

ولولا الدم المسفوح من بدن جمال المجنون، لما تسنى لأهل حيّنا رؤية ملامح سيد القصر.

بأعداد غفيرة نتناسل من زوايا وفرجات الحارة الواقفة على شفا الشارع الرئيس، نترقب مقدمه، محدثين جلبة تضاهي تجمعاتنا العشوائية، ونغرق في ضوضاء متداخلة، تعلو فيها الأصوات، وكل منا يريد إسكات من يجاوره كي لا يغلب الصوت الرؤيا، يومياً نتجمع بهذه الأعداد عند البقعة الفاصلة بين حيّنا، والطريق الذي يسلكه باتجاه قصره بغية رؤيته فلا نفلح في تحقيق تلك الأمنية، ويومياً تعبرنا سيارته من غير أن تمنحنا فرصة اصطياد ملامحه التي خرجنا من أجلها.

ومع ارتطام جمال المجنون بمقدمة عربته وارتمائه على الأرض توقفت سيارته الهاربة دائماً وتمكنا من اختطاف هيئته المبالغة في

الأناقة، لتتضح ملامح وجهه البلورية الصافية من كل شيء إلاّ من كبر تمدد بين حاجبيه ليصل إلى شفتيه مستفزاً معكراً بتأفف من التفافنا حول سيارته وانغراس خراطيم عيوننا في وجنتيه المشربة احمراراً.

كانت رؤيته حدثاً تفننا جميعاً في روايته على أوجه عدة واستقبل المستمعون حكاياتنا بكل تفاصيلها بدهشة مضاعفة وأعادوا روايتها بزوائد وتمليحات لم تحدث بتاتاً. . .لكن كل الروايات أجمعت على أن السيد مضى في الزمن بعيداً وان لم تظهر كهولته جلية مع أن العروق الزرق النافرة من ترقوته تبين أنها أمضت عشرات السنوات وهي تضخ الحياة بجهد مكثف لتتصلب عند الأذنين، وأسفل الحنجرة وهي في حالة حيرة: هل تواصل عملها أم تتوقف؟

رؤيته جلبت ثرثرة هادرة تشعبت في شوارع حيّنا، فكل منا يحكي ما حدث لجاره أو صديقه أو عابر سبيل، ونقبل على بعضنا بشغف، وكأن السامع لم يكن راوياً لنفس الحكاية منذ لحظات!!

قبل حادثة دهس جمال المجنون لم نكن نلمحه بوضوح حيث تختفي ملامحه خلف ستائر (نعتقد أنها حريرية) تدلت من نافذة سيارته (الرولز رويس) البيضاء فتغيب جلسته المسترخية في المقعد الخلفي لتتكرر رؤية السائق السوداني بعمته المكورة على رأسه كجبل ثلجي مائل دائماً، ينعطف غرباً بميلان يوازي عمامته تاركاً حيّنا خلفه كمن يهرّب قطعة سكر مذابة من أسراب ذباب خرج لامتصاص أي شيء.

دأبنا على الخروج في أوقات مختلفة من نهارنا، لنقف على مفترق الطريق المؤدي إلى بوابة القصر الرئيسة متشهّين رؤية السيد حين يعبر حيّنا الرث المواجه لقصره ذي الأبواب، والأسوار المحصنة ضد فضولنا

المستشري. وحين تبتعد عربته البيضاء عن تجمعاتنا نلاحقها بالأبصار الكليلة، ونلمح قطعة الصابون تلك، وهي تغوص في زبد، وتتلاشى داخل الفردوس بإيصاد بوابات القصر العملاقة ـ المحتضنة لمقدمة ـ بإحكام، وتترجل أسوار القصر برسوخ، وثبات في مواجهة نبل عيوننا المتلاحقة.

في جلسة ضمت شباب الحارة استنكف عيسى الرديني خروجنا اليومي لرؤية صاحب القصر مبدياً استعداداً جازماً في وصف هيئته، وملامحه لمن رغب بملء فضوله، ولم يكن احد ليصدق تلك الأوصاف التي أسبغها على صاحب القصر، واستقبل أقرانه وصفه للسيد بسخرية لاذعة، جعلته يغادر الجلسة متوعداً كل من سخر منه بالندم.

جدر عالية تقف هناك.

لم يعد من مدى سوى ظلال أحلام يابسة ضمرت جذورها في مخيلاتنا، غدت الأسوار سداً منيعاً تنقلب أبصارنا خاسئة لا تجتازها إلاّ بتخيل ما يمكن أن يحدث خلف تلك الأسوار الشاهقة.

في طور شبابنا الأول، (ونحن نحصي عدد الأنوار التي تضيء أسوار القصر) كنا نتصور أن حوريات يتساقطن من السماء ليحدث قدومهن كل تلك الجلبة المنبعثة من داخل القصر بنشوة، وتهيج على ترديد الأغاني الشجية إلى مطلع الفجر.

هذه الخيالات المفرطة كان مبعثها تلك الجدر العالية التي كانت تقف سداً منيعاً أمام أبصارنا تاركة للخيال فسحة كبيرة لأن يحلق كيف شاء..

مع تشييد القصر جف البحر من أحداقنا كما لو كان دمعة تم تجفيفها

بمئات الأطنان الإسمنتية فبقيت تنز لأعماقنا مكونة بركاً من الأسى والحزن.

ونسي الناس جانباً من حيّنا الرث، ولم يعد أحد يذكر تلك الأزقة النافرة، والمساكن التي تجنبت السقوط بالاستجابة لحالة إسعافية مستعجلة ثبتت في أصلابها أعمدة حديد لتقي تهالكها قبل أن تتداعى.

غدا القصر عنواناً جديداً لحيّنا الذي تخلى عن اسمه جبرياً، ورضي أن يستتر خلف شوارع متسعة، مسفلتة، ومشجرة، ومضاءة.

** **

ـ من هذا القصر ستخرج الحياة.

جملة سرت في أوردة الزمن لتؤكد نبوءتها في كل حين.

نهض القصر متبرياً من منازلنا المنكبة على بعضها بتهالك، واختار أن يكون معلماً للقادمين إلى المدينة.

أقيم في موقع استراتيجي، وعلى مساحة واسعة من الشاطئ مشعاً برخامه الأبيض ذي التصاميم الهندسية المبتدعة التي أبقته متلألئاً طوال الليل بزرع الإضاءة في أماكن مخفية لتشع بألوان قوس قزح متنقلة بين الحين والآخر من لون إلى لون مبدية هندسة ضوئية متقدمة.

نهض في استدارة مدروسة مانحاً حيّنا ظهره، ومتقوساً كمن يهم باحتضان المدينة من جهة الشمال، ومغيباً بحراً أحجمت أمواجه عن زيارة الشاطئ.

طغى ذكره حتى نسي القادمون اسم حيّنا الصغير، واستبدلوه باسم حي القصر بينما نسميه نحن حي جهنم، أو النار.

قصر منيف يبهر الناظر فمن يراه لا يشك بتاتاً من كونه هبة نزلت من السماء كما لو كان قطرة ماء تجمدت قبل أن تستقر على الأرض، فغدا معلقاً بين ماءين لتتعلق به العيون، والأفئدة، وتغدو أمنية من رآه من الخارج رؤيته من الداخل.

أقسم من دخله أنه رأى الأرض غائرة تحتضن غرفاً زجاجية، تغوص لجوف البحر، وتحوم حولها المخلوقات البحرية لتشاركك وجودك حتى تكاد أن تلمسها، وإن صعدت رأيت عجباً، فترقي سلالمه الرخامية توصلك إلى ارتفاع متدرج لترى المدينة متناثرة من حوله على هيئة رجل جلس في حالة استجداء متواصل، وظلت أسواره الخارجية شامخة تتعالى جدرانها بتعال مختال مطهمة بحلقات مذهبة حفرت بنقش دقيق مجسم داخل تيجان وأيقونات لولبية مظهرة شعاراً داكناً طهمت قاعدته الذهبية، وأعلى أطرافه بأحجار كريمة مشعة تتسق مع تجويفات الرخام الخمري الصقيل المجلوب من أسبانيا.

قصر أثث من كل بقاع العالم، وزينت حدائقه بالأزهار، والثمار، والحيوانات، والطيور، والخيول، وكلما ضاقت مساحاته ردمت مياه البحر، وبسطت لاستقبال أفخر منتجات المصانع من سيارات، ويخوت، ودراجات مائية، وألعاب، ومجسمات فنية.

أنفة جدرانه المتعالية لم تمنع الطفوليين، والمخاطرين من رؤية تدلي الأشجار بثمارها الناضجة حتى أغرت بعض المتسللين بتسلقها لقطف ثمرة مانغو، أو حبة برتقال، أو ترصد تلك الثمار بحجارة يقذف بها - المتسلل - عشوائياً فتسقط متجاورة مع ثمرة، أو ثمرتين لم تكن هدفاً للرامي. كانت مخاطرة عظيمة أن نحوم حول ذلك القصر طلباً لثماره،

ولم نكف عن هذه المغامرات حتى وصل إلينا خبر سجن ياسين أبو عميرة لسنة كاملة لأنه تجرأ وتسلق الأشجار الموازية لجدران القصر لرؤية الأجساد البيض، وهي تغوص بين ثبج الأمواج المسجونة (كان هذا قبل أن تتباعد أفنية القصر بإضافة أسوار التهمت أراضي مجاورة).

يزداد بهاء القصر ليلاً حين تسرج مئات المصابيح الكهربائية، فتثير تحدياً حامياً بين صبيان الحي ليخرجوا متراهنين أيهم يقدر على إحصاء تلك المصابيح، وغالباً ما يفشل المتراهنون حيث تكون نتيجة العد متفاوتة، يغلبون فيها تخميناتهم فحين يبدأون بالعد لا يمضي وقت طويل حتى تبهر الإضاءة عيونهم، ويصبح العد مساحة كبيرة من الضوء.

في البدء تخبطت المقولات عن مالك القصر فلا أحد يعرف بالتحديد اسم مالكه، أو من أين قدم، أو لماذا اختار هذه البقعة لكي يقيم هذا القصر المنيف.

حزمة من الأقاويل والإشاعات تدور حول مالكه، وعندما انحصرت الأسماء في شخصيات بعينها أحجمنا جميعاً عن تسمية صاحب القصر، وفضلنا إلحاق نسب القصر لأسماء مختلفة من أعيان البلد، فبقيت شخصيته أحجية تتناسل بالاحتمالات، والتكهنات، وإن كان اغلبنا يجسد المالك الحقيقي في شخصيات محددة من أعيان البلد إلاّ أن الخشية من التصريح باسم أحدها قادتنا إلى اختيار التورية درباً آمناً للحديث عن القصر وصاحبه، وإطلاق لقب السيد على مالكه.

اقتربت هالة تلك الشخصية حين قطن القصر فاستقصدنا الخروج لرؤيته في انطلاقات عشوائية متربصين بروحته، وإيابه، فنلمحه من بعد عابراً ـ بسيارته الرولز رايس ـ الطريق المشقوق غرب حيّنا لإيصاله لبوابة

القصر حيث يجلس في مؤخرة العربة غير مكترث بعيوننا المبحلقة تجاهه فنتابع انسياب سيارته، وهي تقطع الوصلة الوحيدة غير المعبدة، والتي ما زالت تدخل في حدود حيّنا المتواضع (قبل أن تنزع ملكية تلك البقعة لصالح القصر) ليتصاعد غبار كثيف محدثاً زوبعة صغيرة كأنها خرجت من كم ساحر أتقن بث حركات مبهرة. نلمحه يجلس في المقعد الخلفي مسترخياً بملامح حادة حلوة التقاسيم، ولم نتمكن من التحقق من هذه الملامح إلاّ في إحدى المرات حين اعترض مسيرة سيارته جمال المجنون (ويقال إن أبا خشبة دفع بجمال المجنون كي يوقف معاناة أهل الحي من خروجهم اليومي)، فارتطم بمقدمتها، وسقط معفراً بدمائه وصرخاته، ليترجل السائق من أمام مقود العربة لاعناً تجمعنا، وأزاح جمال عن طريق سيره بسحبه من كم ثوبه ملقياً به على هامش الطريق من غير أن يرتاع من فعلته تلك بينما ظل السيد داخل المركبة متململاً مبقياً على وضعية جلوسه، الشيء الذي تغير فيه جريان تأففه ليعكر تقاسيم وجهه مع محافظة ملامحه على حدتها وصرامتها، وهو يتطلع صوبنا، وكأن كائنات متطفلة بزغت من الأرض السفلى لإثارة تأففه بأفعال صبيانية، كان لون بشرته المبيض المشع مبهراً لنا، وخالقاً دهشة أن يكون هناك شخص على وجه المعمورة يمتلك نقاء بشرته ولمعانها. نسينا جمال المجنون معفراً في دمائه، والتففنا حول السيارة محدقين بتلك الشخصية التي طفح ضيقها، وأخذت يده اليمنى تسرح على جبينه، ووجنتيه، وكأنه يزيل وسخاً علق بها للتو، ولم يجد منفذاً للتخلص من عيوننا المبثوثة نحوه سوى تحريك شفتيه باقتضاب وعجلة، لينطلق السائق مرة أخرى مثيراً تلك الزوبعة الصغيرة من الأتربة، ومبتعداً عن فضولنا، وهياج صرخاتنا المحمومة.

وكما نخرج نهاراً لرؤية سيد القصر، كنا نخرج ليلاً نتطلع لأنوار القصر المشعة في كل الاتجاهات، ونتراهن على إحصاء المصابيح المختلفة الألوان والأحجام، ومع عجزنا عن بلوغ إحصائها تراخى رهاننا.

في إحدى الليالي تنبهنا لظلمة غامقة سكنت بقعة النور التي ألفنا الجلوس - في مواجهة القصر - لإحصاء ما تبثه من إضاءة فاقعة. ظلمة ظننا معها أن القصر ابتلعه البحر حين هاج غضباً لمحاصرة امواجه.

واشتعلت أسئلتنا في الليلة التالية عندما بقي القصر غارقاً في ظلمته.

ليال ثلاث أظلم فيها القصر تماماً، لينتشر خبر موت السيد الكبير، وانتقال كل ثرواته لابنيه الوحيدين اللذين أضافا للقصر صخباً دائماً، لتتأجج أمنية دخول القصر في نفوس كل من هم داخل الحي.

وفاضت هذه الرغبة حين هرب عيسى الرديني من الحارة، ووصول إشاعة أنه استقر به المقام داخل القصر. تلك الشائعة التي تنازعناها بين مكذب ومصدق، ومع تأكيدها من قبل المتلصصين بالقصر قابلها يوسف المجياح بنبوءة صدقت إلى حد بعيد:

- من هذا القصر ستخرج الحياة.

كانت جملة مواربة تحمل معنيين متناقضين، فمن جرب الدخول للقصر (وأنا منهم) علم أن الحياة خرجت من أبداننا بعد أن سحقت أرواحنا تماماً.

ومن لم يجرب العيش داخل القصر اتعظ بما حدث لميمون عبدالهادي (أول ضحايا القصر) الذي لم يضبط حالة فوران غضبه عندما اقتحم البوابة الرئيسة مطالباً بثمن أرضه التي أضيفت لجنبات القصر،

وكان رغاؤه المنتهي بالشتائم غير المقننة كفيلاً بسحبه من ياقة ثوبه وزجه في السجن لفترة غير معروفة مع بقاء توسلات أسرته بالسؤال عنه، والتصاق وصمة عار في جباه أعيان الحارة الذين خرجوا شافعين في عودته، وعادوا أكثر حذراً، وحرصاً من ذكر سيرته، أو تذكرها، لتبقى أسرته ـ سنوات طويلة ـ ممسكة بأمل عودته.

قفزنا لداخل الجنة من غير روية.

حين بزغ حمدان غبيني من المنحنيات الضيقة بخطوات واسعة متحاشياً الروائح القذرة بإغلاق أنفه، وفمه بشاله المنقط، حاثاً خطواته على الإسراع للجهة المقابلة لحيّنا المدسوس في جوف المدينة، كان راغباً في استنشاق هواء نقي غير ملوث بروائح دجاج نافق، وحمام خليل مساوي التي اجتاحتها شوطة لا يعلم كيف وصلت إلى كن دجاجة منفرد، وفي ذهوله ذاك أبقى على جثث دواجنه في أماكنها يقتاتها الريح وجزعه، كاتماً غيظاً بدده بالشتائم، واللعن على مسامع القريبين منه، محملاً وزارة الزراعة جريرة نفوق دواجنه بسبب امتناعها عن تزويده بالأمصال مع أول مجموعة نفقت من دجاجه.

غمزتني عمتي خيرية بمواربة مكشوفة:

- هل تسببت في نفوق دجاج خليل مساوي؟

لم أفطن لمغزى سؤالها إلاّ متأخراً عندما اختلطت أفعالي (التي تصمها بالقذارة) في مخيلتها بكل ما يجلب الفساد، وأصبحت تحملني جريرة أي كارثة تعبر الحي.

مضى على تلك الاتهامات زمن طويل كما مضت منذ زمن طويل خطوات حمدان الحثيثة العجلى بين أزقة الحي، وكأنها تقوده لحلم دخول الجنة، أو مجاورتها بالأحلام أسوة بأحلام جميع أبناء الحارة حين يسترخون، ولا يعود لهم من عمل سوى البحث عن ثقب يمررهم

للجهة الأخرى من ذلك الشارع الممتد الذي تم تحويل مساره كي لا يوصل لبوابات القصر الرئيسية.

ـ الأحلام هي المخدر الذي نحقن به لنعيش لحظة غيبوبة نشيد فيها كل أمنياتنا القبيحة، والجميلة معاً إلاّ أن الحلم يحاذي النوم، ويغرق صاحبه في خدره كلما تباطأ الجسد.

حرك الدكتور خالد بنان أستاذ علم النفس مضخة الكلام عندما تورط في اجترار أحلام الثراء داخل القصر، وأخذ يطبب الحالة التي وصل إليها بتذكر معرفته العلمية، وتوزيعها على هيئة وصفات لمن انجرف مع جريان الأحداث داخل القصر، وكأنه ليس المقصود بتلك النصائح.

بعد كل هذه السنوات المدهوكة بالأحلام أجزم أن كل أبناء الحي تعاطوا حلماً نقياً، وأدمنوه كما لو كان مخدراً صافياً ليمضي العمر، ونحن في حالة خدر طويل.

الآن، ومن داخل القصر، انظر إلى جهة النار، وأحلم بالعودة إليها، أتوق إليها بنفس الرغبة التي كنت فيها شغوفاً بدخول الجنة.

كانت الضربة قاصمة أفقت من هولها، وأنا أقف على حافة العمر، ولا أشك بأن جميع من دخل إلى القصر جلس مثل هذه الجلسة يعضّ أصابع الندم بطريقة لا يعرفها سواه.

حين كان أهل الحي يطوفون بأمنياتهم حول القصر، وصبيتهم يخرجون في مواجهة واجهات القصر مدببين أصابعهم نحو تلك الأسوار العالية، وأحلامهم الغضة تتوق لأن تغرس بذورها خلف بواباته الواسعة لم يكن يدور بخلد بعضهم أنهم ـ وفي كهولتهم ـ سيجلسون داخل القصر، ويشيرون صوب حيهم العتيق في رغبة جارفة للعودة إلى تلك

المرابع البكر. كل يوم نجلس، ونحفر ذكرياتنا بتؤدة علنا نجد ماءها، فقد غار الماضي بعيداً، فمنذ عشرات السنين تنافر الحمام من على أسطح المباني المتداعية في تشكيلات عشوائية خفقت بأجنحتها في اتجاه القصر الممتد على مياه البحر كوسادة تنتظر الحالمين ليريحوا أجسادهم المتعبة.

يومياً كان حمدان الغبيني يخترق شارعاً صقيلاً فخماً امتد في نحر المدينة ليقسم الحياة إلى نصفين، فجرت الدنيا بين ضفتيه لتستقر جنة هنا، ونار هناك.

الجهة الغربية من هذا الشارع يطلق عليها أبناء الحي الجنة حسداً وكمداً مما يجدونه من شظف العيش، ويؤسسون لموقعهم الشرقي مسمى النار مضمرين شكوى مكبوتة سربت في رسالة مشفرة علها تصل للمسؤولين، فشاع اسم الحي من غير أن يحاول أحد من المسؤولين الوقوف على مغزى الرسالة.

تمت استعارة وتعميم مسمى الجهتين من فم حمدان الغبيني نفسه حين كان يحمل حقيبة مهترئة، ويتجه بعد الغروب إلى المدرسة الليلية لمحو الأمية رغبة في الحصول على الشهادة الابتدائية علها تحرك موقعه الثابت داخل عمله، فقد ظل ساكناً على رتبة جندي لعشر سنوات من غير أن يثقل كتفه ولو بشريط واحد، وقد حفزه على أداء هذه المهمة المتأخرة عبرة أطلقها عليه أبو زوجته حين استرد ابنته من فراش الغبيني ناعتاً إياه بالحمار الذي لن يجود عليه الزمان بأن يغدو أسداً، هجر مقاعد الدراسة في وقت مبكر، ولم يجد مكاناً يقبل به سوى السلك العسكري، فنام هناك تحت مظلة مجد (جندي)، فيما تنافر أقرانه إلى

وظائف معتبرة، فأراد اللحاق بهم متأخراً من بوابة مكافحة الأمية، وواظب على الذهاب للمدرسة الليلية عله يحظى بتقدير صهره، ورؤسائه في العمل، أحياناً يؤدي صلاة المغرب في مسجد الحي، واضعاً حقيبته المدرسية في موضع سجوده، وقبل أن يكمل الإمام التسليم يهب من مصلاه عابراً أزقة ملتوية تكدست بها القمائم، وفاحت منها روائح شتى مختمرة تجبره على سد فتحتي أنفه بأداء مسرحي متأفف لمن يرقب تنقلات خطواته، ولم يعد إغلاق فتحتي أنفه ذي جدوى فمع نفوق دواجن خليل مساوي أصبح دوره شاقًا، ومتطلباً إغلاق فمه، وأنفه معاً مغالباً اختناقاً يخرج منه باستنشاق يسير ليكمل طريقه، ولتقفز به خطواته إلى الجهة الغربية من الحي حيث الحدائق، والإنارات، ونيون الدعايات، والفلل، والسيارات الفارهة، والأموال الغارقة في المشاريع القائمة على ذلك الشارع على هيئة مراكز تجارية وترفيهية، ومستشفيات، وبنوك، فإذا بلغ رصيف الجهة الغربية ملأ رئتيه تماماً في استنشاق طويل كما يحب أن يفعل دائماً، مردداً:

ـ أخيراً وصلت للجنة!

أرهقته الحروف الهجائية في تقاربها، وتنافرها فاستعان بجاره ميمون البحري ليقربها من ذهنيته المكدسة بحجارة الضومنة، والكيرم، ولم يخرج من الاستذكار اليومي إلاّ بملاحظة تباعد حرفي الجيم والنون مع إغفال تام لمرادفات الكلمات، فأطلق ملاحظته في «المركاز» حيث تجمع لفيف من رجالات الحارة لمناقشة السبل المتاحة لإيقاف جريان الصرف الصحي بين الأزقة، وفوران الرائحة الكريهة داخل البيوت. فتداخل معهم باقتراحه الذي حبسه في صدره كاكتشاف لم يسبقه إليه أحد:

ـ لو قمتم بتغيير مسمى الحارة لربما تحسن حالكم.

تنافر رجال الحي صائحين به راغبين في ردم ذلك الاقتراح المتهدم فشاغلهم بصياح محتد:

ـ اسمعوا ثم احكموا.

صمت بعضهم على مضض ليجد الغبيني فرصة لإيضاح مقصده:

ـ على مرمى حجر من حيّنا توجد جنة غناء. لماذا؟ هه لماذا؟

ـ . . . .

ـ لأنها اختارت مسمى الجنة حرف قريب، فحين يوزع الله الأرزاق يبدأ بالقريب أما أنتم ففي النار حرف بعيد لا يصلكم إلاّ العذاب!

هاج فيه الحضور مستغفرين، ومتبرئين من قوله، ونهروه بغلظة أن يكف عن مواصلة هذيانه، وتجديفه، واستملح البعض غفلته، ووجدوا في تفريقه بين الجهتين تفريقاً يريح خواطرهم، فتناقلوا اقتراحه بشيء من السخرية توزعوها في مجالسهم، ومع ذلك ثبتت تسمية الغبيني للجهتين بين أهالي الحارة، حيث تسللت التسمية على هيئة سخرية، ومع امتداد التندر بها غدت مسمى شاع بين الجميع، فأطلقوا على الجهة الغربية الجنة، وعلى الجهة الشرقية النار.

لم يكن يعرف حمدان الغبيني أن جهنم تتزامل مع الجنة في حرف الجيم، وأن النعيم ليس في تقدم الحروف، وترتيبها الهجائي بل في تشكلها. ولم يكن أهل الحي في حاجة لمعرفة شيء أكثر من إحساسهم أنهم يتلظون داخل نار مستعرة حملتهم للتقافز من سعيرها كيفما اتفق.

على مد أبصارهم استقر القصر في الجهة الغربية ببواباته الضخمة

التي تفتح آلياً وتغلق على عجلة من أمرها خشية من تسرب لهيب النار لمساحاتها الواسعة، وتغلق دون تلك الحياة البائسة المنبوذة في الجهة المقابلة لها، والمحصورة داخل حي حضن أجساداً مزقها العوز، ونفوس بعثرتها الفاقة فخرجت تبحث لها عن مكان داخل الجنة.

هكذا، وبسرعة متناهية تكونت طحالب الفقر، واستشرت في ذلك الحي البائس، ولمن أراد القفز للجهة الأخرى عليه أن يتخفف من حمولة الأيام، حمولات الضمير، والأخلاق، هذا إن حملها أحدهم أصلاً.

بهذه الحجة أقنعني عيسى الرديني لمزاملته بقية حياته:

ـ عشنا طفولة، وشباباً واحداً، فلنكمل الحياة معاً.

كان الكل على أهبة الاستعداد للخروج من نفق العوز، فمع تناقص منافذ الحياة داخل الحي كان ثمة تحريض خديج يتوالد لتحفيز الجميع على القفز إلى الجهة الأخرى، تحريض يتيبس على الأفواه، فالجميع عاجز عن اختراق حياته، والوصول للجنة.

أبو يونس السمكري يعمل في ورشة حدادة داخلية لم يصب في حياته ربحاً يمكنه من شراء منزل يخبئ فيه نسله المتدفق، ظل يعمل ليل نهار حتى إذ وهن عظمه أطلق سؤالاً عصره في بقية الرؤوس:

ـ من يجرؤ على دخول القصر؟

كان سؤالاً تعجيزياً ومحفزاً لأن نحتال جميعاً في خلق الفرص للدخول إلى ردهات القصر، أو الوقوف من بعد لمشاهدة بوابته الضخمة، ومن لم يستطع فعل شيء ادعى أنه كان هناك.

الجميع ادّعى معرفة سيد القصر، وحين طردوا من أمام البوابة الضخمة تفشت حالة سخرية على كل من ادعى أنه وقف داخل القصر.

حلم دخول القصر وإغواء عيسى كانا كفيلين بجعلي أنشط لأن أبقى داخل تلك الجدران، وأن لا أرهق نفسي بالتطلع لأسواره العالية، ومصابيحه المشعة في كل الاتجاهات في محاولة تميزها من بعد.

ففي سنوات الطور الأول من شبابنا، لم يكن عيسى الرديني يدخل مع أبناء الحي في مراهناتهم المحمومة التي تبدأ بعد الغروب لإحصاء مصابيح القصر، كل ما يفعله (وبثقة تامة) التطلع صوب تلك الأنوار المشعة في اتجاهات مختلفة وترديد:

ـ سوف أحصيها عندما أكون في الداخل.

محاولاً أن يكون صوته جهورياً، لإيصاله لأسماعنا، غير مكترث بالسخريات التي تتخاطفه، كما لو كان سمكة صغيرة ألقيت في دروب سرب من أسماك القرش.

مع انثيال أفواه الساخرين منه تراجع مرات عدة عن سرد حكاية، وقعت له حين كان مختبئاً داخل جزيرة القماري، ومع كل مقاطعة لحكايته يتراجع محاولاً ردم الأفواه المنطلقة في تصويب تندرها عليه، وعلى ادعائه.

الغريب انه ذكر لنا أوصاف السيد الكبير قبل رؤيتنا له، كان وصفه لملامحه وصفاً دقيقاً ظل هذا الوصف محل حيرتنا طويلاً إلى أن وقفت على قصة عيسى كاملة.

** **

أُصنّف داخل القصر من فئة الجلادين. و«الجلادون» مفردة أوجدت

لتورية نوعية الأفعال التي يقومون بها، وهي فئة محتقرة يوكل إليها إنجاز المهمات القذرة.

جمع أفرادها من مزابل الأحياء الشعبية، واقتصرت مهمتها على تقويض أي رجولة معتدة بنفسها حتى إذا أنهكها الاستنزاف تم ركنها في حظيرة القصر، أو استخدامها في مهمات حقيرة أخرى.

جئت إلى هنا كي أقوم بمهمة واحدة، فإذا بي أقوم بكل المهام الوضيعة. جئت ليلاً، وغدوت ليلاً. أعلم أني غدوت دنساً، وليس ثمة طهارة تنجيني مما أجد.

قلة قليلة تعرف دوري الحقيقي الذي أمارسه داخل القصر، وفي أحيان أصاب بالذعر حين تصلني همسات بعض موظفي القصر، وهم يشيرون إلي بطرف خفي:

ـ هذا من يعدل مزاج السيد!

أصاب بالتيبس خشية من معرفة السيد بما يقال عني وعنه.

تحاشى الكثيرون مصاحبتي كي لا يعلقوا في سيرتي، بعض رجالات الحارة الذين أدخلهم عيسى إلى هنا يكتفون بالتحية عن بعد، وفي أحيان يلقونها بمغافلة، وأحياناً يتعمدون تجاهلي.

سكن فئة الجلادين يكاد يكون الجهة الوحيدة في القصر غير المزدحمة، فهي منطقة موبوءة السمعة، ولا تصلها إلاّ الأقدام الضالة، وإذا ظهر أحد منا تسري دمدمة بين موظفي القصر عن ضحية قادمة سيسمعون صراخها، وتوسلاتها حالما يدخل أحدنا إلى بهو التأديب.

أعداد كبيرة من الخدم، والموظفين يتحركون كما لو كانوا نملاً يؤدون واجباتهم بمثابرة مضاعفة، يعلقون ابتساماتهم، ولا يلتفتون

للخلف، ولا يحدقون في الوجوه، ولا يحتاج المرء لمعرفة وضع أي منهم حيث تكفلت بزاتهم بتحديد مواقعهم داخل القصر.

وبين هذه المجموعات يغيب التاريخ، فلا أحد يعرف تاريخ الآخر، ولولا وجود مجموعة من أهل الحي تم زرعهم في وظائف مختلفة لغدونا كائنات مجهولة تقوم بأدوار ظاهرة وسرية، هذه الأدوار جعلت الأسماء الأصلية غائبة، واستحضرت أسماء للمهنة التي نؤديها، لم يكن أحد يسأل أحداً عن ماضيه، فأقدار الماضي هي الظلام الوحيد الذي نسير فيه من غير ترفق أو حذر. (هكذا سمعتها من الدكتور خالد بنان) أحد الذين دخل إلى الفخ فبقي ينزع نفسه من المصيدة بالمقولات التي يلقيها في المحاضرات، والمؤتمرات، وفي أحيان يكتبها في مقالات سياسية ركيكة، وينشرها في الصحف المتواضعة التي لا يطلع عليها أحد، فيضطر لإعادة ما كتبه بقراءته على مسامع من يجالسهم قبل مجيء سيد القصر.

وحضوره للمؤتمرات لم يكن لنباهته، أو عمق معرفته، وإنما تأتيه الدعوات كتبادل مصالح بينه وبين الداعين له، مما أثقل سيرته الذاتية بحمل عضوية العديد من الجمعيات، وعشرات المحاضرات التي ألقاها في الداخل، والخارج من غير أن يشار إليه بالبنان.

وحينما يسمع تأوهات العم محمد ركابي على الأيام الخوالي من عمره، يعالجه بجملته الشهيرة:

- الماضي ذلك البئر التي نسقط فيها يومياً كلما حنينا للعودة إلى ذواتنا.

وبالرغم من ادعاءاته الكثيرة تخرج من فمه أحياناً حكمة ربما لم

يكن صاحبها، لم يعد له من عمل في هذه الحياة سوى مجالسة السيد، والتأمين على كل كلمة يتفوه بها حتى أصبح موضعاً لحذاء السيد!

كل من في داخل القصر موضع لقدمه، ولكن للدكتور خالد بنان موضعاً خاصاً يلازم السيد في معظم تحركاته، وسكناته، ولأنه استدار، واستوى على مقاس قدم السيد، رضي به أن يكون رفيقه في لعبة البلوت التي تفقد متعتها بفوز السيد الدائم أمام جميع منافسيه، من خلال (الغزغزة) التي يقوم الدكتور خالد بإحداثها لتكون الأوراق الجالبة للفوز بيد السيد. يحدث هذا برضا جميع المنافسين.

وكأوراق اللعبة الفاترة، نكون نحن الأوراق الميتة التي يقذف بها السيد على الأرض من غير اكتراث منه، أو من منافسيه الصوريين على أي وجه تقع.

- هل صحيح أني ورقة ميتة؟

أقلب حياتي الآن، فأجد أنها تفسخت تماماً، فرائحتها النتنة انتشرت لتصل إلى جوفي، لم أعد أطيق رائحتها.

كانت ليلة عمياء لم أبصر فيها دخولي لشرنقة الفناء.

حين خطوت بوابة القصر الرئيسة صافح وجهي هواءٌ باردٌ لم أعهده، ومع رؤية فخامة القصر، وحدائقه، ويخوته، وسياراته، وإسطبلاته، ظننت أني دخلت الجنة.

أول مبلغ مالي تقاضيته كان مجزياً نظير أداء مهمة قذرة ظننتها ستنتهي مع انتهاء لهاثي، وعندما توالت مهماتي كانت سيرتي تومض دناستها، غدوت أعمق عتمة مما مضى، وكنت بحاجة ماسة لأن أختبئ من كل شيء حتى من نفسي.

وكلما حاولت الاختباء تذكرت انثيال القمامة على رأسي في صباح ذلك العيد البعيد، فأتخفف من أحزاني.

عشرات من العمال، والموظفين يفاخرون بعملهم داخل القصر حينما يستدعي الأمر إيضاح جهة العمل، أنا الوحيد الذي يخفي سر تواجده في القصر.

كان تواجدي لإنجاز عمل مشين أفنيت عمري في ممارسته حتى خسئت روحي، فالبرك المهجورة تربي البعوض، والطحالب، ويغدو ماؤها الآسن لا يقيم طهارة، ولا يدخل في الجوف (هكذا وصف محمد الركيبي حياتي، ويبدو أنه كان يعزي نفسه بعد أن أوصله عمره المديد إلى الحقيقة العارية). وهذا ما أحسّ به الآن، هذا الإحساس لم يكن حاضراً مع بدايات مراهقتي، ونزقي. كانت أفعالي محل نشوة، وزهو أسير بهما بين أقراني كما لو كنت ديكاً جلب لعقر جميع الديوك المنتشية بنفش ريشها، والمباهية بعرفها الداكن.

كنت أنقض على فريستي لإثبات رجولة، وليس لإفراغ شهوة، ولكي لا أخسر هذه الشهرة بين أقراني كنت أقدم على اقتناص فرائسي لإبقاء سيرتي مهابة بين أترابي، وبهذه الوسيلة أبعد بقية الصياديين عن التهامي.

هذه التقية تسترت بها أنا، وأسامة.

تمنحك الحياة سرها متأخراً حين لا تكون قادراً على العودة للخلف، ومسح كل الأخطاء التي اقترفتها، وحين ترغب في تمرير سرها لمن يصغرك لا يستجيب لك كونه ما زال غرّاً بما تمنحه الحياة

من تدفق في أوردته، محمد الركابي منحني سرها في أول يوم دخلت فيه للقصر إلاّ أنني رفضت الانصياع له لكوني لم أجرب قدري بعد.

ليتني بقيت في النار!

هذه الأمنية لم يعد لبلوغها من سبيل، فقد سقطت في جب الدنيا.

السقوط هو القانون الأزلي، وكلنا ساقط لكن لا أحد يتنبه لنوعية السقوط الذي يعيش فيه. كما أن السقوط لا يحدث دفعة واحدة، فأثناء مراحل السقوط هناك تدرج يقاس بالمعيار الزمني قبل أن تعرف نتيجة سقوطك.

رويداً سقطت، وها أنا أقتعد قرار السقوط...............

سقطت، من هناك سقطت...........

غبار من الناس يتخللون ثنايا حي رث منذ زمن قديم.

اسم حيّنا الحفرة، أو الملاحة، أو قاع جهنم، أو النار، وكلها مسميات للعذاب، ولحياتنا.

حي يفيق قبل اختراق أشعة الشمس لنوافذ منازله المتجاورة على تجشؤ البحر من فائض تخمته، يفيق على جلبة الصبية في استعدادهم للالتواء مع الأزقة في ممشاهم إلى المدارس، وحمحمة الصيادين العائدين بأسماكهم الطازجة من رحلة صيد بدأت من ليلة الأمس، وأغاني الإذاعة المنتشية برطوبة الصباح الباكر من خلال أغاني الصباح: (صبح صباح الخير من غير ما يتكلم)، و(يا نسيم الصباح سلم على باهي الخد)، و(نحن الزراع في أرض بلادي...).

أغاني تبلل الأرواح لها رذاذ أمطار الصيف. تخترق الصدور فتتسع الرئة لاستقبال هواء الحياة المنعش، لتنهض جنبات الحارة بإيقاظ نفسها من خلال ضجيج وقلق إقفال الدكاكين التي يعالج أصحابها فتحها، وأصوات الباعة المتصيدة للطلاب الصغار في إغراء باقتناء حلويات، وألعاب رديئة الصنع، أو مأكولات تبدأ بالفم، وتنتهي بجريان البطن لمن لم تتحصن أمعاؤه سابقاً.

يمضي كل شيء صوب حتفه اليومي بهدوء وروية، وتجول الشمس في سماء حيّنا متريثة حتى تتوسط كبد السماء لتسلط أشعتها العمودية

ناغلة ما تبقى من ألوان حائلة لجأت للجدران، أو الأبواب، أو الوجوه، أو الملابس المغسولة، والمعلقة فوق الأسطح. كل شيء يجف هنا بسرعة متناهية.

وآخر مهمة تقوم بها شمسنا المرهقة يومياً ـ بعد أن تكون قد تخلصت من لهيبها ـ الهبوط لجهة القصر بسلام تام.

** **

الحياة مشوار قذر يبدأ ناصعاً، ومغرياً بعبوره من خلال الكلمات والتوجيهات، أما الواقع فعليك اقتراف الآثام لكي تكون إنساناً، وكملايين البشر خرجت، تنبهت لنفسي مغروساً في بيت متواضع قبع في مؤخرة الحي، هذا الحي الذي كان قرية لتجمع: الحروب، والجهنان، والروابغ حينما لم يشاءوا أن تتبلل عروقهم داخل المدينة، وحين قفزت الأحياء من فوق سور جدة، توافدت إلى هذا الحي كل الأعراق وعجنت، وكأنه حي وجد أصلاً لبناء حياة عشوائية، مثله مثل العديد من الأحياء المقامة خارج ذاك السور العتيق.

جدي لأمي جاء إلى هنا حاملاً بضاعته المكونة من الأقمشة الهندية، والبخور الجاوي، والمآزر الحضرمية، وابتنى بيتاً واسعاً خطط من البدء لملئه بالجراء، وهناك فاضت شهوته فجلب أربع نساء، ووضع كل واحدة في زاوية من الحوش الكبير، وداوم على منافحتهن كل ليلة، وتتضاعف لذته حين يصل إلى جدتي (أم أمي) فهي من سلالة تركية، تفجر جمال وجهها، وانسكب على بقية جسدها.

يقال إنه كان يشتهيها في كل وقت، ولكي يعدل بين زوجاته كان عليه عبورهن جميعاً ليصل إلى جدتي سنية.

وبعد عبوره للبوابات الثلاث يغتسل، ويتطيب، ويأتي جدتي سنية، وكأنه لم يبدد قطرة واحدة من مائه.

في الجلسة الصباحية يكون منتفخاً باعتزاز، وهو يروي لرفاقه كيف تمكن من نسائه الأربع من غير أن يلجأ لوصفات أبو رشيد العطار (..وأبو رشيد عطار من أصول هندية يدّعي معرفته بالأعشاب، وتراكيبها التي تمكن الرجل أن يغدو تمساحاً يلوب عشر نساء من غير أن تبرد همته، وكان دائماً محل تبجيل من قبل الرجال الذين أفنوا قواهم وهم بحاجة ماسة لخدماته كي يبقي على كراماتهم منتصبة في الفراش).

التقى به جدي بعد فراق دام لسنوات، التقيا صدفة بعد أن تمكن أبو رشيد من نسيان مشروعه الذي عرضه على جدي في سوق البدو ودعاه لمشاركته وتنميته قبل أن يموت في سوق مشبّع بالسلع الرديئة.

ذلك المشروع الذي حملته أمي في ذاكرتها، وسربته لأبي كي يستعيض به عن مهنته، ودفعته للمتاجرة في العطارة، ولم يكن تسريباً أميناً، حيث استفاد أبي من مشروع أبي رشيد جزئياً فتعرف على الخلطة السحرية، واستعان بها على أداء منافحاته الطويلة.

هذا النهم الجنسي انتقل من جدي (لأمي) لأبي من خلال وصفات العطارة، ونقله جدي لأوردتي مباشرة من غير الحاجة لوصفات عطارة، كنت خاضعاً لهذه الشهوة طوال حياتي، وعندما لم أجد وعاء أحفظه به، سكبته في الطرق المتعرجة.

الفحولة شارة فخر لرجالات الحي، وربما تكون هذه المنافحة التي سلكوها هي السبب الرئيس في تضخم الحي بسرعة مبالغ فيها، فأسرعت الحياة لتلبية احتياجات القاطنين على سطح، وتجويف ذلك

الحي، فنهضت عدة أسواق شعبية على امتداد شارعنا الرئيس، وتفرعت في أزقته شبكات الصرف الصحي والهاتف، والكهرباء. وسفلتت شوارعه، لتهوي إليه عشرات الأعراق، واللغات، وتختبئ في منعطفاته الضيقة. هذه العجينة البشرية كان عليها أن تتزاحم داخل بيوتها المتواضعة حتى إذا ملّت من التفريخ قذفت بالفائض للشوارع الجانبية، أو بين أزقة الحي الملتوية التي تسلم بعضها لبعض..

تم إنزالنا للحياة كما لو كنا جيشاً احتياطياً مهمته الأساسية الارتماء داخل خنادق ترابية، والتحفيز لمعركة لن تحدث، فتفرغنا للعبث بأنفسنا.

يبدو أننا جئنا متأخرين بعض الشيء، فأباؤنا قطعوا الخمسينات، وما زالت الفحولة شارتهم الوحيدة يرفعونها على هضاب النساء، ويضيفون للأقدار أقداراً ملوثة. أغلب أبناء الحي أيتام، معلقون في أمهات احترن بين الانتباه لحياتهن الباقية، وبين أطفال رق حالهم حتى اقتربوا من العطب.

حي اختنق بالناس، وضمرت سبل الرزق فبعد أن كف الصيادون عن مزاولة الصيد، وماتت المهن الحرفية البسيطة، تفرغ الناس لمتابعة الأعمال التي تأكل أجسادهم، وتدر عليهم المال القليل.

جيلنا ورث الأمنيات، وكنا نرطب شبابنا باستراق النظرات لكل شيء، نسترق النظر للأطعمة اللذيذة، والثياب الفاخرة، والسيارات الفارهة، والأموال التي تجري في متاجر التجار، والنساء العابرات للسوق الشعبي المحاصر بالبيوت والأزقة الملتوية الضيقة، كانت عيوننا تسرق كل شيء، هذه السرقة دربتنا على الحلم، والاكتفاء بما هو عالق

في مخيلاتنا، تنتهي أحلامنا بسرقة أمنية الجلوس داخل مطعم، وتناول ما لذ وطاب من الأطعمة، أو حلم أن يكون لنا هذا المتجر أو ذاك، أو أن ترطب مساءنا هذه المرأة أو تلك، حياة نرتدي فيها أحلامنا حتى تتسخ ثم نقذف بها في مستوعب لجمع الثياب المتسخة، ونستبدلها بحلم آخر، هذه هي حياة الشظف. حياة مهيأة لارتداء الأحلام، واستبدالها على الدوام، وهي أردية غير مرئية على أية حال.

نفر من أبناء الحي تاقت أنفسهم للخروج من صحراء الأحلام إلى واقعها، فتطايرت بهم الأقدار كما لو كانوا قصاصات ورق عبثت بها ريح عاصف فظلت معلقة بين السماء والأرض.

الليل نفق دافئ يسرب قاماتنا نحو لذة مسروقة فحين يأتي علينا المساء نتقاطر مخبين بأشواقنا لنصل إلى ذروة اللحظة فنصطلي، وننز، ننز أحلاماً، وأمنيات تتقطر بين جمر ملتهب.

كانت تهاني الجانب المشرق، والوحيد في حياتي، وما عداها ظلمة فاقعة أسير متعثراً فيها من غير هدى، أو حذر. ليلياً تنتظرني هناك كنجمة متوهجة أطلت على طريق غاوٍ لا ينظر للسماء.

في الليل يكون وجهها أكثر شهوة، واستفحالاً في الإغراء، يسيل شعرها على مرفقيها متغلغلاً بين جبلين أعرف استواءهما، وتلسعني الغيرة حين تعبر أزقة الحي، وهي حازمة عباءتها لتبين أن ثمارها طفحت وملت الانتظار، وأنا مللت الانتظار أيضاً، لم أعد أطيق تبادل النظرات، والرسائل.

في إحدى المرات جاورت ممشاها تماماً، ووضعت بيدها رسالة: (إن لم تمكنيني من الجلوس معك فلن تريني)، ومضيت، غبت عن

رؤيتها أسبوعين، فخرت صلابتها، وسمحت لي بالتسلل إلى مخدعها، فحين ينام ذلك الزقاق المدفون في جوف الحارة، تكون قد اطمأنت لنوم ذويها، فتفتح الباب لأندس داخلها، وأقضي الليل أذرع سهوب قمتي جبليها من غير ملل، لم أجرؤ على الاقتراب من عذريتها بتاتاً، أتشمم رائحة جسدها المفروك بالأعشاب العطرية، والمرشوش برذاذ الرغبة، وكلما دنت لحظة الجنون تفيق من استلابها مزمجرة خامشة ما تصل إليه أظافرها من جسدي، استهوتني هذه اللعبة ففي كل مرة يسيل فيها دمي، وأتراجع عنها، تجلسني باكية لتجفيف أثار خمشها، تلحس قطرات الدم النازفة بلسانها وهي تذرف الاعتذارات:

ـ أحبك أكثر من روحي، ولا أريد أن يموت حبك في قلبي.

ـ . . . .

ـ سأكون لك ما حييت فقط لا تفسد هذا الحب!

** **

ظلال القصر تخيم على واجهة حيّنا مانعة وصول هبات نسيم البحر باتجاهنا، فيركد الهواء بين مفاصل بيوتنا المتجاورة باعثاً ضيقاً يتسلل لداخل الصدور، ضيق يتنقل، ويتمدد في الفراغات الهاربة من الامتلاء.

البقاء داخل مياه البحر لوقت طويل (تنفش) الجسد، وتشعرك بأنك كائن أسطوري ولد من الماء، وأن اليابسة هي المقبرة التي عليك أن تبتعد عنها قبل أن تلتهمك لتروي عطشها بك.

على الألسنة الممتدة داخل البحر تناثر رواد القصر، وانتشر الخدم لتلبية طلباتهم بهمة، وحرص زائدين.

ها أنا مغمور في مياه البحر في كل حين، ونتوءات من الضجر تحتل

أنفاسي، وتفقدني التوازن، لم يعد البحر يمثل تلك اللهفة التي سعينا إليها حينما شيد القصر، ومد أسواره لإخفاء مياه البحر الزرقاء في تلك الأيام الخوالي غدا الوصول إلى البحر أمراً مرهقاً، فمع العصاري يتجمع محبو السباحة في برحة أبو عجينة، وينقدون وليد الخنبشي أجرة نقلهم للشاطئ الذي بات بعيداً، ولا يخلصون أجسادهم من الأمواج إلاّ مع دخول الليل حين يكون الخوف من هوام البحر تضخم تضخماً يفوق اتساع رغبتهم في البقاء داخل المياه الباردة.

تخرج الأجساد مرتعشة تتقطر من مفاصلها مياه مالحة، وأسنانهم تصطك مرتعدة فلا يجدون ما يجفف أجسادهم سوى فوط مهترئة بالية جلبها الخنبشي معه لهذا الغرض مقابل نصف ريال لكل فوطة، فنتشارك اثنان، أو ثلاثة في فوطة واحدة، وعندما تصل لثالثنا تكون غير قادرة على تجفيف أي شيء.

جهتان كنا نقصدهما لنغمر أجسادنا في مياه البحر: الـ«بلاج» وكانت شواطئها مرمية في جنوب جدة تلك الجهة التي ضمرت فجأة، ولم يعد مسلك طريقها مرغوباً به، وقفزت الحمراء لواجهة القاصدين للنزهة بعد أن شق المهندس محمد سعيد الفارسي (أمين جدة) خطاً لولبياً يعانق البحر تحفه مجسمات جمالية لكبار فناني العالم، وركز مئات العمال لتلميع الكورنيش على امتداده. كان الوقوف على كورنيش الحمراء مفخرة لأبناء حيّنا المنزوي، ويصبح ميزتنا عند المفاخرة مع أبناء بقية الأحياء المتناثرة، وأعمق غبناً لنا حين نتذكر ما فعله بنا هذا الامتداد.

جرت الأسوار الإسمنتية على طول الشاطئ مخبئة زرقة البحر، وشطرت السكان إلى أجزاء طبقية غير متساوية.

استفاقت جدة على مئات العمال، وهم يسورون شاطئها، ولم يتنبه أحد أن بحرها يقسم قسمة ضيزى، قسمة لم يحضرها سوى رجال البلديات، والمندوبين، والمفوضين، والسماسرة، والعقاريين، وتغيب عنها بقية السكان.

الصيادون أول من تذمر من الوضع القائم لإبعادهم عن الأماكن التي ألفوا الاصطياد بها إلاّ أن تذمرهم المحموم لم يبتعد عن سطح سقف أفواههم، فبقي كل صياد يجمع أدواته، وينظر إلى زبد الأمواج المتقاذفة بين قدميه المغمورتين متحسراً، ومودعاً هذه الدعة التي أخذت تلملم أطرافها كما كان يفعل البحر لوداع زبد أمواجه المطمورة بأطنان الأتربة المجلوبة من الأودية القريبة.

الصياد حامد أبو جلمبو تحسس مقعده، ووجد أنه يزاح من موقعه فنَظَمَ (كسرات) عديدة محذراً من تيبس البحر. تلك الكسرات تناقلها الصيادون في البدء على أنها لوعة حبيب فارق حبيبته، وعندما تحول فمه إلى مكنة تضخ تلك الكسرات بكميات كبيرة عرفوا المغزى الذي يرمي إليه، فلم يزدهم هذا إلاّ استخفافاً بصاحبها، وتحولت قصائده (على ألسنة الصيادين) إلى مكامن لجلب المتعة، والتفكه من خلال السخرية اللاذعة والتندر منه حينما يسمعونه يردد كسراته، ويمرون به هامزين:

ـ متى سيسرقون آخر موجة من البحر؟

كفوا بعض الشيء عن سخريتهم حينما رأوا عثمان كباشي يغادر مواقعهم من غير أن يلتفت لضجيجهم، وانفلات كلماتهم.

يرتبط عثمان كباشي بعلاقات، وطيدة مع شيخ البحارة عمر القرش تم إرساء دعائمها من خلال الزيارات المتبادلة بينهما، وتعرف شيخ

البحارة عن كثب على الخصال الحميدة التي يتمتع بها صديقه في الملمات الصعبة، فعقد له عدة صفقات مع الصيادين لتزويدهم بقوارب ذات أخشاب لا تتشرّب الماء كي تصمد داخل البحر لسنوات طويلة.

ومنذ أن ورث عثمان كباشي مهنة صناعة السفن الشراعية من أبيه، وهو يسير على خطاه في خلط صفات اللين، والتسامح، والاحترام لتتعمق الثقة فيما يقول ويعد به، اقتصرت تجارته على بيع القوارب للصيادين المحليين يجلبها لهم من بور سودان بأسعار مناسبة، ويمنح سعة من الوقت لمن شحت الدنيا برزقه، وفي ليلة وضحاها، كانت الثقة به محل تشكيك حين ألغى عدة عقود أبرمها مع مجموعة من الصيادين المحليين. اتخذ قراره الذي هزّ قناعتهم بشخصه حينما شاهد تلك المعدات الثقيلة المنصوبة على الشاطئ، وهي تتهيأ لتأسيس قواعد القصر.

ـ ما هذا يا عمر؟

ـ كما ترى، يقال إن واجهة البحر كلها ستغلق.

مع حلول المساء كان عثمان كباشي قد ألغى كل الاتفاقيات التي أبرمها، وإزاء تصرفه تلقى النعوت المؤدية إلى اتهامه بنقض العهود، والمواثيق، فانبرى يعلل تصرفه بالواقع المشاهد، وتنبوئه بضمور تجارته في هذه الناحية بالتحديد، وأن ما قام به هو الحرص بعينه على أموال الصيادين من أن تسيل في شراء قوارب لن تجد الماء الذي ستبحر فيه، تعليلاته تلك كانت أقصر من أن تصل إلى ذهنية الصيادين العتاة، فلم يشأ زيادة الحنق عليه، فذهب إلى عمر القرش، ودفع إليه بأموال تلك المجموعة الراغبة في الحصول على قوارب معتذراً منه، ومشدداً عليه نقل اعتذاراته لبقية الصيادين، وغاب عن مخططهم الذي أعدوه في أن

يجلسوه وسطهم، ويلقوا عليه عمائمهم كي يتراجع عن قراره، فقبل أن يفعلوا ذلك شاهدوا قامته المنتصبة تخترق شاطئ البنقلة متجهة غرباً، ومتكوماً داخل قارب صغير حمله لداخل البحر ليركب الباخرة المغادرة إلى بور سودان محملاً بشتائم الصيادين الذين خسروا كامل الحلم.

لم يدم سوء ظنهم بعثمان كباشي طويلاً فسرعان ما وجدوا أنفسهم يزاحون من أماكن صيدهم عنوة في حين لم يخطر ببالهم بتاتاً أن مواقع صيدهم ستغدو طافية في ذكرياتهم كأغطية رؤوسهم القماشية ذات الألوان الحائلة.

كان يوسف الرديني (أبو عيسى) أكثر المتضررين بفسخ تلك العقود، فمضى يلعن عثمان كباشي فيما تبقى من أيامه، ويصمه بالبومة ذات العينين المفتوحتين، والتي لا ترى ضوء النهار، وإذا رأته أفسدته بظهورها.

تسارعت الأيام على عجل، وظهرت بوادر تلك السرقة، فتنبه الصيادون لواقعهم الجديد، وأول عمل قاموا به إعادة ترميم سيرة عثمان كباشي التي هدموها، وكانوا أول من قبل رأس حامد أبو جلمبو، وتناقلوا (كسراته) بشيء من التفخيم، وعابوا على أنفسهم التفريط في تلك الشواطئ الممتدة.

لم يفرح حامد أبو جلمبو لإحاطة الصيادين به، بل حمل شباكه، وألقى بها داخل (سنبوكه)، وأخذ يردد:

ـ جميعنا تخاذل عن حماية البحر، فابحثوا لكم عن بحر جديد.

سنة من نوم هبطت على أهالي البحر، وهواء بارد مر على قاطني حي (جهنم) المجاورين لمائه، ليصيبهم الخدر فلم يتنبهوا لاقتسام أراضيهم ومواقع صيدهم فقد اطمأنوا أن البحر لن تسرقه الأيدي الطويلة

مع وجود حجج المبيعات (صكوك البيع) الملطخة بالبصمات النائمة في خزائنهم في توارث متتالٍ تثبت امتلاكهم أباً عن جد لمواقع كثيرة بعضها لامس البحر، وبعضها اقترب منه.

وعندما أخرجوها في ردهات القضاء كان القرار سابقاً العدل، فتطايرت شكواهم لجهات مختلفة جميعها أغمضت عينيها عنهم، ومنحت إشارة تقاسم واجهات البحر كل وفق قدرته، وسلطته فتهافت القادرون على حجب مياه البحر تماماً.

** **

ساحل ممتد ألف أهل الحي الخروج لمياهه مع العصاري لغسل أبدانهم، وأغنامهم، وأدوات طهوهم من أمواج البحر الضاربة لأساسات منازل الصيادين منهم، وقبل أن يفيقوا تماماً كانت مئات الآلاف من الأطنان الترابية تردم الأمواج، وتحولها إلى قطع، ومخططات سكنية لم تفلح تلك الحجج في استعادة أراضي أجدادهم، ولم تفلح شكواهم في تحصين قواربهم المرمية في عرض البحر من شق أمواج البحر مرة ثانية، ولم تمنع آلات البناء الثقيلة من الاقتراب من تلك المياه وردمها.

حامد أبو جلمبو الوحيد الذي ظل يتطلع لكل تلك الأتربة، وهي تفرش على مساحات واسعة من البحر دامع العين، ومنشئاً كسراته التي لم تسعفه في مواجهة كل عمليات الردم، ولم يحتمل رؤية غابات الأسمنت تقتات البحر الذي ولد منه، وعاش فيه، لم يحتمل ذلك، فقد اعترض بجسده أحد التراكتورات حين هم سائقه بردم مرسى قاربه الصغير، وحين انتشل من تحت التراب كان أهله يوسعون له قبراً في مقبرة (حمد).

مات حامد أبو جلمبو، ولم يثر موته أحداً، أو يوقف شيئاً مما هو حادث على هذا الشاطئ.

منذ تلك الأيام، ونحن نقضم على مهل، ودماؤنا تحفز قروش البحر لحضور الوليمة، وقضم ما تصل إليها تلك الأسنان المنشارية، سرقت ملاعبنا، ومواقع سباحتنا، وسرقت معها طفولتنا.

جلس عمر القرش شيخ الصيادين محاطاً بمجموعة من رجالاته، وهو ينظر للفرج التي تهرب رؤية مياه البحر زافراً هواء ثقيلاً:

ـ لقد حول الفارسي جدة إلى قطعة سكر، وأولم عليها، ومع تكاثر الذباب كان البحر يجف.

تسابق كل شيء نحو السقوط: مراسي الصيادين، وملاعبنا، وأماكن سباحتنا، كل المواقع كانت تهبط بسرعة فائقة إلى بئر الذكريات.

يومياً كان البحر يسور، فحين نكون نياماً تتوالد أسوار، واستراحات، وقصور، وشاليهات، ومنتزهات حتى إذ رغبنا في الوقوف على الشاطئ احتجنا للرحيل شمالاً.

هذا القصر الذي استوطن مرتع طفولتنا كان الدخول إليه حلماً كبيراً، يجتاز مخيلتنا كإحدى المعجزات الخارقة، فحين كنا ننطلق على امتداد البحر بحثاً عن مساحة لمزاولة هواية السباحة، كان امتداده يأكل لحظات الصبر لاجتيازه حتى لو اجتزنا سوره الطويل سيكون من الصعب مجاورته حيث تكون العيون المبثوثة قادرة على زجر سذاجتنا من المكوث في تلك الألسن البحرية التي امتدت في إغراء لاهث يجذب الغاوين من السباحين للانزلاق بين مياهها العميقة.

قبل ذلك، وحين كنا أطفالاً كان المدى متسعاً، والبحر يرحب

بشقاوتنا في امتداد لا متناهٍ، فتحمل مياهه أجسادنا الصغيرة في عبث طويل يمتد إلى الغروب، ثم رحلنا بهوايتنا نحو الشمال، وبعد الشمال، يومياً يبعد، ويومياً نرتحل صوبه، والمياه تحمل أجسادنا التي تكبر، وتلفظها في كل غروب فنكمل تجفيف بللنا داخل السيارة التي تقلنا عائدين بعد أن ننتظر طويلاً كي تأتي سيارة تقبل بحمل كومة من الأجساد المبللة لقاء أجرة زهيدة، هذا البعد تنبه له وليد الخنبشي فاتخذه باباً للرزق لوفرة النقود التي يحصل عليها من نقلنا بسيارته المتهالكة إلى الشواطئ المتبقية، والتي لم يَطَلْهَا الردم.

وليد الخنبشي يكبرنا بخمس سنوات ابن لامرأة عمياء فقدت زوجها مبكراً، فاتخذت من ابنها عصاً تتوكأ عليه، توقف عن الوقوف في الطابور الصباحي المدرسي قبل أن يعبر الصف الثاني المتوسط، وعرف كيف يجذب القرش من أماكن مختلفة.

وقد وجد في مهنة نقلنا من الحي إلى الشواطئ البعيدة مقومات الرزق المتوالد، فبالإضافة إلى تسيير حافلته للنقل، كان يبيع الماء، والمرطبات، وأدوات السباحة، ويحضر معه مناشف للتجفيف، وأنواعاً من المأكولات يقوم بطهوها عند الظهيرة، وجلب المكسرات المتنوعة، وتفنن في إضافة مشروبات مختلفة المذاق والنوعية، ولم يكن يتهاون في سلب أي قرش يتم ادخاره من قبل أحدنا، فبمجرد أن نعثر على مكان لمزاولة السباحة حتى يقف أمام سيارته، ويفرش أنواع بضاعته مردداً:

- كل شيء بثمن.

ومع حرصه على نزع قروشنا التي نجمعها بكثير من العنت كان

يتسامح على إقراضنا لليوم التالي على أن لا يتجاوز القرض مقدرة أي منا على السداد.

الوحيد الذي كان يمنحه ما يشاء من تلك البضائع عيسى الرديني، في حينها لم نفهم هذا التسامح العجيب مع عيسى، وكلما سألناه عن السبب ضحك بعمق من غير أن يجيب.

تذكرنا عمق ضحكاته بعد سنتين حين زفت سلوى محمود (خالة عيسى) لبيت الخنبشي، ولا أشك أنه تزوج بأموالنا التي كان يجمعها منا بكل وسائل الحيل الترغيبية.

سلوى كانت أكثر حنكة من زوجها باستنباط الوسائل التي تدر عليه دخلاً مضاعفاً، فقد دفعته فيما بعد على الاشتغال بنقل المعلمات إلى مدارسهن بعد أن أدخلته في قروض بنكية لشراء أربع سيارات نقل، ومع الأيام توسعت تجارته، وغدونا من ذكرياته الرثة.

لم نغب ـ في طفولتنا ـ طويلاً عن هذا الشاطئ إلاّ أن الفترة التي احتجبنا عن المجيء كانت البلد فيها تغرق في طوفان من الأموال المضخوخة فدفعت الناس، والشركات لأن تبحث عن أي شيء تمتص به ذلك المال المتدفق، وفي أحيان لم يكن المص كافياً لتجفيف كل تلك الثروات، فاتبعت وسائل أكثر جدوى لاغتراف تلك الكنوز، فمن كان يملك عيناً صحيحة خرج لجمع كل ما يقع أمامه ليس بطريقة المص بل بالبلع، والخمش، والدفن.

هذا الحال تكشف للكثيرين، إلاّ أن حيّنا الحالم اكتفى بسرقة الأحلام وتشكيلها في مراقدهم، قلة قليلة منهم مارست حلمها على الواقع، ومن هؤلاء عبدالغني المزروعي الذي هجر التعليم، وفتح مكتباً

عقارياً، ومن هناك تسلل إلى المقاولات، والتموين، ليدل البقية الناصحة على اقتفاء أثره، ومن كان أعمى كآبائنا تخبط بين الجدران، ولم يبرح مكانه، فقد فرحوا بزيادة دخولهم، وصرفوها في ملذات بسيطة، وغبية في آن، كالسفر للخارج، أو اقتناء ما لم تكن دخولهم قادرة على اقتنائه قبل جريان المال بين أيديهم على إثر ارتفاع دخولهم الوظيفية.

في تلك الأيام نشط العقاريون في وضع أيديهم على الأراضي البور، والمهملة، وتمادى القادرون على ردم البحر في اكتساب مساحات لم تسجل باسم أي أحد، فسلبوه في وضح النهار.

كنا أصغر مما يجب لفهم كل ما يحدث، الشيء الذي أوغر صدورنا تلك الأسوار التي حجبت البحر، ولم تعد تمكننا من الغوص داخل المياه الممتدة.

أسوار عالية نبتت في غفلتنا، وعندما جئنا للبحر لم نعد نملك شيئاً من هذا المدى الواسع، فقد غدا المكان قصوراً تزاحم بعضها بعضاً لالتهام مياه البحر، ومجاورة سيد القصر، وغدا حلم جميع أهل الحارة دخول القصر، أو الوقوف أمام بوابته الضخمة.

وتفاقمت رغباتهم عندما تناقلوا خبر عيسى الرديني الذي وعد بإدخال جميع أهل حارته لداخل القصر، وكنت ممن دخل القصر، وها هو ماء البحر يغمرني، يحت جسدي، وروحي فأتوق للخروج من هذه الجنة!!

ما زال الحالمون بدخول القصر قابعين خلف أسواره.

انطلقت صفارات إنذار معلنة عن وجود متسللين في الجهة الشرقية، ويبدو أن أخبار حفلة رأس السنة المقامة تسللت لخارج القصر.

كان مقرراً لهذه الحفلة أن تقام في حدائق القصر الخارجية المطلة على شاطئ البحر مباشرة لاعتدال المناخ، وانخفاض مستوى الرطوبة، وكذلك لكثرة المدعوين، وتميز الفنانين المشاركين في إحياء تلك الليلة، فقد دعي لها فنانون، وفنانات من جميع أنحاء العالم العربي، واقتصر جوهر خبر المناسبة على القلة، فلم يكن أحد يعرف أنه احتفال بعيد ميلاد (المذهلة) الذي تزامن مع احتفال رأس السنة، وترك الإعلان عن ذلك لسيد القصر الذي أقام الدنيا لكي تكون الحفلة خرافية.

انتشار خبر تواجد الفنانات، والراقصات تسرب ليجذب بعض الطفيليين في مغامرة التسلل من البوابة الرئيسة التي خضعت للصيانة من خلال مشروع في حالة الإنشاء لتركيب بوابات مدفونة تحت الأرض تنهض آلياً كجدار منيع، ولها خاصية الصعق الكهربائي أقر السيد إنشاءها كاحتراز وقائي بعد مداهمة الإرهابيين للسفارة الأمريكية.

ومع ارتفاع صفارات الإنذار (من البوابات الداخلية)، ظهر على أطراف القصر من الجهة الغربية ثلاثة فيليبينيين ممسكين بكلاب، انحدرت من سلالات أوروبية شرسة، لتمشيط الجهة المقابلة للقصر.

فأظهرت الكلاب تكاسلاً في أداء عملها لم يتسق مع تحفز مدربيها المراقبين من قبل عين حسن دربيل المشرف على كلاب القصر، الذي لم يخف امتعاضه من تلك الدورية المتسببة في تراخي يقظة الكلاب:

ـ ألم أقل لا تسمنوا هذه الكلاب، ها هي زهدت من أداء دورها الذي جلبت من أجله.

وصاح ـ بكلماته المتعثرة دوماً ـ على أحد مرافقيه أن يجلب كلاب السلق التي تربت على يديه:

ـ لا يعرف رائحة أبناء البلد إلاّ كلابها!

وأطلق ضحكة مكسرة، وهو يزفر دخاناً احتبس في صدره، وحاول إخراجه بسعال متقطع لم يتوقف إلاّ مع رؤية كلاب السلق، وهي تخترق حواجز حديد بخفة، ورشاقة، مطلقة نباحاً متقطعاً صوب الجهة الشرقية.

اعتداده بالكلاب المحلية إرث قديم حمله من طفولته، ومن يعرفه تماماً ينكر وضعه الذي غدا عليه داخل القصر، فقد جاء عليه حين من الدهر كان فيه مرمياً بين مرمى القمائم يبحث في محتوياتها عما يمكن بيعه، أو تنقيتها لتزويد كلابه بوجبة فاسدة أُلقيت هناك، يتنقل بين مرامي القمائم بهيئة رثة، وصوت حاد الخصومة.

في ذلك الزمان نشط العمال في تسوير الشاطئ للبدء في بناء القصر، فغاب البحر خلف واجهات زنكية غليظة، وغطى على منافذ ذكرياتنا، ودفع بالصيادين لنفق العزلة، ليحملوا قواربهم ويبقوها مجاورة لبيوتهم في انتظار مدى واسع يبحرون فيه، ثم انشغلوا برتق أحاديثهم، والمسامرة في استجلاب ذكريات البحر والصيد.

غدت حكايات، وأخبار الأعمال المنهمكين بتسوير الشاطئ سلوى مفتوحة للدخول فيها، أو الخروج منها بتندر مر.

كان الترقب حاضراً، وشيء ما يحاك في الخفاء لا يعرفون كنهه، يستشعرون أن الحياة انزوت لتغير ملابسها القديمة.

- .... حتى الكلاب غابت...

هذه جملة ناقصة خرجت من فم سالم البيغيني حين وجد حياته قلبت رأساً على عقب فلم يعد لديه ما يفعله سوى الاسترخاء داخل غرفته الوحيدة، وغزل شباك الصيد التي لم يعد أحد يشتريها، أو يتفقد جودة حبكها، ولأنه لم يرغب تجريب أي عمل لا يجيده بقي غازلاً للشباك، ومنتظراً تجمع الصيادين في موقع لم يحدد بعد، وعندما طال زمن موعد التجمع حن لأيام الصيد.

وذهب إلى قبره (مثله مثل حامد أبو جلمبو). وجدت جثته طافية على سطح البحر، وعندما لم يقو ابتلاع غصّة حنينه عاند التعليمات القاضية بعدم الصيد في النواحي التي ألف الصيد بها، وفي كل محاولة للابحار يتم اخراجه جبرياً، فاحتال على الحرس بالتخفي، قام بطلاء قاربه باللون الأسود، وارتدى ملابس سوداً، ومع نزول الليل بظلمته الكثيفة، دفع بقاربه إلى عمق البحر، بقي على هذا الحال أياماً، يبحر ليلاً، ويعود ليلاً، وفي أحد الصباحات وجد جسده طافياً كقطعة فلين رفض البحر ابتلاعها، فلفظها، وتكفلت أمواجه بتدافعها، لتضرب بها جدران الأسوار الأسمنتية المحاصرة لتمدد البحر، تنبه العمال لجثة انتفخت، وعلقت في مشاجب حديد، كان تبليغهم عنها كفيلاً، بسرعة مواراتها في قبر سيتكفل بامتصاص ذلك الانتفاخ المهول.

الموت لا يثير الصخب أحياناً، فموت قط، أو كلب، أو نكرة من

النكرات لا يحتاج الأمر لأن تتنبه له الحياة، فهي منشغلة في مكان آخر.

جاء اليوم التالي لموت سالم البيغيني فاقداً الذاكرة لما حدث بالأمس، وانشغل العمال بإكمال أعمالهم المضنية في سباق مع الزمن لإنهاء مخطط معماري ألح صاحبه على سرعة إنجازه.

يستحل ضجيج معدات البناء مساحة واسعة من النهار الذي يمضي كسولاً ينزع خطواته نزعاً، بينما أهل الحي يراقبون انثيال الأتربة، ونهوض أعمدة مباني القصر فوق الواجهات الزنكية، ولا يجدون شيئاً يلوكونه سوى تكهنات مشوشة تأتي من خلف عوارض الأعمدة الإسمنتية المشرئبة، ويدخلون إلى الليل جامعين كل الأضداد، فتسيح كل الألوان في بؤرة الظلام الدامس، وتتحول العلاقات إلى تدانٍ، وألفة، وضحكات عالية بين الصيادين، والمخمورين، والسهرانين، والقابعين أمام شاشة التلفاز، وطقطقة لاعبي الضومنة بحجارتهم على اللوح الخشبي والممشطين لأزقة الحارة وشوارعها بنداءات، وزفرات حائرة، الكل مشغول بما تعلق به، ولا شيء يحفزهم للنظر من نافذة الغد البتة، تفرغت آذانهم لالتقاط أي صوت ليحيكوا منه حكاية جديدة يعبرون به ليلهم الكسيح ولم يكن موت سالم البيغيني إلاّ نتفة من قلق يستشعرونه، ولا يعرفون موعد قدومه.

تنبهوا لصوت حسن دربيل ينبههم أن عواء الكلاب لم يعد يخالط ضجيجهم في الليل.

هكذا، وفجأة بدأت أعداد الكلاب في التناقص، وغاب بعضها، وأول من تنبه لهذا الغياب محبو تربية الكلاب، فحين ينتشر الليل تسيح

الكلاب جماعات بين الأزقة وفي مرامي القمائم، مالئة جنبات الليل نباحاً، وعواء من جراء مطاردتها، واللهو بها، أو مناداة بعضها لبعض.

حسن دربيل المعني الوحيد بتربية الكلاب السائبة والرفق بها، ويقال إن إحدى الكلبات أرضعته مع جرائها حين (هجت) أمه بعد أن ملت من إرضاع عشرة صبيان سبقوه - فتكلبن لسانه وهذا ما يفسر عجمته الصريحة، فحديثه خليط من عواء ونباح في أغلب الأحيان -، ولا يروق له اللعب إلاّ مع الكلاب السائبة فنجده يعبر أزقة الحي، وخلفه مجموعة من الكلاب الضالة يوجهها حيث يشاء.

كان له دوام ثابت مع هذه الكلاب ففي الصباح الباكر يجمعها من الحارة وأزقتها وينطلق بها صوب (النورية) مستجدياً من الجزارين الشغط والسقط وما يفيض من حاجة زبائنهم، ويجمعها في كرتون كبير يقدمها وليمة صباحية لإخوته بالرضاعة، وينفصل عنهم لتكملة بقية النهار في منجرة صالح لبان حتى إذا جاء العصر تفرغ لإخوته بالرضاعة يرافقهم في دورية مسائية يجول بهم الحارة متباهياً على أقرانه بكثرة عزوته، فلم يكن أحد يجرؤ على إيذائه، أو السخرية منه يكفي أن يشير لأحد كلابه حتى ينفذ إشارته كما يحب.

وقد خصص يومين من الأسبوع ليذهب بهم إلى الشاطئ، ويقوم بهمة تنظيفهم بعناية واهتمام بالغين.

ولم يهتم أحد بتناقص الكلاب في حيّنا، أو تضاؤل عوائها ليلياً إلاّ حسن دربيل الذي تكبد خسائر متوالية من فقد رفاقه، وهو الوحيد الذي اهتم بمعرفة السر وراء اختفاء الكلاب.

في تلك الأيام لم يكن عيسى الرديني قد غادر الحي فلا زال يمخر

الأزقة بشغب تجفل له القلوب المسالمة، واتهم باتخاذ الكلاب وسيلة للسطو على المنازل المهجورة، وبيوت المسنين، وبسبب عواء متواصل وصل إلى أذن العجوز آمنة جمال، وقف عيسى الرديني أمام العمدة بتهمة سرقة حليها التي قدمها لها زوجها في ليلة عرس مضى عليها أكثر من خمسين عاماً، وقبل أن تهوي عصا العمدة على جسده لكي يقر بفعلته جاء من يخبر العمدة أن آمنة تذكرت أنها أودعت حليها لدى ابنة أخيها كي لا تسرق في غفلة منها.

فتناول فنلته المنزوعة من على جسده، ليرتديها مزمجراً ومتوعداً بأخذ حقه ممن علق هذه التهمة به، وخرج من عند العمدة بتهمة السرقة حاملاً تهمة مجاورة وهي خطف الكلاب، وتدريبها على السطو مما أكسبه عداوة حسن دربيل، وحدثت بينهما مشاجرات طويلة أنهاها حسن ذات ليلة باعتذار اتسع لكل المشاجرات التي دخلا فيها.

في تلك الأيام انتشرت المعدات، وعشرات العمال، ومئات الأطنان من الحديد، والأخشاب، والخرسانة، والبلوك على مقربة من الشاطئ لتسويره، والشروع في بناء القصر، وتحول تجمع العمال إلى سلوى لصبية الحي الذين يتسللون إلى الحفر لتخبئهم عن عيون خصومهم في لعبة (الاستغماية) غير عابئين بالزجر المتواصل من قبل تلك العمالة التي لا يعرفون لغتها.

عمال ذوو عيون ضيقة، ووجوه عريضة، وأنوف نائمة تماماً وشعور قائمة كرؤوس الدبابيس الحادة اللامعة لا يجيدون الابتسام بما يكفي لإنارة عيونهم المدفونة بين وجناتهم.

اكتسب حسن دربيل صداقة بعضهم حينما كان يخرج إلى الشاطئ لغسل كلابه، وتنظيفها من عوالق القمائم اللزجة.

عاد ذات ليلة بنباحه، وعوائه المختلطين يوزع سره الذي اكتشفه:

ـ العمال الكوريون يأكلون الكلاب.

لم يصدقه أحد، ولم يهتم أحد من الحي بتناقص تلك الكلاب بل وجدوا أن الليل غدا أكثر هدوءاً مع تناقصها إلاّ أن اكتشافه كان مصدر غبطة له، لتبرئة ابن حارته عيسى الرديني من تهمة أُلصقت به، فكان يوقف كل من قابله:

ـ أخطأنا في حق عيسى الرديني: العمال الكوريون يقتنصون الكلاب، ويذبحونها، ويأكلونها!، شاهدتهم بعيني.

من دورانه المحموم لتبرئة عيسى من تهمة سرقة الكلاب خرج بتعليق وحيد من فم سليمان أبو فتو على ذلك التناقص لامزاً:

ـ غابت كلاب وحضرت كلاب!!

مع تناقص الكلاب، وتوغل العمال في تسوير الشاطئ انتشرت الشائعات أن الموقع المسور سيتحول إلى مكان لتربية الخيول المستوحشة، وكان لهذه الشائعة ضحايا عديدون من داخل الحارة حيث استبدلوا مهنهم بمهن ترتبط بالخيول، فظهر الحوذواتية، وصانعو السروج، ومستوردو الأعلاف، وهناك من انتقل إلى السودان، ومصر لتعلم ساسة وترويض الخيول المستنفرة، وغابوا لعدة شهور، وعادوا ليربضوا خلف السور الزنكي الذي امتد على مد البصر، وارتفع حتى لا يرى ما خلفه، أصيب حيّنا بالكساد لهجران كثير من المهن التي كانوا

يمتهنونها، وظلوا منتظرين مقدم الخيول ليبدأوا في مزاولة مهنتهم الجديدة.

انقشع الزنك ـ بعد ثلاث سنوات من العمل المتواصل ـ فظهر القصر باهراً، وانتظر الأهالي الخيل القادمة للقصر، وتناوبوا على الطريق المؤدي لبوابة القصر، وكل يوم يمضي تمضي معه كسرة من صبرهم الذي تزودوا به، وحين ظهرت الخيل وضعت في إسطبلات مخصصة، وجلب لها ساسة مهرة، وطرد رجالات حارتنا من أمام القصر بتأفف وزجر حادّين، فعادوا لمهنهم بنفوس خاملة متقاعسة، وكلما سمعوا صهيل الخيل تصايحوا:

ـ علهم يطلبوننا.

فيركضون زرافات، ويعودون أكثر انكساراً، وحسرة مما مضى.

مع انقشاع الزنك، وقفوا مبهورين لروعة ذلك القصر البديع، وسرعان ما تقوضت فرحتهم أمام الحرس الذين دفعوهم للابتعاد عن المكان بجفوة وغلظة، وأصبح القصر حكاية يتبادلون الحديث عنها في كل زاوية من زوايا الحارة.

لم تطأ قدم أحد منهم داخل القصر وأبعد مكان وصلت إليه أقدام أي منهم ساحة القصر، وعادوا يروون العجائب، يقولون إن الخيول تركض في سباق محموم فلا تصل مدى فنائه، وأن بداخله جنة من الأشجار والثمار التي لم يشاهدوها قط، وأن به جداول صغيرة تنتهي بنهر يجري بين مفاصل حقول الأشجار التي اصطفت على جانبيه، وكل حقل لا يشبه الآخر.

هذه الحكاية لم يصبر عليها محمد المخمج فصاح بناقلها:

ـ أنت خبل، أنهار داخل البحر!!

فرد عليه موسى الحنيني:

ـ والله أنهار! يا عمي الفلوس تعمل العمايل.

ولم تكن لتصل أخبار هذا القصر لولا تقاطر ثلة من أبناء الحي بحثاً عن مواقع يغرسون ذواتهم بها على أمل أن يشعوا من هناك، قلة قليلة تمكنت من الدخول في مهن سريعة تنتهي بانتهاء أدائها.

وفي ليلة كتمت سرها منع أهل الحي من دخول فناء القصر لأي غرض كان، حدث هذا بعد أن علم سيد القصر أن المشرفين يستعينون بأبناء الحي في أعمال النظافة، والري، وتشذيب الأشجار، فحذرهم من قبول أي شخص يحمل هوية البلد من غير موافقته شخصياً.

جُلب موظفو القصر وخدمه من أصقاع الأرض بينما صد الحرس الأهالي الطالبين للعمل عند البوابة الرئيسة، وهذا المنع لم يردع عيسى الرديني من إطلاق قسم غليظ أنه سيدخل إلى القصر، ويدخل معه من يشاء من أهل الحي.

قسمه ذاك تلقفته الأفواه بسخرية لاذعة ليجدد قسماً إضافياً أن من سخر منه لن يدخل إلى الجنة بتاتاً (واستدرك) إلاّ لإذلاله!!

في ذلك الزمان، ومع احتجاب الشاطئ فقدنا متعة كبيرة كنا نتمتع بها حين لم يكن أمامنا إلاّ خلع ملابسنا، وغمر أجسادنا في تلك المياه العميقة، ولم تكن رغبة دخول القصر قد شبت بين أضلعنا بعد.

** **

ظهرت كلاب السلق وخلفها حسن دربيل ـ كما كان في سابق عهده

ـ تنبح بصلف في اتجاه حيّنا النائم في ظلمته، وقد تخلص حسن من سعاله، وأخذ يعوي معها بنشوة كما كان يفعل في سابق عهده، حينما كان مقذوفاً بين قمائم الحي.

نباح كلاب السلق، نبهت المتسللين لتنطلق أقدامهم هاربة قبل أن يقبض عليهم، ويعيدوا سيرة ياسين أبو عميرة الذي سجن لسنة كاملة لأنه تجرأ وتسلق جدار القصر.

ـ لا أشك بتاتاً أن المتسللين هم بعض الحالمين الجدد من حيّنا.

صعد عمر القرش على ظهر يخت (مذهلة) متحاشياً أسئلة متناثرة عن موعد الانطلاق.

لم تكن من عادته انتظار الأوامر فتاريخه الطويل كشيخ للصيادين تجعل موقفه المتردد مخزياً أمام نفسه على أقل تقدير، متذكراً صوته المجلجل بين البحارة، ونفوذ كلمته، فمع استلام (مشيخة) الصيادين بعد وفاة أبيه كان سنه صغيراً مقارنة ببحارة عتاة (هم أولى بهذا المنصب) إلاّ أن أباه هيأه لخلافته، وسلحه بوصايا تحنك عمره، وتعمق خبرته، وتقيم عموده بين البحارة إذا وجدوا في سنه قصوراً، فسار على تلك الوصايا، واكتسب احترام الجميع، وها هو اليوم يخسر احترام نفسه، خسر موقعه كمصدر للأوامر، وتدلى في سلسلة المخدومين التي يحركها السيد بين أنامله.

غدا محتقراً للوضع الذي يعيشه، أمور كثيرة تغيرت في حياته جعلته يقبل ما لم يكن يقبل به في الأمس حينما يتذكر الخزي الذي هو فيه يشتم عيسى الرديني بأقذع الشتائم، زفر بحدة عندما لحق به أحد المدعوين سائلاً:

ـ متى سننطلق؟

ضغط على أعصابه كثيراً، وهو يجيب السائل:

ـ حالما أتلقى الأوامر.

ـ ومتى تأتي هذه الأوامر؟

ـ لو سمعك السيد، وأنت تتحدث بهذا الاستخفاف، فلن يسمح لك بتكرار مثل هذا السؤال!

وأقفل عائداً إلى داخل «كبينة» القيادة مع تناثر الضحكات، والأحاديث المتداخلة بين المدعوين، والمدعوات المنتظرين لساعة الانطلاق على نغمات موسيقى هادئة.

المشاهد تشي أنك خارج الحدود فنساء تخلين عن عبيهن، وحشمتهن، وأظهرن مفاتن عاجية لم تكن لتبين بهذا الابتذال في مكان آخر، وتحرك الخدم لملء الكؤوس من قنينات خمور مختلفة الأشكال والألوان، وتبرعت بعض النسوة بهز قدودهن في حلبة جانبية في محاولة لإحياء الانتشاء في روح من حرقة الانتظار الطويل، وتوقفن عندما سمعن منسق الحفل يأمرهن:

ـ ابقين نشاطكن لبقية الليلة!

مشاهد العري والتفسخ تعكر صفو عمر القرش (إن حل به هذا الصفو)، وتجعله يغمغم بجمل غير مسموعة، وهو يخترق تلك المجاميع منكساً رأسه، ومتحاشياً النظر لأي حدث يحدث، وفي أحيان يضع إصبعيه في أذنيه، ويسابق قدميه للوصول إلى «كبينة» القيادة، ولا يخرج منها بتاتا، هذه الأفعال التي يحدثها أمام الآخرين، يحرص أن لا تبدر منه في حضور سيد القصر، وإذا قدر له أن يكون موجوداً في حضوره لا يمانع من افتعال الحبور، والتراقص على نغمات الأغاني القادمة من الماضي على حناجر مطربي الفرق الموسيقية التي تحيي سهرات القصر.

تم ترقيته مؤخراً لكي يكون المسؤول عن قيادة اليخت، والمشرف

على رحلات الصيد البحري. هذه الترقية حصل عليها بعد نجاح رحلة القنص في أدغال غينيا لهذا الصيف فقد سبق له، وأن زكّى صديقه القديم (عثمان كباشي) لسيد القصر لأن يكون المسؤول عن رحلات القنص البرية في السودان، وما حولها.

هذه الوضاعة التي يعيشها عكرت صفو حياته فغدا باحثاً عن كل من كان يشاركه نصاعة الماضي ليتعفر معه في آخر العمر بهذه المهمات الوضيعة.

** **

لعدم اكتمال التدابير الأمنية تم نقل موقع حفلة رأس السنة لهذا العام إلى عرض البحر على يخت (مذهلة)، وقد حرص المدعوون على التوافد في وقت مبكر، فمن لم يصل في موعده سيفوت على نفسه موقعاً متميزاً.

تجمع المدعوون في ردهة القصر، واستحث بعضهم بعضاً على عدم اصطحاب غير المرغوب بهم، فبعد فعلة عماد بنوني، والخزي الذي معر وجهه تخلى الكثيرون عن دعوة من لم يستلطف السيد حضوره.

مع الغروب تنافر المدعوون صوب اليخت الراسي بمحاذاة ملعب الغولف المقام حديثاً على مساحة ابتلعت جزيرة كانت متنفساً للسباحين من أبناء الحي.

فقبل أن يُشيَّد هذا القصر كان ثمة جزر صغيرة داخل البحر نقصدها للاسترخاء من سباحة طويلة، أو الجلوس على شعابها الناتئة للصيد، تهبط عليها الشمس كل مساء بتعب ناثرة أشعتها الباهتة خلفها لتغيب عن

الدنيا تاركة أنوار بيوتنا تومض لأداء مهمة كسيحة في إضاءة ما لم تتمكن من اللحاق به، هي جزر محببة للسباحين تناثرت في مواقع مختلفة على سطح البحر نتخذها كواحات وسط هذه المياه المالحة للاستراحة، ونخزن بها المياه العذبة، والمعلبات، فكل من يصلها يترك شيئاً صالحاً للاستهلاك حتى إذ احتاج شخص ـ وصل إليها ـ لشيء يأكله، أو يشربه يجد بغيته، كان هذا اتفاقاً ضمنياً نقوم به جميعاً من غير تنسيق، وقد أسس لهذا الفعل بحارة قدماء من باب إغاثة الملهوف، فأصبحت عادة لدى مرتادي الجزر.

في الغالب لا يصل إلى هذه الجزر إلاّ المهرة من السباحين، أو الصيادين الباحثين عن وفرة صيد، كنا مجموعة قليلة تستطيع الوصول لقلب تلك الجزر، فنمارس بها ألعابنا، أو نجعلها شارة لبلوغ أحدنا مسافة بعيدة في السباحة، أو نلجأ إليها لصيد سمك السيجان، والبياض في مواسم هجرتها، أو تكاثرها. بنشر (الشوارات) في ممر ضيق ولد بين الشعب المرجانية المتزاحمة نحو الأعمق، وتوضع (الشوارات) في تتابع، وعلى مسافات متقاربة كي لا تفلت أسراب الأسماك المندفع، وفي أحيان كثيرة كنا نتخذ من تلك الجزر مأوى حين نمارس شغباً، ونخشى العواقب التي قد تصلنا من ذوينا، كانت جزراً قادمة من الأزل حفر فيها الزمن فجوات عميقة، ودخل إليها لينام غير مكترث بتقلبات الأمواج من حوله، أو بمن يأتي، أو يذهب، وأشيع أن من يدخل لتلك الفجوات لا يعود، وصدقنا هذه الحكاية لوقت طويل بسبب المرويات المتناقلة من كبار البحارة، لكن عيسى الرديني بقي داخل إحدى تلك الفجوات ليومين كاملين، وخرج منها أكثر لصوصية مما مضى، لجأ إليها بعد أن سرق نقود جدته التي ادخرتها استعداداً للحج في ذلك

العام، ولكي لا يبقي النقود في جيبه اشترى بها حماراً بنية الذهاب في رحلة صيد للأرانب التي تختفي خلف جبال وادي الكراع، واكتشفت سرقته أخته الصغرى التي وشت به إلى أبيها، فاقسم على تأديبه بطريقة لا تخطر ببال الشيطان ذاته، وحين علم عيسى باكتشاف أمره ترك الحمار مربوطاً بجوار صندقة العجوز مريم خليل، وغاب عن وجه أبيه، الذي قام بجلب الحمار، والتحريج عليه نهاراً كاملاً، وفي آخر النهار باعه بثمن بخس، وعاد أكثر تصميماً على إيذاء ابنه، وفي الطريق فكر بوسيلة عقاب تذكر ابنه عيسى بسوء خاتمة السارق، واستقرت بباله فكرة أن تحج أمه على ظهر ابنه، راق لخاطره هذا العقاب، ليسير بين الأزقة ضاحكاً، وهو يرى أمه تدلي رجليها من فوق ظهر عيسى، أو من على عنقه وفق الهيئة التي ستركب عليها، وقبل أن يصل إلى البيت خبت فكرته، وتحورت قليلاً فبدل أن يحج بها على ظهره ارتضى أن يقوس ظهر ابنه لتمتطيه جدته، ويسير بها ذهاباً وإياباً من البيت إلى موقفة البلد، وتراجع ليقرر أن يسير بها من أول الشارع إلى نهايته، واستكان لتنفيذ هذا العقاب باطمئنان.

وصل عيسى للبيت، ولم يكن يعلم أن سرقته تم اكتشافها، وأخبرته أمه أن أباه يغلي غيظاً من فعلته، فالحمار الذي باعه لم يكن ثمنه مساوياً، أو مقارباً للمبلغ المفقود، وأوصته أن بمواجهة أبيه في الشارع خيراً من انتظاره في البيت عل أحداً من أهل الحارة يشفع له عنده.

التقى الاثنان في برحة العجين، فعرف كل منهما نية الآخر:

ـ لا تهرب

ـ ستضربني.

ـ لا، لا لن أضربك.

ـ أشك في أن تتركني بلا عقاب.

ـ نعم، فقد أقسمت أن تحج جدتك على ظهرك!

ـ وهل أنا مجنون لأسمح لأمك السمينة أن تحج على ظهري.

ـ يا حمار، تأدب، هذه جدتك.

ـ جدتي، يعني تكسر ظهري بحمولتها، وان كنت باراً بوالدتك إلى هذا الحد فحج بها على ظهرك أنت!

وقف عيسى بعيداً حذراً من أن تنطلق قدما أبيه في الركض نحوه، فاستعد بتليين أطرافه، وإدارة عينيه لاختيار أي الأزقة أيسر للهروب، والإفلات من قبضة أبيه:

ـ أين النقود التي سرقتها؟

ـ اشتريت بها حماراً.

ـ كيف تشتري حماراً؟ وأنت حمار.

ـ والحمار باع الحمار.

لم يصبر أبوه على هذه الشتيمة العلنية له، وفي محاولة لمباغتة عيسى انطلق باتجاهه، ليزوغ منه قافزاً سور بيت حمزة الدربي، واقفاً على سور البيت متوسلاً الصفح من أبيه الذي وجد أن فرصة الإمساك به تضاءلت، فصاح به:

ـ والله لأجعلن جدتك تحج على ظهرك.

أطلق عيسى توسلاته، طالباً من المجتمعين التشفع له، وعندما سمع مقولة أبيه رد باكياً:

ـ يا شيخ حرام عليك، سمنة أمك تقتل جمل، فهل تريد قتلي؟

ولم يخف يوسف الدريني ضحكته من نمردة ابنه، لكنه تماسك، وأقسم على أن يبر بالعقاب الذي اختاره لتأديب ابنه، وأخذ يطالبه بالنزول، وعندما لم يستجب، حمل عدداً من الحجارة، وأخذ يقذفه بها، فانحدر عيسى للجهة الثانية من الجدار، وغاب.

عاد والده لبيته فائراً مشتاطاً، ومقسماً أن ينفذ عقابه حالما يمسك بعيسى، وحين سمعته أمه يردد هذا الوعيد ضحكت من ابنها:

ـ عيسى نبتة أصيلة منك.

ـ وهل كنت سارقاً يا أمي؟

ـ غرابة أفعالك هي التي تجمعكما.

ـ لا عليك، فقط أتوسلك أن تركبي ظهره، وتفركي بكل قوة على عصعوصه، أريده أن لا يقوم من مكانه.

ازدادت ضحكتها، واهتزت:

ـ يقطع وجهك يا يوسف!

وعندما حاولت ليلى (أم عيسى) التدخل نهرها زوجها بغلظة:

ـ كل ما يفعله هذا الولد الشقي هو من صنعك.

صمتت، وهي تتطلع لعمتها ليلى بغيظ، وكلما مضى الوقت تراجع يوسف الرديني عن تنفيذ عقابه، تقلص همه في العثور على ابنه، مما مكن ليلى من التخفيف مما يرزح بداخلها:

ـ لن تنعم حتى نفقده.

غاب عيسى ليومين، وثلاث ليال مختبئاً داخل فجوات إحدى تلك

الجزر، وبعد أن قرصه الجوع، والعطش سبح باتجاه الشاطئ (في هذا الوقت حدثت حادثة هي التي غيرت مسار أقدار الكثيرين منا)، ووقف أمام أبيه مبللاً:

ـ سأحج بها على ظهري لسنتين قادمتين!!

خالطت أبيه فرحة عودته مع إظهار غضبه منه:

ـ أين كنت يا ابن الكلب!!

ـ في الميقات إلاّ أن جدتي لم تأت.

انفرطت جدته ضاحكة، وهي ترى حفيدها يقوس ظهره، ويطلب منها الصعود:

ـ هيا عجلي، حمارك جاهز.

خبطت على ظهره، وهي في غمرة نشوتها:

ـ أتريدني أن أحج في شهر شعبان يا ناقص.

جذبها ابنها متوسلاً إليها:

ـ ليس مهما رجب، أو شعبان المهم أن أبر بقسمي!

تمنعت أمه من الاستجابة لابنها بينما بقي حفيدها مقوساً ظهره:

ـ اركبي على ظهره سيوصلك إلى آخر الشارع، ويعود.

وعندما تمنعت، اخترق عيسى فخذيها، وحملها على كتفه حتى كادت تقع على وجهها مما جعل أبوه يسارع لتخليص والدته قبل أن تسقط، وأمسك بعيسى، وأخذ يجلده بعصا غليظة، وهو يستغيث بالجيران من غير أن يجد من يغيثه.

كانت خالته سلوى (وأخته بالرضاعة) حاضرة عقابه، تبكي،

وتستنجد معه عل أحداً يرفع عنه تلك العصا التي أكلت من ظهره الكثير.

ولم يصدق أحد بحيّنا أن عيسى قضى ثلاث ليال داخل تجاويف الجزر النائمة على سطح البحر، وبعد هذه الحادثة أصبحت تلك التجاويف ملاذنا، وسلوتنا، وتسربنا لداخلها غير عابئين بتحذيرات أمهاتنا من دخولها. أمهاتنا اللاتي ما زلن يؤمنَّ بإشاعة أن فجوات الجزر لا تأوي سوى العصاة، والمكتوب عليهم شقاوة الدنيا والآخرة، وكان في كل يوم يزداد أشقياء حارتنا بالتسلل إلى داخل تلك الفجوات.

** **

ومع حاجة القصر لمساحات ممتدة كانت أكبر الجزر ضحية لهذا التمدد، فتحولت إلى مرسى لاستقبال يخت (مذهلة) دون سواه من اليخوت الأقل تواضعاً، هذه البقعة نفسها ـ بعد أن ردمت ـ غدت تحتضن صفوة رجال المدينة الذين يتسابقون منها صوب عرض البحر، ليقيموا احتفالاتهم، ويمارسوا صخبهم مطلقين الألعاب النارية، لتذكير أهل الحي المجاور للقصر أن الأشقياء من أبنائه انطلقوا أيضاً من هناك.

تحرك يخت (مذهلة) بقيادة عمر القرش متأخراً عن موعده ساعتين، وبقي المدعوون داخله غير قادرين على النزول، أو تغيير مواقعهم خشية من إغضاب المنسقين لهذه الحفلة.

بعد تحذيرات عمر القرش لم يجرؤ أي منهم على إخراج سؤاله عن سبب هذا التأخر، فسيد القصر ظهر عند موعد الإبحار تماماً ثم عاد إلى داخل مقصورته يجمع غضبه في غفلة عن المدعوين.

تلقيت شتائمه عبر الانترفون، كان صوته يدفع غضباً فائراً:

ـ أين مرام؟

كل الحجج التي سقتها له لم تفلح في لجم مضخة شتائمه.

ـ سأعرف كيف أجعلك تنجز مهامك فيما بعد.

احتاجت إلى مهاتفات عديدة قبل أن تطل مرام من بوابة القصر الرئيسة، ومع مقدمها هرع سيد القصر لتلقف يدها، وإيصالها إلى مقصورة اليخت في حديث خافت كشفت ملامحه مقدار الغضب الذي جمعه أثناء انتظاره.

مذهلة، كانت هذه الصفة هي الأقرب لفم سيد القصر لينعت مرام بها، ويطلق على يخته الخاص هذا اللقب تيمناً بكل ما تجود به من حمم الشوق على حياته الباردة.

تنازعه نفسه ليلياً في مصاحبة فتاة لم يرها من قبل.

كان هذا قبل مجيء مرام حتى إذا رافقها لليلة واحدة في رأس السنة الماضية لم يعد يستسيغ السهر من غير أن تكون هي زينة المجلس.

من عادته قضاء رأس السنة في جنيف أو مدريد أو ضواحي جنوب فرنسا حتى إذا تعرف عليها لم يعد يطيب له الذهاب بعيداً، وإذا تحرك لأي جهة من العالم كانت بمعيته.

له مندوبون متعددون للقيام بدور القوادين، ولهذا الغرض انتشرت فرق في أرجاء المدينة، كل فريق يتزعمه شاب طاغي الوسامة، يستخدم وسامته لاصطياد الفتيات اليافعات، ويغزل لهن شركاً بكلمات عشق يتدربون عليها من قبل عاهرة كانت عشيقة السيد في بداية شبابه، فمل من جسدها، وروحها معاً، فاستحلفته بالأيام الخوالي أن لا يبعدها عنه، وتعهدت بجلب الفتيات لتنشيط ملله إن هو أبقاها بقربه، لذا

أمضت سنواتها الأخيرة وقفاً على تعديل مزاجه، فتفانت في إحضار كل من تعرف من الفتيات ومن لا تعرف منهن.

يطلقون عليها المتدربون والمتدربات ألقاباً من غير التصريح باسمها، وحين انتقلت خدمتي إلى توزيع الأموال على الفتيات اللاتي يحيين السهرات كنت أبحث عن تلك القوادة بين مجموعة من السيدات المتزاحمات أمام أبصار السهرانين.

كانت تلك القوادة هي من تقوم بمهمة جلب الفتيات قبل انتشار الشباب الوسيمين في الأسواق، تخرج ليلياً مصطحبة امرأتين زنجيتين لتسيرا خلفها، مهمتهما إشاعة أن مرافقتهما (شيخة)، وفي كل محل تصل إليه تمنح نفسها هيبة ووقاراً زائدين.

لا تتحدث كثيراً تومئ برغباتها لمرافقتيها حتى تتحول إشارتها إلى أمر، وكانت الصبغة التي تحملها تحث من يسمع أوامرها على تلبية طلبها من غير تفكير، وفي كل مكان تصل إليه تسبقها همهمات الموجودين: (الشيخة) جاءت، (الشيخة) غادرت.

تتنقل في الأماكن التي تكتظ بها الفتيات، تنقلاتها في الأفراح، وفي المراكز التجارية الترفيهية مكنتها من اصطحاب فتيات كثر لقضاء ليالٍ حالمة داخل القصر من غير خشية تعرضهن للمساءلة، أو القبض عليهن من قبل الشرطة أو «هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

اعتراني فضول غريب لمعرفتها، وبدأت ظنوني تغزل احتمالات أن تكون هذه القوادة هي تهاني نفسها.

ففي ذلك الزمن البعيد، وحين يسكن الهجران علاقتنا، تكون تهاني مهيأة لطرد غربان الفراق، تسارع في تحميل نفسها سبب الخصام، وتقترب مني هامسة:

ـ لن أتركك، فأينما تذهب ستجدني.

ثلاث نساء تشاركن في مهنة القوادة، وإمداد حفلات القصر بالفتيات اليافعات، وتدريب الفتيان على أسهل الطرق لاصطياد الصبايا، واستقطاب أصعبهن مراساً.

أسامة تلقى تدريبه على يد جمانة التي كانت تعمل في الملاهي الليلية اللبنانية، ومع الاجتياح الإسرائيلي لبيروت استضافها السيد، ولم تغادر موقعها، وظلت مشمولة بالحفاوة، والتقدير فمنحت أسامة أسرار الكلمات التي تغرق أي فتاة في حبائله، خرجاته جميعها كانت ظافرة، لا يعود إلاّ وشباكه متخمة بفرائس سال دمها، ولم تلفظ أنفاسها الأخيرة بعد.

مذهلة جاءت إلى القصر باسم مرام نصب لها أسامة فخاً، وأخذ يجذبها رويداً رويداً، لم يكن يظن أن جمالها سيصعق السيد ذاته، الذي اصطفاها لنفسه، وأطلق عليها لقب (المذهلة) جاءت إلى حياة السيد بعد عشرات النساء، وتوقع ندماؤه أن ينساها بمجرد معاشرتها إلاّ أن هذا التوقع خاب تماماً، غدت مرام أنفاسه التي تمده بالحياة.

ومنذ أن رأيتها شعرت أني علقت بعينيها.

كانت في يدي، وتبخرت فجأة، فسعيت لاستعادتها.

** **

عيسى الرديني هرب من الحارة، ثم عاد ليهرب بقية أبناء الحي إلى الجنة.

وكنت ممن جار عليه بهذا الهروب.

جمع أصدقاءه، وأعداءه في بقعة واحدة، وكان راغباً في إظهار تميزه على أصدقائه وإذلال أعدائه بهذا التميز.

عيسى الرديني، وأسامة، وأنا، ثلاثة أرواح جمعتنا شقاوة الطفولة الأولى، شقاوة امتزجت بألسنة قذرة لا نتورع عن سكب كل الشتائم العرجاء، والعمياء على مسامع من يعترضنا، أو نشتهي السخرية منه، نسرف في صرفها على أهل الحارة حتى غدا الكثيرون يتحاشون مصاحبتنا، أو الاقتراب منا، أفرط أهل الحي في نبذنا، والابتعاد عنا ناعتينا بالأغصان المعوجة المشوكة، فقد خرجنا من أسر صالحة، وشذينا عن قاعدتها باعوجاج لا ترجى استقامته.

أسامة البشري (البفتة) ابن لمطوف افترق عن أسرته لكي يتابع انصباب مصدر رزقه داخل الحرم المكي يستقبل الحجاج، والمعتمرين على باب إسماعيل، ويطوف، ويسعى بهم الأشواط السبعة، ويقنع بما تجود به أنفسهم، وفي الليل يأوي إلى مقهى داخل السوق الصغير، وينام على عجل كي يكون حاضراً لصلاة الفجر، ومستقبلاً المعتمرين، ليبدأ في جني رزقه باكراً، دأب على الغياب عن أسرته، يغيب أسبوعاً، أو أسبوعين متصلين، ويعود طلباً للاسترخاء التام حيث يقضي معظم وقته مستلقياً على سريره بينما زوجته (تهمز) قدميه المتورمتين من السير الطويل، بعد غمرهما في الماء الفاتر، والملح، فيدخل للنوم قبل أن يستكمل إنهاء تأوهاته.

وفي أول يوم من شهر المحرم لعام ١٤٠٠ للهجرة قضى نحبه برصاصة طائشة فيما كان يحاول الهرب من صحن الكعبة، رافضاً مبايعة المهدي الذي نحر بعد ثلاثة أيام من ادعائه.

لم تحصل أسرته على دية، أو تعويض، واقتصر ارث أسامة على عباءة كان يشتمل بها والده أثناء قيامه بالطوافة، وكتب يسيرة حوت على: مختارات من صحيح البخاري، وكتاب رياض الصالحين، وكتاب الروح لابن القيم الجوزية، ومجموعة أدعية تقال أثناء الطواف حفظها الأب عن ظهر قلب، وعجز أسامة عن ترديدها مكتوبة، ومع مقتل محمد البشري أرادت زوجته تعليق ذلك الإرث في رقبة ابنها أسامة، ليعيد سيرة أبيه داخل الحرم المكي، هذه الأمنية وقف حيال تحقيقها جل المطوفين معترضين تنصيب أسامه في مقام أبيه لحداثة سنة، ومظهره المتفلت المستفز، وإن كانت جبهته تحمل آثار السجود إلاّ أن سلوكه لا يحمل أي خشوع في ذلك المكان المقدس.

ففي أول يوم ألقى عباءة أبيه على كتفيه، ولم يهذب شعره المنكوش، وزاد على ذلك بدس مشط حديدي في مؤخرة شعره، واستقبل المطوفين بألفاظ منكرة لا تقال للمعتمرين، ويبدو أنه استقصد إحداث هذه الأفعال ليتملص من حلم والدته، ومع تجاوزاته تم التبليغ عنه، ليجذبه شيخ المطوفين من على الخط الموازي للركن اليماني معنفاً، ومحذراً إياه أن يراه مرة أخرى. فترك مكة، وعاد لأزقة الحارة، يطوف بها فساداً، ويتستر على أفعاله خشية من فقدان السمعة التي اكتسبها بمظهره المتدين (بعد فضيحة المجلات الخليعة) وحرصاً على إظهار الاستقامة كي تبر أمه بوعدها الذي قطعته على نفسها أن تخطب له تهاني ـ ابنة أختها ـ إن (انصلح) حاله.

كان هذان السببان يجعلانه، يسير بانحراف حذر.

أسامة اشتهر بنبزة البفتة بعد مداومته على متابعة الصبية بيض البشرة

كغواية مبكرة انتهجها تشبهاً بصيادي الغلمان المتبعة من قبل رجال الحارة العتاة، وتقيه من أن يكون فريسة للذئاب المنتشرة في الأزقة المظلمة، وليبعد عنه سعار الكبار ممن حامت نفوسهم لاقتناصه، فوسامته الطاغية جعلت عمر القرش شيخ الصيادين يدنو منه متودداً، ومدعياً وقوفه بجانبه بعد وفاة أبيه، ولمعرفة أسامة بالوسائل التي ينتهجها الكبار مع من هم أصغر منهم، حاول إزاحة عمر القرش عن طريقه، برفض الهدايا التي أغدقها عليه، وعندما لم يرتدع فوجئ عمر القرش بأسامة بعد صلاة المغرب، يمسك بميكروفون المسجد، ويحذره مباشرة أمام المصلين من الاقتراب منه، وكانت هذه وصمة عار حملها عمر القرش بالرغم من محاولته تبرئة نفسه من ادعاء أسامة، فوقف تالياً له ذاكراً أن تقربه منه لكسب المثوبة التي وعد بها كافل اليتيم إلاّ أن اتهام وتحذير أسامة له، أحدثا شرخاً كبيراً بين أهالي الحارة، وشيخ الصيادين جراء ذلك التهديد.

وكما فعل معه عمر القرش، لجأ هو إلى (الاستوجاه) بمن هم أصغر منه، ولكي لا يتحول إلى فريسة سهلة لمن هم أكبر منه داوم على حلق شاربه، وذقنه قبل حادثة عمر القرش بزمن طويل، فقد دأب على الحلاقة، وهو لم يصل الثانية عشرة من عمره، فتناثر شعر لحيته، وشنبه قبل الأوان.

ترك مقاعد الصف الأول ثانوي مع أول دسيسة بلغت مدير المدرسة من كونه عضواً فاسداً يوزع مجلات جنسية على زملائه، وانكشف أمره على يد الفراش جبريل موسى المدسوس عليه من قبل إدارة المدرسة، فقد استبقاه إلى نهاية الدوام، وعرض عليه مقايضة تزويده بأحدث

المجلات الجنسية مقابل أن يحول غرفته إلى مخبأ لتلك المجلات في حال وقوع تفتيش مفاجئ.

ومع أول افتعال للتفتيش خرجت من حقيبة أسامة ١٦ مجلة جنسية ملونة، أسرع بها إلى جبريل لينفذ الاتفاق المبرم بينهما.

كان باستطاعته أن يعود إلى مقاعد الدرس في نفس المدرسة لولا تلك (الفلكة) التي تلقاها على يد المدير، والذي لم يشأ أن تكون فضيحة أسامة سرية، فمع اكتشاف المجلات أمر بإنزال جميع الطلاب إلى الفناء، وعندما انتظمت الصفوف، كانت كلمته تجلجل عبر ميكروفون الإذاعة، ليوصل فضيحة أسامة للبيوت المجاورة، وقبل أن يجف زبد شدقيه من رغائه، كانت قدما أسامة معلقتان في فلكة أمسك بطرفيها العمان جبريل وخليل، يومها تكسرت على راحة قدمي أسامة ثلاث عصي توعد أن يعيدها على ظهر جبريل لو سنحت له الفرصة.

في طفولته كان ملتصقاً بتهاني (هي التي تسيره بالرغم من أنها تصغره بأربع سنوات) حتى إذ احتجبت التصق بأخيها فائق، ولتغيب أبيه في مكة، عرف أسرار الأزقة التي تدهك الرجولة، فاختار أن يكون صياداً على أن يكون فريسة.

ومع شغبنا، ونبذنا اجتمعنا ثلاثتنا (أنا وعيسى وأسامة) في فجوات إحدى الجزر، ومن هناك انطلقت بنا الحياة صوب المزالق الكبرى باحثين عن البهجة والمتعة بهمة فائقة.

** **

مع انحرافاتنا السلوكية (نحن الثلاثة) كنا نعبر سنوات الدراسة بنجاح مجروح، وأغلب الظن أن ثلاثتنا نكون ـ في كل عام ـ تحت نظر لجنة الرحمة، فنجاحنا مقرون بالدرجات الدنيا في أغلب المواد. تحسن

مستوى أسامة بعد أن طرد من مدرسة قريش الثانوية، كانت فضيحة المجلات الجنسية قد سبقته إلى مدرسته الجديدة، ولم يعمد إلى نفيها بل سعى إلى تأكيد توبته وإنابته، ولكي يقنع من هم حوله، مكث لأيام يفرك جبهته على أرض رملية، أبقت أثراً باهتاً للسجود، وأطلق لحيته النابتة بعشوائية، وقصر ثوبه إلى نصف ساقه، وتعمد رفع أذان الظهر في أول يوم دخل فيه إلى مدرسته الجديدة، هذا التدين الظاهري جعل وكيل المدرسة يتعهده بالرعاية، ويوكل إليه رئاسة جماعة التربية الدينية، فأغدق المدرسون عليه درجات المشاركة، وتجاوزوا عن ضعفه الدراسي حتى إذا جاءت شهادة الثانوية العامة كان يقف بضعفه، وهيئته المفتعلة أمام أسئلة لا تستجيب لكل مظاهر التدين التي أبداها، ومع نتائج السنة التوجيهية كنا نجلس أمام المذياع، ومحمد حيدر مشيخ يدلق أسماء الناجحين فترتفع الزغاريد هنا وهناك، ولم نكن نظن بتاتاً أن نفس المذيع محمد حيدر مشيخ المتقطع قادر على إخراج أسمائنا نحن الثلاثة معاً، ومع هذا الظن استطاع أن يسرب أسماءنا الواحد تلو الآخر كما لو كنا كدر ماء سبق صفوه.

في تلك الليلة، افترقت أنا وأسامة. بدأ كل منا يوسع صدره، ليزرع بذرة كره للآخر.

الفرحون بنجاحهم من الثانوية العامة، خرجوا لتوزيع المشروبات الغازية على أبناء ورجالات الحي، وعلى المارة، والزغاريد تتعالى من جهات مختلفة، وأمهات الناجحين شرّعن النوافذ، وألقين بالحلوى، والمكسرات على رؤوس المارة.

نجاحي مكنني من رؤية الفرحة، وهي تشع من عين أمي التي

حضنتني، ودلقت كلمات مكسرة لم تصل معانيها إلي، وأبي كان غائباً في بيت زوجته الثالثة، وكعادة عمتي حقرت هذا النجاح، ولوت عنقها، وهي تغسل ثيابها الداخلية:

ـ الكرة القذرة قادرة على التدحرج أيضاً!

كنت أتمنى لو أن (زغرودة) انطلقت من حنجرة أمي، أو من حنجرة عمتي، كان بيتنا شحيحاً من هذه الفرحة، فخرجت لرؤية تهاني علها تمدني بالفرح الذي ركد في داخلي، أخذت أرقب نافذتها، كانت نافذتها مشرعة للريح، وهي غائبة، مكثت طويلاً أترقب طلتها من غير أن تبين.

كنت متحرقاً لرؤيتها، راصداً نافذتها علها تطل علي، فبزغت من باب بيتهم خلف أمها، وخالتها، اللتين تفرغتا لنثر الحلوى، والمكسرات، والزغاريد على رأس أسامة، ومن حوله الصبية يلتقطون ما تناثر، فتراجع ومال برأسه ليهمس لتهاني التي انطلقت أسارير ضحكتها، يومها أحسست أني أكرهه.

التقينا ثلاثتنا، وكل منا يسخر من نجاح الآخر، ولم نتورع عن حجب هذه السخرية حتى مع التفاف الأصدقاء حولنا لتهنئتنا.

كنت معهم، وليس معهم، فعيناي تسترقان النظر لنافذة تهاني الواقفة بها، ووجهها مشقوق بضحكة كبيرة، فتفوح في داخلي حرقة لاذعة من تصرفها، لم أكن وحيداً في هذا التربص، كان يشاركني أسامة، وكان يقاسمني ابتساماتها البعيدة، ولم أكن متيقناً لأي منا أطلقت تلك الابتسامات، والإشارات الخاطفة.

بسبب هذا الشك هجرتها لأيام، وفي إحدى الليالي ألقت في طريقي شريطاً لنجاة الصغيرة، ورسالة قصيرة:

t حبيبي طارق t

الحياة من غيرك ليس لها طعم فلا تحرمني منك.
سعدت بنجاحك، أهو هانت، بكرة لما تدخل
الجامعة سنحقق حلمنا.

أحبك موووووووووت

لا تحرمني منك، وسيب الصياعة، ألف مليون مبروك

عقبال .... أنت كمل الفراغ.

حبيبتك للأبد

هنو

يا حبيب العمر أحبك



قبل غرق البلاد بالوفرة المالية، وتنصل الأصليين من قاطني الحي من انتمائهم لحارة الحفرة، كانت الليالي أكثر بهجة مما أضحت عليه.

كان القصر علامة فاصلة في حياتنا. بل تاريخاً يتداوله كبار السن فيقولون عن أي حادثة حدثت قبل بناء القصر، أو بعد بناء القصر.

وقبل نهوض القصر، وفي الليالي الطويلة يسيح أهالي الحي على بعضهم بحثاً عن المتع الممكنة، النساء يختلقن الأفراح والمناسبات، والشيوخ يلازمون المراكز في استعادة شباب فر منهم، فبقوا يبحثون عن أثره بذكريات بالية يعيدونها كل مرة، ويتضاحكون لأحداثها، أو

يتحسرون عليها، والصبية يتفرقون في مساحات الحي ليمارسوا ألعاباً مختلفة، ونحن الشباب نقتعد الزوايا لسرقة مفاتن الفتيات اللاتي طفحت أجسادهن بأنوثة تهيأت لانتظار من يقطف شيئاً منها حتى ولو بالنظر.

يمضي الليل هنا محتفلاً بكل الأفراح الصغيرة، ولكي لا تعكر نشوتي أنزوي عن شيش عمتي خيرية كي لا تلاحقني عيناها، أو لسانها، كانت تفطن لكل تحركاتي، أقع في شراكها منذ نعومة أظافري، ألفت أذناي فرك أناملها، منذ أن رأتني أول مرة أتسلل إلى مخدع أبي، وأمد يدي لجيبه، وقبل أن أنعم بنجاح أول سرقة في حياتي، وجدتها، تعلقني من أذني وتصيح:

ـ أتتدرب من الآن لتأخذ مكان أبو مشط عندما يموت.

صوتها الحاد الثاقب أيقظ أبي ليكمل مهمة تأديبي بطريقته التي اعتاد عليها في تربيته لي، لم يكن جسدي قد نما بعد ليتحمل فورة غضبه، وخشيته من خروج لص من صلبه كي لا يصبح معرة مؤكدة على لسان عمتي خيرية.

ـ نسل سنية لا يجلب إلاّ البيض الفاسد.

هذه جملتها التي تطلقها كلما تعاركت مع أمي، أو أرادت أن تغمز أبي لاختياره أمي زوجة له.

كرهتها مبكراً، وأحاطتني بمراقبتها اللصيقة كتدريب يومي لتنشيط حاسة اليقظة لديها.

بيتنا الضيق مكنها من اصطيادي كلما هممت بفعل خارج اللياقة، تضع كمينها مطمئنة وهي جازمة أني سأقع به، وتراقبني بتلذذ، ولذتها ـ كل لذتها ـ أن تسحق فعلي قبل انتشائي بإنجازه.

أطمأنت أمي لمراقبتها لي، واقتصرت مهمتها على تأديبي عند اكتشاف العمة خيرية لأخطائي، أو معاونة عمتي في تأديبي.

أنا البكر خرجت من رحم لم يطق أن يتكور مرة أخرى، لينطلق أبي ساكباً مياهه في ثلاثة فروج، اقتدى كل منها برحم أمي، كان أبي يشعر بالدونية لضاءلة ثماره فعرج للاستعانة بنساء ولودات عجزن عن إنجاب الذرية الممتدة، فرحم أمي لفظني وحيداً، وكذلك زوجته الثانية وهبته ابنين أحدهما مات صغيراً، وبقي إبراهيم الذي أنار سيرة أبي، وزوجته الثالثة أوصدت رحمها فلم تستجب لكل المياه المنسكبة فيها، ليهرب منها بالطلاق، واكتفى بالمتعة متنقلاً بين أفخاذ النساء اللاتي يتبرأ منهن في زمن قصير، وآخر امرأة وصل إليها أنجبت له بنتاً لم أرها، وسمعت أنها سرقت الجمال كاملاً.

ربما ورثت الفحولة من أسلافي، فأبي وجداي (لأبي وأمي) صبوا مياههم في نساء كثر، وقد ظهرت بوادر هذه الفحولة علي في وقت مبكر.

فقبل أن توصلني عمتي لصندقة الغنم، كنت قد اكتشفت سر هذا المارد الذي يولد معنا فبمجرد إحداث احتكاك يفيق ذلك المارد ليذهب بنا إلى الغواية المشتهاة، الآن أسترجع ضرورة فرك مصباح علاء الدين، وظهور الدخان والمارد متعاقبان، أيقنت ـ الآن ـ أن نيران الجسد تضرم بالاحتكاك، وتتلاشى بفعل هذا الاحتكاك، ففي كل إناخة موات، ومحصلة هذه الإناخات الموت الحقيقي.

في الليالي الباردة (نتحاشر) أنا، وأبناء خالتي في فراشين متقاربين، ويمضي الليل، ونحن نتجاذب الأغطية لندفئ أجسادنا من لفحات الجو

القارص، وفي ليلة محددة اكتشفت النار التي تتولد من الاحتكاك، في تلك الليلة، التصقت بمعتز ـ ابن خالتي ـ الذي يصغرني في العمر، احتكاك جسدين طريين جعل حركاتي فائرة، ومتناغمة، كنت أظن أن الغطاء المسدل على جسدينا سيغيب تحركاتي المحمومة، ويبدو أن عيني عمتي كانت تتربص بتلك الحركات المتحرشة، كانت أول عملية جنسية أقوم بها، وأول ذكرى سيئة عن هذه الطبيعة الفائرة في جسدي.

وقبل أن أنهي وطري، اعتلت صيحات العمة خيرية عالياً، ولم تهدأ لثلاثة أيام متوالية، وكلما تذكرت ما حدث، ركضت نحوي وعلقتني بيدها بينما انشغلت اليد الأخرى بقبص ما تصل إليه من جسدي فإن لم تشف غيظها، تناولت سلكاً نحاسياً، وأفرغت ما بداخلها من غيض، وهي تفور بكل شتيمة يصل إليها لسانها.

ومع كل عقاب أتلقاه منها أكون قد بنيت لها عقاباً في مخيلتي، تعددت صنوف العذاب الذي سامتني به، وتعددت في داخلي كل أنواع الحقد لهذه الكريهة التي لم ترق لرجل قط.

ـ (يا واد انهد وأنت زي ماطور النفخ).

كل فرد من صبية الحارة يحمل نبزة ما يصطفيها أقرانه لإلصاقها به، وفي طفولتي، وكذلك الطور الأول من شبابي حملت نبزة الماطور.

في البداية كانت نبزتي جملة مركبة (ماطور النفخ) ثم استقرت على لفظة واحدة: الماطور، ولحقت نبزتي ببعض من دكيت عظمه، فيقال للفرد منهم (منفوخ الماطور)، ثم تحورت إلى (ماطورجي)، فمن تطلق عليه هذه النبزة أكون قد ختمت على ظهره.

انسلت هذه النبزة من أفعالي القذرة التي سلكتها بين أبناء الحي.

كانت مصيبة تلك المماحكة التي حدثت مع ابن خالتي معتز أسفل الغطاء، ولعبتي مع سعاد، أوصت كل العيون بتتبع حركاتي وسكناتي، وكل العيون تراجعت عن مراقبتي إلاّ عينا عمتي بقيتا تلازماني في كل تصرفاتي.

لم أعرف بعد كل هذه السنوات الطويلة ما الذي كان يدفع عمتي لأن تجذبني للطرق المنحرفة، وما هي الغاية المستهدفة من أن أكون معطوباً.

عندما جذبتها من شعرها، ودفعتها لداخل غرفتها علمت أن كل سلوكياتها التي مارستها معي كانت تكتب قدرها، وتجهز شخصاً لمعاونة عزرائيل في استخراج روحها الكريهة.

** **

لا شيء يسقط للأعلى، الأعلى نقطة خارج الامتحان.

والسقوط هو الفعل الذي لوث حياتي.

عندما كنت أهوي إلى قرار سحيق لم يمسك أحد بزندي بتاتاً، ظل الجميع يتطلع إلي، وأنا أهوي لم يتراشق دمي في اتجاهات مختلفة كما حدث لأبي فحين سقط من على السقالة هبط معاونوه بتؤدة ليحملوا جسده إلى المستشفى، وبعد أن عافت رئتاه ضخ هواء أجهزة التنفس الصناعي انفجرت داخلياً لتسقي أحشاءه بدم أنهى تعلقه بتلك الأجهزة.

تكفل أخي إبراهيم (بمساعدة الأقارب) بمواراته الثرى، وتقبل العزاء، ولا إرادياً وجدت نفسي أقف تالياً لإبراهيم في صف العزاء بالرغم أني أكبره، ومع أننا كنا أصغر من أن نتقدم صفوف العزاء حيث تهافت أقرباؤنا، وأرحامنا (آباء زوجاته، وإخوانهم، وأقرباء لنا

يتواصلون مع أبي في النسب) كانوا في مقدمة الصف، ووجدت نفسي أقبع في ترتيب متأخر، وكأن الرابط بيني وبين الميت فصل وفق موقعي من صف العزاء. بعض أصدقاء إبراهيم تجاوزوني من غير تقديم واجب العزاء، كنت بالنسبة لهم شخصاً ساقطاً، وكافراً في نظر البعض، ومصنفاً في خانة أعتى العصاة لديهم.

العمة خيرية بكت أخاها طويلاً، وحملتني وأمي ذنب سقوطه، وتوعدتنا في سرها بإحالة حياتنا إلى جحيم لا يطاق.

لا أحد يمد يده لمن سقط.

السقوط حالة زمنية توصلك إلى القاع في سرعة متناهية، وبفعل التجاذب تكون مهيأ لأن تسافر في لحظات السقوط المتعددة، وكل مرحلة تدنو بك من القاع تسجل حالة دنيا من حالات السقوط، فالسقوط لا يحدث دفعة واحدة.

عمتي خيرية أخلت بتوازني، وقربتني من الجرف، دفعت بي نحو لحظة التجاذب، فمتابعتها لتصرفاتي لم تستهدف منها إصلاح اعوجاجي، كانت تبحث في انحرافي عما تنفس به عن غلها الراكد في أعماقها لكوني بذرة لامرأة لا تطيقها اقترن بها أبي في غفلة أسرية غير محسوبة على حد زعمها.

وغيظها من هذا الاقتران أجادت التخفي به إلاّ أنه كان يتسرب من بين أنفاسها، ولم تفلح حججها في تخفيف نقمتها على أمي، ومحاولة إثبات أن رحمها لا يحمل إلاّ البذور الفاسدة، تعددت صور لومها لتصرفاتي، مرة تبدي خشيتها من أن تسوقني أفعالي للسجن، ومرة تستنكف إقدامي على فاحشة، وأنا من صلب سلالة الخيرين، ومرة

تبدي خشيتها أن يصيبني الاعتوار فلا أرى المستقبل بل أدس تحت التراب بيدي قبّاراً لا يجيد دفن موتاه.

عمتي أشبه بشجرة صحراوية، أشوكت غصونها وثمارها، ولم تستطع عبور تصحر حقدها، تكبر أبي بعشر سنوات، ولا أذكر بتاتاً أن أحداً تقدم لخطبتها، أو أني سمعت أن رجلاً اشتهى قطاف ثمارها، أو مداعبة أنوثتها القاسية (هذا قبل اكتشاف سر حقدها على أمي).

عرفتها نحيلة صلبة مثل قضيب فولاذ لوحته الشمس، فأبقت على رائحة الحديد في جسدها، وبين أنفاسها، كيرها المتطاير أبقاها زفرة اللسان، والبدن، لم تفارق يوماً لؤمها فهي لئيمة تظهر النصح، وتستبطن تسهيل دروب الغواية كي أنزلق بها، ولا أعود!!

وبسبب تحريضها الخفي أضفت إلى قائمة المنبوذين من قبل صبية الحي بعد عيسى الرديني مباشرة.

فبعد فضيحة سعاد التي دفعتني إليها دفعاً، وفي اليوم التالي، وجدت أن مجموعات الصبية تنفر من تواجدي معهم، تهاني وقفت تشدني لانضم لمجموعتها إلاّ أن أخاها فائق زجرها فامتثلت، وبقيت عيناها تتابعني، وأنا أقف بحثاً عن مجموعة تقبل بي لأن أشاركهم لعبهم.

عمتي خيرية أول من دربني على اقتراف الأفعال الشيطانية، وأجدها في كل فعل تقفز من دور المدربة إلى دور اللوامة، هي تهيئني للفعل حتى إذ اقترفته كانت أول من يكتشف سوء تنفيذي له، فتورطي مع سعاد لم تكتشفه كما كانت تفعل دائماً، بل سمعت به بعد أن سهلت الطريق لأن أهوي لتلك الفضيحة التي تخمرت على ألسنة نسوة الحي، ليتناقلوا سيرتي بازدراء مضاعف.

نكتشف اللذة صدفة فندمن على استنزافها، ندمن على رشفها في كل حين ولا نعرف أنها تعبد لنا طريق السقوط، فاللذة هي الخطوة الأولى لمعرفة أن هناك لحظة سقوط ممتعة، ومع كل سقوط ممتع عتمة جديدة، ليتوالى السقوط، اللذة هي الفجوة التي تركتها الحياة متسعة كي تسربنا خارجها.

كنت مكلفاً بمتابعة، ومراقبة أغنام العمة خيرية، والتأكد من اكتمالها حين تأوي في المساء إلى حظيرتها المعدة خلف منزلنا المطل على شاطئ البحر.

ثمة فحل كان الأثير لدى عمتي، فهي تعده مدراً لثروتها، تحتجزه لأيام بعيداً عن الأغنام، ثم تتخير له النعاج، وتشرف على منافحته لها، تراقبه بنشوة، وهو يقفز على ظهور النعاج بهمة زائدة لا تعرف الكلل.

ـ أريدك أن تكون فحلاً كهذا، لتعوض ماء أبيك الذي سكبه في مكان دنس.

كنت أصغر من أن أفهم أفعال أخرى للفحولة، أو احتقارها الدائم لأمي، وكنت راغباً في الحصول على تبجيلها لطفولتي، والشهادة لي بأني أليق بفخرها، وقبل أن أشهدها على فحولتي أخذت أتدرب على القفز، والانزلاق من على ظهور النعاج (كما كان يفعل فحلها).

الاحتكاك يولد الشرارة، ليسري الحريق في كل مكان، وإشعال طاقة الجسد مبكراً تولد نهماً لاكتساب سقوط المتعة المتتالي..

كنت أظن أني أقترف شيئاً عظيماً، يوصلني لرضائها، واعتدادها بي، كفحل مدر للشرف، فأتقنت دور الفحل، وفق مراحله المتعاقبة: التصاق، واحتكاك، ثم فوران، لأكافأ بخدر يسري في مفاصلي، لذة مبكرة لم أفقه كنهها سوى البحث عن رضا عمتي.

فداومت على الالتصاق بكل نعاجها قبل أن أشهدها على فحولتي، يبدو أنها تنبهت لغيابي طويلاً داخل صندقة الغنم.

وبعد أن رأتني في وضع مشين بين غنمها، أقلد فحلها الأثير، أيقنت بأني فحل عليها أن تريق ماءه ليصيبه العطب سريعاً، وقبل ذلك عليها أن تنعم بلحظات تشفي (ستكررها مراراً)، يومها أخرجتني من صندقة الغنم قابضة على أذني بأظافرها، وهي تصيح:

ـ لعنك الله لا أحد يفعل في الغنم إلاّ ملعون.

ـ . . . .

ـ فعلك يفسد لحمها، ولبنها يا ابن الكلب.

تحذيرها جاء متأخراً، فقد أصبت بداء اللذة، أبحث عنها من خلال الاحتكاك بأي شيء.

فسلكت معي طريقاً مغايراً، كانت تختار نوع الانحراف الذي تدفعني إليه، تدفعني دفعاً مواربا، وكما يكون الدلو في هبوطه، كنت أهوي بمجرد أن تقذف بي، وفي كل هاوية أخرج مليئاً بالأوحال، فتفرغني بالتقريع.

جاءت سعاد لبيتنا تحمل صينية إدام أعدتها أمها كهدية لأمي المتوعكة، فاستقبلتها عمتي عند الباب، ومررت يدها على صدرها متلمسة نهديها الباحثين عن استدارة تتلاءم من فوران جسدها:

ـ اعتدلي يا بنت، طالعة فايرة زي أمك!!

والتفتت نحوي غامزة:

ـ هذه هي اللي فيها السمن!!

أقلعت عن متابعة غنم عمتي، وانشغلت بسعاد السهلة المتاحة، لاحقتها في زوايا الحي، فوجدتها تستدرجني بطفولة ساذجة للبحث عن مكان آمن نلعب فيه، رفضت الكثير من مقترحاتي، واختارت الوقت، والمكان، لتتسابق عيون الجارات لاصطيادي في وضع فاضح، وأنا أعالج ملابسي الداخلية لتلبية رغبة سعاد المقعرة في نصف استواء، كانت ترغب في استلال ريال صحيح زاعمة أن العريس لا بد أن ينقد عروسه مهراً، ولم استسغ حجتها، فنشب بيننا جدل يبدو أنه سرى عالياً في ذلك الليل الذي بدأ في الإبحار مبكراً، كنت أساومها على نصف القيمة، فتبدي تمنعاً مضاعفاً، فوعدتها أن يكون المتبقي ديناً في ذمتي أوفيها إياه حالما أحصل على نقود، وكنت أظن أنني سأنجز مهمة سرية، ولا أترك أثراً، كان الموقع بيت جلال مكبر المنزوي بين منعطفين حادين، ويبدو أنها ألفت هذا المكان بعد تهشيمها للمصباح الذي ينير بيت الدرج، واتخذته مكاناً لمواعدة من ترغب ملاعبته لعبة (عريس وعروسة)، إلاّ أن مناسبة (الطهور) حركت جلال مكبر لإصلاح المصباح المعطل.

الليلة التي اخترناها حملت شؤمها، غاب عنا أن الليلة التي اخترناه لهذا العرس الطفولي كانت ليلة مناسبة (طهور) دعت إليها ـ زوجة جلال ـ لفيف من نساء الحارة للابتهاج بمولودها الثاني، كنا في زاوية من بيت الدرج تصلها أضواء شحيحة من أعلى السقف، وفي مجادلة لأن تمكنني من إليتها فقدت فيها صبري، فلعنتها، وأنا أمسك بجديلتيها، وإليتها، وأشدها نحوي، فأحرنت خاضعة، وفي لحظات كان ضوء مصباح بيت الدرج يشع بنور غامر، ونحن ملتصقين، ومتخففين من ملابسنا، نهمهم همهمة جروين يتعلمان اللهاث، كان منظرنا فاضحاً ترقبه عيون بعض

النساء المدعوات اللاتي تواطأن على الصمت حتى إذ هممت بغرز مسماري تصايحن، وتكسرت أصواتهن على رأسي لأخرج من (بيت الدرج) بفضيحة مدوية مكنت جميع نساء الحارة من تعليق قرط تحذيراتهن في آذان بناتهن، وأبنائهن بعدم الاقتراب، أو اللعب معي، وخاصة الصبايا منهن.

سعاد كانت عاهرة صغيرة.

والصغيرات حين يتعلمن أن ابتسامتهن لها مقابل مادي يكن قد وضعن أقدامهن على طريق البغاء، ويعشن بقية أعمارهن عاهرات في شبابهن، وقوّادات مع غروب جمالهن، هذا الحكم أردت اختبار جوهره مع سعاد التي التقيت بها بعد ثلاثين عاماً على بوابة القصر، لأرد لها دين نصف الريال الذي في ذمتي.

سعاد طفلة قادتها أمها لأن تكون استراحة للصبية في عبثهم، مقابل أن تحصل على أي شيء تستطيع اقتناصه في لعبها معهم، تكورت سعاد في رحم امرأة سليطة اللسان، والأفعال من زواج إجباري تنصل منه الزوج بعد عقد القران مباشرة، وترك ثمرة ذلك الزواج لصبية الحارة يعبثون بها بقدر استطاعتهم على تلبية طلباتها، أمها يسرت لها هذه المهمة بإيمانها أن الأنثى خشبة صالحة لأي من المسامير المعوجة، أو المستقيمة، ولا يهم أن تكون الخشبة عريضة، أو رفيعة، طرية أو يابسة، طويلة أو صغيرة طالما صاحب المسمار يقدر ثمن انغراس مسماره في تلك الخشبة.

اشتهرت سعاد بلقب العروسة فبمجرد اجتماعها مع أي صبي من صبيان الحارة تقترح عليه ممارسة لعبة (عريس وعروسة)، ومع الموافقة تكون قد حظيت بثمن الغرس مقدماً.

في كل مرة ألتقي بها أتوق لاستكمال اللعبة إلاّ أن طارئاً يحدث فيحول بيني وبين الوصول إليها، ، ومع اقتراحها في أن نلوذ ببيت جلال مكبر، لم أكن أتوقع أن أكون ملهاة لعيون النساء المبثوثة على ذلك الوضع، ومع ارتفاع الصيحات المستنكرة ارتديت ملابسي الداخلية على عجل، وأخذت أعدو طويلاً، وكأن العيون تخلت عن محاجرها، وأخذت تلاحقني.

هذه الحادثة أحرقت شغف ثلاث نساء لمطاردتي أينما ذهبت.

فمع فضيحتي تلك، تناقلت النساء خبر مشاهدتهن لي، وبالغن في رواية الحادثة، والادعاء أني أحمل قدماً ثالثة، وأول من حاول التأكد من هذه الحقيقة كانت أم سعاد نفسها التي حاولت أن تغريني مراراً بأن آتيها حينما ينام كل من في البيت، ولحقت بها منى زوجة عثمان المحنيب، وإيمان ابنة جميل حناس، وكل منهن تبحث عن حيلة للانفراد بي لرؤية ما تحدث عنه نساء الحي اللاتي هتكن لعبتي مع سعاد مخبر.

وصلت في الغي إلى مداه.

كنت صغيراً أطعن الهواء، فاترك جرحاً هنا، وجرحاً هناك، وحين اجتمعنا ثلاثتنا (عيسى وأسامة وأنا)، كانت الأيام تمضي بنا سريعاً لندخل بوابة الشباب أكثر قسوة، وأقل تريثاً.

** **

حتى أولئك الذين يسرفون في تبذير فحولتهم من وقت مبكر، يشتاقون الدخول في ردهات عشق دافئ، أو يطيب لهم استرجاع لحظات حميمة لم يعترها الدنس، ليتطهروا بتلك اللحظات من رجس الآثام التي اقترفوها.

عرفت تهاني مبكراً، فتاة رق قلبها حتى العطب، وهي فتاة لم تكن سيرتي الحاسرة تبعدها عني، منذ الطفولة الأولى اصطفتني. لم يكن أحد من الصبية يرغب باللعب معي كنت أجدها تجذبني إليها، تتمحك لخلق الأسباب لنكون قريبين (وكأنها هي أيضاً كانت تصنع قدرها).

كنا نتزامل في أول طريق المدرسة حيث يجمعنا ـ في ممشانا ـ شارع طويل بانحناءات كثيرة يتفرع في النهاية إلى شارعين تسلك أحدهما لتذهب إلى مدرستها المتوسطة، وأسلك الآخر مواصلاً السير لركوب حافلة توصلني لثانوية قريش.

كانت من ضمن فتيات عديدات يتلفعن عبيهن، ويسرن متفرقات، ومجتمعات للوصول إلى مدارسهن، تتقافز خلف ممشاهن عيون الشباب، وغزلهم المفضوح، شباباً، وصبايا كنا ننتظر الصباح لتوزيع كلمات الحب فيما بيننا قبل بدء اليوم الدراسي، خليط من الكلمات، والنظرات المرسلة هنا وهناك، يستفيق عليها حيّنا قبل أن يودع كل منا جسده لبوابة مدرسته.

تهاني كانت تتعمد السير وحيدة، وبالقرب من ممشاي.

من هناك تفتح القلب معلناً عن تباشير أغانٍ جديدة، كانت كل يوم تتقارب خطواتنا حتى تشابكت أيادينا (في ذهابنا الصباحي)، وبقية النهار تتعلق عيوننا في جهة واحدة حيث أرسل نظراتي لها، وهي معلقة في نافذتها ترقب تلويحة، أو ضحكة القيها عليها.

غدوت محاصراً بنظراتها، ونظرات عمتي، فأهرب للأزقة التي لا أجد فيهما عيناً تتربص بي من خلف الشيش، مشكلتي أن سيرتي انحرقت تماماً فمع افتضاح كل منافحة يسود اسمي بين نساء ورجالات

الحارة، وعجزت تهاني عن تبييض سمعتي في محيطها، فصارحتني برغبتها أن أكف عن شيطنتي التي تبعد الناس عني، وحذرتني من السير برفقة ابن خالتها أسامة وعيسى الرديني.

استجبت لدعوتها، وكففت عن ملاحقة الصبية، أو السير بصحبة رفيقي، وعزمت على محو ما تركته من آثار.

لم يصدق المصلون عيونهم، وهم يروني أقف في الصف الأول دامع العين خاشعاً في ركوعي، وسجودي، وكان أخي إبراهيم أكثر فرحاً بدخولي للمسجد فشرع في تزويدي بالكتب، وحثّي على حضور حلقات التحفيظ.

ـ الماء يغذي النباتات، ولا يصنع طعمها.

أنا وإبراهيم من نبع ماء واحد، سكبنا أبانا في رحمين مختلفتين، فأتى كل منا على طينة مغايرة للأخرى، وتوازينا في الحياة، فمنذ نعومة أظافر إبراهيم، وقلبه معلق بالمسجد لا يكاد يغادره، مواظبته على الصلاة، وحفظ القرآن أبقياه الأثير بالصحبة، والمقدم في عين أبي، هذا الفرق الحاد في سلوكنا كان واضحاً، ومضرباً للمثل فسليمان أبو سكين دائماً يضرب بنا المثل للاختلاف:

ـ من نفس الماء خرج طارق وإبراهيم، واحد مسلكه للفجور، والآخر للخير.

جذبني إبراهيم لحضور دروس تلقى في المسجد، فاستجبت، كنت راغباً في التطهر، والاقتراب من الله، ومع استدارة حلقة الشيخ مفوز المجدي تفحص وجهي مستنكراً، واستفتح درسه بلعن اللوطيين في كل الديانات، والملل، والنحل، ومع كل جملة يتلفظ بها يتفرس وجهي ضاغطاً على كلماته الخارجة من فكين متباعدين:

ـ من فر من المعصية ندم على ما مر من أيامه، وأظن أن بعضكم نادم أشد الندم على اقترافه كبيرة تغضب الرحمن. .

وأطال النظر في وجهي مردداً:

ـ هناك فوارق بين الكبائر إلاّ أن ما يقترفه بعضكم يهزّ عرش الرحمن، وأجزم أن ذيل الكلب لا يستقيم أبداً حتى وإن دخل المسجد، وجلس معنا!

وانفرط في عامية مبتذلة ذاكراً قصصاً شاعت في الحي، والتصقت بثلاثتنا من غير ذكر أسمائنا.

فجاجته جعلتني في موقع المتهكم من كل مقولاته، ومع مقاطعتي المستمرة لمحاضرته نهرني، وطردني من حلقته.

الأثر الأول لا يمَّحى، ولا يزول من ذهنية الناس، فالتخلص من الدنس لا يطهر المرء، يبقى صاحبه دنساً في مخيلتهم مهما سما، تنقلت بين حلقات عديدة، وسمعت محدثين كثر يقفون طويلاً عند المعصية، ويجترونها كعلف وحيد هضموه، ولم يستعيضوا بسواه، يطحنون معصية أحدنا كما تطحن حبة الهيل حيث تبقى قشورها مستعصية على الطحن. رغب إبراهيم في ترسيخ هدايتي فكان يصطحبني لمحاضرات دينية تقام في مساجد مختلفة، في إحداها استفتح الشيخ خليل القادري موعظته بعد صلاة العصر عن سيرة الإمام سفيان الثوري، فذكر نقيصته التي قادته لطريق الهداية، وأطال في خطيئته كما لم يطل في أثره، وسمعت أحاديث، ومواعظ لأئمة، ودعاة كلما أرادوا التدليل على فلاح امرئ اجتاز معصيته بالاستقامة، ذكروا عيوبه قبل أن يستقيم في نظرهم، فالإنسان لا ينسى الإشارة إلى خطأ أي أحد حتى ولو كان نبياً، وفي

حلقة ميتة جلس الإمام عبدالله السعدي يحصي أخطاء وزلات الأنبياء، وربما وجد في هذا التتبع مادة خصبة للثرثرة، فوزع الحديث عن تلك الأخطاء، والمعاصي على جلسات متعددة يلقيها بعد صلاة العصر، وصلت معه لمعصية سيدنا يونس عليه السلام، شعرت بالضيق من أسلوبه، وغبائه المقترنين بالصراخ، فنهضت قبل أن يكمل ثغاءه، متيقناً أني لن أبتعد عن نقيصتي التي عرفوني بها حتى لو انفلق النور من وجهي!!

لم يطل مكوثي داخل المسجد، هي شهور وعدت لسيرتي الأولى.

كانت العودة من خلال مغامرة ليلية دعيت إليها من قبل منى زوجة عثمان المحينب حين غادرها زوجها في مأمورية مع مندوبية الصحة لتفقد قرى الساحل، وإعطاء أهلها أمصالاً للوقاية من مرض الحمى الشوكية.

كنت أشمر أكمام ثوبي متجهاً للمسجد، فبزغت من باب بيتها ناثرة صدرها أمامي وراجية مني إصلاح عطب أصاب (فيوز) مصباح غرفتها، هذا المصباح ظل معطوباً حتى مع عودة زوجها، أقوم في أحيان كثيرة بالتسلل إلى مخدعها لإصلاح ذلك العطب.

لقد علمتني منى كيف أغدو جسوراً، وأقطف ثمارها، وجميع أسرتها حولها. هذه الجسارة كانت كارثة على تهاني.

كنت معطوباً، ولا أمل من إصلاحي، هكذا كانت تنبوءات العمة خيرية دائماً، ولم يخب الواقع جزمها، ففي كل جهة أسلكها أحدث أمراً مشيناً بإرادتي، أو من دونها.

مع مواظبتي على الصلاة، وحضور حلقات الدرس كانت العمة خيرية تحمحم كلما رأتني أتهيأ للصلاة:

ـ لا أظن أن مكوثك في المسجد سيطول، فطالعك مقترن بالخبائث.

لم يندم على مغادرتي للمسجد سوى إبراهيم وتهاني.

ولم يزرني الندم لهذه المغادرة إلاّ متأخراً جداً (حين خارت كل قواي وأنا خلف إبراهيم أتهاوى، وأتدحرج كصخرة سقطت من علٍ)، عملي داخل القصر ليس بحاجة لتأنيب الضمير، فمن مهام العمل هنا التخلص من أي تأنيب فما تفعله (بغض النظر عن نوع العمل) فالمكوث هنا يعد استثماراً يدر الأرباح متى ما تخلصت من القيم السائدة خارج هذه الجدران العالية، لذلك أوغلت في كل المتع بيقين أن قدري السير في اتجاه النار، أحياناً ينفرج هذا القنوط حينما أتذكر حواري مع إبراهيم حين سألني:

ـ ماذا يفعل من يسقط على الأرض؟ هل يبقى ملتصقاً على الأرض أم ينهض؟

كنت أصغي لحديثه صامتاً من غير أن يحفزني سؤاله للرد، فيكمل:

ـ عليه أن ينهض لينفض التراب الذي علق به، ويواصل ركضه، الحياة هكذا سقوط، ونهوض، تنظيف، ومواصلة.

ـ . . . .

ـ تذكر دائماً أن الله يحب عودة المذنبين إليه يقول جلّ وعلا: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾.

واحد وثلاثون عاماً لم أصل المسجد الحرام، أصل إلى مكة في مهام عمل مختلفة، أتجاوز بوابات الحرم في غدوي، وإيابي أتأمل

المعتمرين، وهم يتخللون بين السيارات في ممشاهم صوب أبواب المسجد الحرام بوجوه طليقة، وأدعية خفيضة، وفرح بكر، وألمح منارات الحرم عالية تصدح بالأذان فتجلي صدأ النفوس من قلوب العباد، فيستجيبون كحمام البيت المحلق في أمان، وسكينة فلا تتحرك الرغبة في داخلي لأن أميط عن أعماقي ظلمة رانت عليها من أمد بعيد.

كم هي المرات التي قررت فيها العودة إلى المسجد، وكم هي المرات التي أقلعت عن الفكرة.

*** *

مقذوفاً بين الأتربة، والفراغ، يبدأ يومي في الساعة العاشرة مساء. أتجول بين الأزقة الضيقة لاعباً لعبة (البلوت)، أو متلصِّصاً على بنات الجيران (وهذا الفعل كان يغضب تهاني كثيراً حيث تتبرع أي فتاة تعرف سر علاقتنا بإيصال تحركاتي إليها)، أو مجالساً المخمورين وأُنصت لويلاتهم وهذيانهم، أو المراهنة على الوصول لظهر أي صبي تحوم حوله الرغبات.

لؤي هو الخسارة الوحيدة التي خسرتها في مراهناتي الكثيرة، وهو أيضاً الشبهة الوحيدة التي كادت تدخلني للسجن حين تقدم هاني كردي (أبو لؤي) لمركز الشرطة متهماً إياي بالتحرش بابنه، ولولا بلادة الضابط الذي تلقى التبليغ لربما تغير مجرى حياتي، وعندما لم تتفاعل شكوته غادر حيّنا قبل أن نصل إلى ابنه، حينها علمت أن أبناء المرفهين يجلبون المشاق التي لا نتحملها نحن صيادي المتع الرخيصة، والمهملة.

بعد أن أطوف بجنبات الحارة أستقر بجوار دكان العم عبدالله اليام، هناك مصباح وحيد ينير زقاقاً ضيقاً موحشاً، يتهيب دخوله من لا يعرف

منحنيات الحي، وقبل أن يغادر الليل ظلمته، يتصبب مصطفى القناص من أوله بخطواته الثقال، وتلعثم كلماته لمجاورتي، وهو يردد:

غايب الواد، الواد غايب

سالت عليه القرايب

قالوا أمه داساه في حجرها

خايفه عليه من الغرايب

والله لكسر صدرها

واضمه ضمة الحبايب.

مراراً دعاني لمقاسمته خمرته الرديئة، فأتظاهر بارتشافها، كان قد سبقنا في العمر، وبلغ الخامسة والعشرين، يحلم ببيت وزوجة، إلاّ أن رقة حاله، وسيرته الشائهة تقفان ضده أمام كل بيت يطرقه. فتفرغ لمتابعة الغلمان، وسكب عواطفه بالتغزل فيهم.

رحيل لؤي كردي سبب له صدمة عاطفية، جعلته يجمع شوقه في كسرات ينشدها في المحافل، وفي أحيان يدندن بها على (سمسمية) قام بصناعتها بقيت أسلاكها متراخية بالرغم من شدها أكثر من مرة.

حمّلني جريرة حزنه بالتسبب في رحيل لؤي كردي، ولم يشأ أن يزيد على ذلك، وفي نشوة سكرته يضرب رأسه بكلتا يديه، وينتحب، وما أن يبدأ نشيجه حتى أغادره على الفور فثمة وصية حملني إياها قبل أن يصل إلى هذه اللحظة:

- إذا وجدتك بجواري، وأنا ابكي سأقتلك!

نهرني أبي كثيراً من مجالسة المخمورين، خرج في ليال كثر يبحث عني، كان يجذبني من شعري، ويقودني خلفه من غير أن يتكلم، قبضته

الحاسمة تشعرني بما يعترك في داخله، يسير بي بين الأزقة كخروف تحدالشفار لإراقة دمه، في كل مرة أجزم انه سيذبحني وما أن يصل إلى البيت حتى يرميني أسفل قامة عمتي مغمغماً:

ـ اربطيه بجوارك حتى أفيق له.

ويعود لمرقده لاستكمال مواته الذي نهض منه عنوة، ويغادر قبل أن يبر بتهديده.

** **

تغيرت خارطة بيتنا، حدث تناقص مفاجئ وسريع، وشح منزلنا من كل الوجوه عدا وجه عمتي خيرية بقي جامداً صلداً يتطاير كيره من بين أنفاسها.

تكرهني كما لو كنت عفناً علق في إناء شربها واستعصي على الإزالة. تؤمن بأني بيضة فاسدة، وتتنبأ دائماً بجملة توزعها في كل حين:

ـ ستنتهي بك الحياة مقذوفاً بين الحفر النتنة.

تجابهني بشتائمها حين ينفد صبرها من تقويمي كما يجب (هي تدعي أنه تقويم)، متمنية لو أن نسل أخيها توقف تشجره قبل أن أصل.

في أحيان كثيرة (وقبل اختيار جدتي سنية لسهامها) تجهد مخيلتها في تذكر أي عرق فاسد انضم لسلالتها. هي تنفي أن أكون بذرة جاءت من أصلاب رجال سلالتها غامزة أمي في المقام الأول، وتواري لمزها بتدوير الحكايات حتى توقفها عند جدتي لأمي (سنية)، مشككة في

طهارتها، ومستلهمة قصة غامضة تحاك سراً بين نساء العائلة، وفي كل مناجاة تكتسب تلك الحكاية حدثاً جديداً، وصل إلي في طبعته الأخيرة: إن رحم الجدة سنية لم يكن نظيفاً حيث استقبل ماء نجساً ألصقت بذرته بعائلتها من خلال اقتران أبي بأمي.

وليس لدى العمة خيرية دليلاً سوى حكايات تناسلت بين أفراد العائلة من أن سنية أدخلت لمخدعها عشيقها في غياب زوجها المسافر، وعندما جاء كان بطنها يحوك مؤامرة لتدنيس هذا العرق الصافي من الشوائب.

لهذا انقسمت عائلتنا إلى شقين متنافرين، ومتباعدين، الشق صافي السلالة، والذي امتهن التجارة، وشقنا الملوث بما سفحه رحم سنية أو التصق به ظل متطفلاً يمتهن المهن الساقطة.

ولم تستطع العمة خيرية أن تكظم غيظها خلال السنوات الطويلة التي بقيت فيه منشقة عن سلالتها العريقة في مجاورة لأخيها الوحيد الذي تمرد على أعراف أسرته، واقترن بأمي التي أغوته في لعبة حب معد لها سلفاً كما تقول العمة خيرية.

تصف فعلته بالغلطة التاريخية التي لن تغفرها له لأمرين: كونه أبعدها عن عائلتها الباحثة دوماً عن نقاء السلالة، وطيشه الذي عفّر سيرة أجداده بهذا الوخم الذي يدعى أمي (والتي تجزم أنها نسخة من سنية لن تتوانى من إدخال مياه كل الرجال إلى رحمها).

وحين بقيت الوحيدة في البيت أيقنت أني البذرة الفاسدة التي ألصقت بأخيها، وكان اقتران أمي بابن خالتها جمال المهندس بعد وفاة أبي تأكيداً لهواجسها القديمة.

ومع بعثرة حكاية الماضي علمت أن أمي، وقفت أمام زواجها مرتين دافعة بها إلى العونسة الجبرية، فالخاطب الأول كان أخوها (خالي سعد) فصرفته عنها بوصف نتن إبطيها، وأبخرة فمها، والخاطب الثاني كان عابر سبيل يبحث عن امرأة يسكن إليها فغالت لأبي في القدح، كيف له أن يلقي بأخته لعابر سبيل.

فبقيت هكذا حفرة لتجميع القيض والكراهية لكل ما له علاقة بأمي.

** **

يعد أبي من أمهر البنائين في مدينة جدة بالرغم من استخدامه القياسات البدائية التي قلما يخطئ في احتساب الأبعاد، ويصر على صحة حساباته إصراراً مبالغاً فيه، ناهراً معاونيه عن معارضته لو أن أحدهم شذ عما قرره أثناء التخطيط، امتلك سراً غامضاً في مقدرته على تشييد البيوت من غير انحرافات تذكر، وبرع في إقامة تصاميم هندسية لم تكن معروفة في مدينة جدة أيام شبابه، كان يأخذه من الحجاج، والمعتمرين، ففي أيام الحج يتفرغ لمتابعة الحجيج، والسؤال عن مهنة من يتحدث إليه، فإذا وجده بناء جالسه لرسم (كروكي) للعمران في بلاد محدثه، فنبغ، وطار اسمه كأمهر البنائين. رغب أن أخلفه في مهنته، فهربت منه بحجة الدراسة، وعندما وجدني هائماً في الأزقة لم يكترث كثيراً بتلقيني ما يجب علي فعله، فانشغاله بالإنفاق على ثلاث زوجات ثابتات (غير الزوجات اللاتي جلس بين أحواضهن قليلاً، ومضى) جعل مهمته الأساسية توفير أرزاق لمطاحن الأفواه التي أوجدها على هذه الأرض، أو اقترن بها.

في اليوم المحدد لمبيته في مخدع أمي يصل مع الغروب، وبينما هو

يتناول عشاءه يداهمه النوم فلا يقدر على الانتقال أبعد من مائدة طعامه، ولا يقبل أن يحرك من مكانه خشية أن لا يعاوده النوم بنفس القسوة، والجبروت، فيظل في المكان الذي يداهمه النوم فيه، هذه المداهمة ترغم أمي على المبيت معه أينما نام، ولكي لا تجد نفسها تجاوره في أماكن متفرقة من البيت، وهي في حالة تكشف، حرصت على استقباله في مخدعها بمجرد وصوله، وكان هذا الحرص محل انتقاد عمتي الدائم، واتهامها لأمي بتغييب أخيها عنها، واحتكاره روحاً وجسداً.

عندما كبرت شعرت بأنه لا يطيق المكوث معنا بسبب صرير عمتي، وشكواها الدائمة من انفلاتي، ورخاوة أمي معي، وتذكيرها إياه بما يجب أن يفعله مع أقاربه، أو مطالبته له بزيادة النفقة عليها، أو جذبه في ثرثرة طويلة عما كان يجب أن يفعله لزيادة دخله، أو حثّه على تسيير مصالحها المعطلة بسبب عدم اهتمامه بها، كل هذا النعيق (كان يفتعل فيه نومه العجل على ما أظن)، ويتخلص منا مع أذان الفجر، ليصل إلى عمله كما ينبغي لمعلم عليه الإشراف على كل صغيرة، وكبيرة.

ومع نهوض العمران الحديث تراجع موقعه من معلم إلى مشرف مبانٍ، وفي غياب المهندس المشرف يتجاسر في تغيير المخطط، ومع جسارته يخسر قدراً كبيراً من موقعه بين العمال حين يأتي المهندس المشرف، ويأمر بإزالة ما استحدثه أبي محملاً إياه فروقات الهد، والبناء من جديد.

هذا الدور الثانوي قلل من همّته، وشيد في داخله حسرة خالطها إذعان مرغم في تلبية إرشادات المهندسين.

في إحدى الظهاري اكتشف خطأ في أحد الأعمدة الممتدة لربط

(كمرة) الدعائم بسقف السطح، ولكي يتأكد من الخطأ قبل أن يحاج المهندس المشرف خشية من تسفيه اكتشافه، أراد أن يتوثق، فمد قدمه في الفراغ قبل أن ينقلها على السطح، فلم يسعفه ثقله في البقاء متوازنا، ومع اختلاله كان جسده ملوثاً بدمه أسفل السقالة، ولم يعد مضطراً لسماع صوت عمتي، أو تلقي تبعات جسارته في مناكفة المهندسين، أو إجهاد نفسه بصعود السقالات العالية. كان محتاجاً ـ فقط ـ لمن يدس جثمانه في تربة تكون رحيمة به لذلك قررت رئتاه أن تنفجر داخلياً لتنزع عنه الأجهزة الطبية التي أخرت دفنه شهراً كاملاً.

لم أحبه، أو أكرهه. كان ضيفاً خفيفاً، يأتي لينام، ويغادر في الصباح من غير أن يحدث جلبة.

ومع حصر الوراثة كان قد خرج من الدنيا بابنين (أنا، وإبراهيم)، وبنت (وليدة لم يمض على ولادتها سوى أسبوع من زوجته الأخيرة لم أرها)، هؤلاء الورثة لم يجدوا شيئاً يذكرهم بأبيهم، فقد ادعت العمة خيرية ملكيتها للبيت الذي نقطنه، ولم نجد ـ نحن الاخوة ـ شيئاً نجتمع عليه.

وعاش كل منا بعيداً عن الآخر، وبقيت أنا، وعمتي خيرية ملتصقين في بيت واحد، نتبادل التربص ببعضنا.

** **

كنت قد سقطت قبل أبي، وأمي، فسقوط أبي أودعه التراب، وسقوط أمي أودعها العزلة، وسقوطي أودعني الضياع.

تغيرت خارطة بيتنا، حدث تناقص مفاجئ، وسريع، وشحّ بيتنا من كل الوجوه (أمي، وأبي، والزائرين) إلاّ وجهها.

قبل أن يسقط أبي غدا مجيئه لبيتنا أداء لواجب أخلاقي، وديني متحريًا من هذا المجيء العدل بين زوجاته، إذ لم يعد محتاجاً لأن يسمع صوت أمي، فمع قدومه يذرف الكلمات على مسامعها، لترد عليها باهتزازات من رأسها بالموافقة، أو النفي، وربما تجمعت دموعها في محاجرها، وسكبتها بعيداً عن عينيه.

الوحيدة الذي ظل صوتها ينخر فضاء بيتنا كان صوت عمتي، تستقبل أبي دائماً فائرة المزاج:

ـ تركت هذه الدابة لمن يا فاضل؟

فيختلط عليه الأمر، وينوي الاستفهام عن أي دابة تقصد: أنا، أو أمي!

ويرجح أنها تقصد أمي، فيحاول خفض صوته:

ـ ألم يكفك ما فعلت بها؟

فتفور برمدها المقذي:

ـ ماذا فعلت بها، هي التي سقطت.

حل الصيف، ومعه الرطوبة الدبقة، وتقافز أهل الحي لأسطح المنازل لإصلاح (أرايل) التلفاز، لاستقبال البث المصري، وتفنن البعض بتعليق الصحون، والقدور الكبيرة، وربطها بأسلاك (الانتيا) لاستقبال صورة أكثر وضوحا للبرامج المصرية، كانت أخبار رقصات شيريهان تملأ مسامع النسوة، فتسابقن لنقل كل ما يبثه التلفاز المصري من ترفيه في مجالسهن كافتخار لوصول البث المصري لتلفزيوناتهن، ولم تشأ عمتي أن تكون بعيدة عما تسمعه (وكذلك أمي)، فاقترعتا أيهما يصعد لإصلاح (الانتينا) بعد امتناعي عن تأدية هذا الدور بحجة

الانشغال بالاغتسال، والتهيؤ لحضور حفلة طرب (شكشكة) وأبديت عدم استعدادي في تضييع الوقت من أجل هذا الأمر، حضرت اقتراعهما فيما كنت متجرداً، وسالكاً طريقي للدخول إلى الحمام، وكان على عمتي أن تصعد للسطح من خلال سلم عال ارتكز على جدارنا الداخلي، لكنها تمنعت بحجة أن الاقتراع ثلاثاً، وفي الثالثة جاء الدور على أمي، وكان الشرط بينهما أن تصعد من تأتي عليها القرعة، وتمسك الأخرى بالسلم.

كنت أسمع صوتيهما المتعاليين، وأنا اغتسل:

ـ هل ظهرت الصورة؟

ـ (لا، حركي يساراً، لا لا انتظري، حركي يميناً)

ـ هه

ـ (ايوه. . ايوه ثبتي الاريل. . خلاص).

خرجت من الحمام، وأمي تحاول الإمساك بالطرف الأعلى من السلم، وتتهيأ للنزول من على السطح، وعندما ثبتت يديها بطرفي السلم، رأيت عمتي تجذبها جذباً لتتعلق في الهواء، وترتطم على الأرض، وقطعة من لسانها تبتعد عن فمها ليلحق بها دم شاخب.

** **

احتفظت أمي بالقطعة المبتورة من لسانها في الفريزر على أمل استعادتها.

كنت أشاهدها (وفي غفلة منها)، وهي تقرب المرآة من فمها، وتخرج لسانها المبتور تضعه بين سبابتها وإبهامها، وتحاول إيصاله

بلسانها، تركبه تركيباً، وأول ما تتخلى سبابتها، وإبهامها عنه يسقط داخل فمها، أو على الأرض، تحمله كطفل رضيع، وتسرع بغسله بالماء، وهي تجهش بالبكاء، مرات عديدة قفزت للثلاجة، وعادت بالقطعة المبتورة تتأملها، وتحاول وصلها بلسانها، وفي كل مرة تسقط القطعة المبتورة في فمها، أو على الأرض، حركة معادة لم تمل من القيام بها، وفي إحدى المرات لم تجد لسانها المبتور التي تحتفظ به في مكانه، فأخذت تبكي بحرقة، وهي تقلب محتويات (الفريزر) بحثاً عنه، احتاجت أن تفرغ (الفريزر) من كل محتوياته علها تجد قطعتها المبتورة أسفل ما تخزنه هناك.

حاولت عبثاً أن ألحق بالقط الذي التهم تلك القطعة المبتورة، ادعت عمتي أنها تنظف الثلاجة، وامتدت يدها لترمي بلسان أمي المبتور لقمة سائغة لقط جاع دخل بيتنا في مراهنة على أكل ما يجده حتى ولو كان طوباً.

رأيتها تمد يدها لداخل الثلاجة، وتلقي بشيء نحو ذلك القط، تنبهت له، وهو يقلب بمخالبه القطعة المتجمدة، ويلعقها، كنت متحجراً بين لعقه لقطعة قذفت إليه، وبين زيغ نظرات عمتي، تصنعت أنها تبعده عن اللقمة التي استقرت بين مخالبه، زجرها المتراخي لذلك القط كان تحريضاً على التقاط ما قدمته له والهرب، كان تحريضاً صريحاً حينما اقتربت منه على مهل متظاهرة بمحاولة أخذها منه قبل أن تنشب بين أظافره، ف(بسبست) عليه، ليفهم أنها اللحظة الأخيرة للهرب بصيده، وعلى عجل قضمها، وقفز بها خارج البيت.

ركضت خلفه بين الأزقة الملتوية، كان يمضغ لقمته، وهو يركض، قتلته بعد يومين قبل أن ينطق بعذابات أمي!

في الليالي التي يكون أبي عند إحدى زوجاته تنفرد أمي بنفسها جانباً، وتبدأ في تدريب لسانها على إخراج الكلمات السليمة، فتخرج كل الكلمات كسيحة لا تبين معنى، وتظل تعالج بكمها في محاولات مستمية لنطق اسم أبي، وكلما عجزت تناشجت نشيجاً محموماً ودفنت رأسها في وسادتها.

اعتزلت الخروج، ولم تعد تقوم بزيارة الجارات، واكتفت بالعمل داخل البيت، والانشغال بالتنظيف، والطهو، والغزل، ولا تخرج لاستقبال أحد من القادمات لبيتنا، فتجد العمة خيرية الفرصة سانحة لوصمها بكل النعوت التحقيريةِ على مسامع الزائرات من كونها امرأة معطوبة، لا تخرج من غرفتها بتاتاً، ولا تعمل شيئاً سوى الاستلقاء على سريرها، وتأتأة الكلمات الغريبة.

في الليل تنفرد عمتي بمشاهدة التلفاز المصري بنشوة غامرة، وهي تردد المفردات باللهجة المصرية، وتضحك على لكنتها المصرية.

منذ تلك الليلة سلبت بكارتها، وسلب حياتي.

ليلة غائرة في الذاكرة جاءت متدفقة بشيطنتها، كل شيء كان هادئاً إلاّ حيوان صغير مل حياة العتمة، فألهب الكون بحمحمته كي يخرج للنور.

فسلبت حياتها ليقتص مني، ويسلب حياتي.

تقف كعادتها خلف النافذة المواربة، والمطفأة الأنوار تنتظر مروري، وفي كل ليلة نتبادل النظرات، والكلمات الهامسة، عندما ينام أهلها جميعاً تتجاسر، وتفتح الباب لأظل ملتصقاً بها طوال مكوثي معها.

ومع أي صوت، أو خطوة تنبه ذلك البيت النائم أفر من الباب على عجل بينما تتصنع قذف القمائم لخارج البيت.

كل شاب ـ في حيّنا ـ يخبئ نجمة في نافذة ما، ويوقد ضوأها بلوعة العمر الغض حتى إذ تيبس العمر غدت كل نجمة جمرة منطفئة تبث ذكريات توهجها دخاناً ورماداً، تومض في مستقبلك بالرغم من دمارها القديم. هذه هي النجوم!!

كيف تكون مسلوباً، وسالباً في لحظة زمنية واحدة؟ وهذه هي الحياة ـ أيضاً ـ فحين تحدث فعلاً من الأفعال، فأنت تحرك الزمن، وإقلاعك عن إتيان الفعل، توصد الباب على متواليات من الأحداث.

يكفي فعل واحد لأن تغلف بشرنقة عصية من الأقدار التي تسلمك

لبعضها بعضاً، هنا يكمن سر، وعظمة الوحدة في أن تكون بعيداً عن الفعل.

داخل القصر يجتمع خليط من الأعيان، والأثرياء، لهم مرضهم الخاص، يرتدون ملابس ناصعة البياض، وصدوراً معكرة بما يموج في داخلها من شره مضاعف، ألسنتهم تحيك اللوم لأي شيء يعكر صفو سهراتهم المتتابعة، أمزجتهم شفافة، متقلبة، يقترفون كل شيء، ويملون من كل شيء، ملوا البذخ، والمتع، وأخيراً ملوا من أنفسهم، لا تعرف تحديداً ما الذي يبهجهم، وماذا يريدون تحقيقه تحديداً، وما الذي يتآكل في داخلهم، وأي الطرق يريدون السير بها، متذبذبون، مهتزون كأصوات رخيمة خرجت من الحناجر من غير معنى.

بعضهم أصيب بداء التخنث كوسيلة جالبة للمتعة، هؤلاء عاقبتهم على طريقة سيد القصر، التلذذ بتعذيبهم، وبدلاً من أن أوغر صدورهم حقداً عليّ، إذ بهم يدنوني منهم حتى لا أستطيع مغادرة رائحتهم، وهذه النوعية بردت همتها، ولم تشأ أن تغادرها اللذة، وإن كانت معكوسة.

في السنوات الأولى من خدمتي داخل القصر كنت أشبه بالتيس الذي يربط بجوار صندقة مليئة بالتيوس، ومهمته الأساسية تلقيح أي تيس يخرج من تلك الصندقة!! نعم تخصصت في تلقيح التيوس، وليس النعاج كما كان يفعل فحل عمتي!

تذكرت فحل عمتي التي كانت تؤجره لمنافحة نعاج الجيران، وتعده مدراً للمال، وعملي في القصر يقتضي أن أكون فحلا متى ما طلب مني أن أكون كذلك.

مهام كثيرة، وقذرة أنجزتها على ظهور هؤلاء السادة، هؤلاء الذين

يقفون متوهجي السير والوجوه خارج القصر، كانوا في لحظة ما يتوسلون لأن أكف عن حمحمتي فوق ظهورهم، ومن استوطنه الداء يطاردني كي أعالج مرضه الفاضح!

الدكتور خالد بنان يستخف بالمشاعر الأولى، وينعتها بلحظة اكتشاف العالم، اكتشاف الرغبة حين يغلفها الشعور بالمرأة في حياتنا على هيئة حب:

ـ الجمرة المتوهجة لا أحد يتنبه أن أسفلها معتم، والحياة هكذا يومها متوهج، وأمسها معتم، الماضي هو الظلام الوحيد الذي نسير فيه من غير ترفق، أو حذر.

هي جملة منتقاة من أحاديث طويلة، ضخها بإسراف حينما لم يعد أمامه من شيء سوى تصريف الأحكام على من يجالسهم حينما يمل منه السيد، ويتركه كالكلب المتحفز باسطاً ذراعيه، وهو يلهث قبل أن ينهض، ليلهث مرة أخرى عند تنفيذ ما يطلب منه. داخل القصر، كلنا كلاب باسطة الأذرع لا نتنبه أن لهاثنا لا يتوقف!

وكل كلب له مهمة محددة، ينجزها، ويعود لبسط ذراعيه، وعيناه لا تغفل عن سيده، منتظراً إشارة أخرى ليؤدي ما يأمره به.

الدكتور خالد بنان هو المفتاح الذي فتح أبواب الجامعة لمعارف السيد، ويعرف التوصيلات المحركة لبقية أساتذة الجامعة، وقد استخدمه عيسى الرديني كثيراً حينما احتاج لتجاوز أسوار الجامعة من غير أن يصلها.

رافقني أسامة داخل القصر (وتخصص عيسى في متابعة شؤون عائلة السيد منذ أن وطأت قدماه داخل القصر)، تجمعنا حياة كاملة، وعداء يفيض حيناً، وينضب حيناً. تشارك معي في تأديب خصوم السيد، ومن

ثم انتقل لأداء خدمات أخرى، وبقي ما بيننا قائماً، لا ينمو، ولا يضمحل، وكلما افترقنا، تجاذبنا، وعدنا للنقطة الأولى، عدنا نجتمع في قلب تهاني، يبدو أنه مل الحياة داخل القصر، ففي إحدى الليالي الصاخبة مال إلي هامساً:

ـ من يعيدنا للفطرة الأولى؟

نحن نتلوث كلما أوغلنا في الحياة، في كل خطوة نقطعها تتمرغ أرواحنا بدناسة الأرض، هذه الأرض المعجونة بوحل الرغبات لا تسلمنا لنهاية الطريق إلاّ كومة زبالة نتنة!

تسكننا أرواح من حولنا، فنكون لها وحلاً، أو تربة، وتهاني بذرة فلقت، غرس نصفها في داخلي فسقيتها بماء الخطيئة، فغدت هي الروح، وأنا الساكن لأتمرغ بأوحالها. وغرس نصفها الثاني في روح أسامه، فذوت لتظهر سموم أعماقه.

كنت أمنح أسامة أذني، وعيناي معلقتان لأي إشارة، أو إيماءة يمكن لها أن تصدر من سيدنا. همسة أشبه بلذعة يصوبها لروحي في كل حين:

ـ ألم يعتريك الملل من كل هذه الدناسة؟

** **

كانت ليلة موحلة.

في تلك الليلة (البعيدة القريبة) غرق الحي في ظلمته كاملاً، واتسعت دوائره لتلتهم كل شيء، كان الحي قد ودّع سميرة، وجلسوا رجالاته لتقديم العزاء لأسرتها، وكنت أقف داخل حجرة تهاني، وفي ركن منزو التصقت بها، ففاضت عذوبتها، وهي تدفعني عن الإيغال في

مفاتنها، فأدس وجهي بين نحرها، وترائبها، أوقد شرارة الشهوة في جسدين توتر أحدهما، وتراخى الآخر، احتكاك خفيض، وسوط اللذة يلهب ظهر جوادين، فيلفح اللهب ماء تجمد، تسيل البراكين من نهديها، تتقوض مقاومتها رويداً رويداً، وتهدمت فجأة، فتحت حدود أرضها للمطر، والبروق الخاطفة، وعندما أطلقت استغاثتها كان السيل قد أغرق وديانها العميقة.

كنت محتاجاً لمن يجمع أنقاضي، يحملني لأقرب نفاية، ويقذفني لداخلها من غير عناية تذكر، في تلك الليلة كان عيسى الدريني حاضراً حيث حرص على قذفي داخل برميل من النفايات الضخمة حتى لم أعد أعرف أي رائحة كريهة أحملها من كل تلك الروائح التي جاورتها.

مساحات الظل، والضوء هي اللعبة التي تجيدها الحياة بإتقان، لكل شيء وجهان، يعتركان، ولا يمتزجان، تقلبهما الحياة بنسب، وتصبح مواقعنا هي قواعد اللعبة، أيهما يبرز، وأيهما يختفي، والمحظوظ من يأتي على الحرف الجامع لوجهي الحياة!

لا أحد يعلم علم اليقين على أي وجه سيقع، كلنا في لعبة (الملك والكتابة) ننتظر اليد التي ستغطي العملة، ساعتها سيتبرع الكثيرون في اختيار مفردة واحدة من مفردتين: ملك أو كتابة، وحين تنبسط اليد مسترخية، مخبئة نتيجة اختيارنا، تكون عيوننا مفتوحة على أي وجه استقرت العملة، ولا نتنبه ساعتها أين تكون تلك اليد التي وضعتنا على تلك الهيئة!!

عندها نفقد كل الحواس، ونعيش اللحظة الحاضرة، منتشين بانتصارنا، أو نخبو بهزيمتنا. هذا هو وهم الاختيار، فالاختيار

كالسقوط، لحظة تسرقك بمشاعرها لكنها لا تمحي شيئاً بل تكتب، فلم يمر أحد قط على هذه الحياة، واختار قدره!

سيد القصر أقام لي ليلة زفاف بذيئة، احتجت لكمية وفيرة من الخمور، لتعينني على أداء المهمة التي جلبت كي أنهيها كما ينهي جزار إراقة دماء ذبيحته على أحسن حال من غير أن يتهم بسوء أداء مهنته.

في تلك الليلة تلطخت بالدم مرتين، واسترحمني صوتان. دم وصوت تهاني تبعاني لآخر العمر، في كل مكان أجد صوتها يلاحقني:

ـ ارحمني!

المرأة تتذكر أول رجل وطأ أرضها البكر، وعكر طهرها بقطرات دم تسيل من مصبها، أما الرجال فهم الفاتحون، ينسون أين نصبوا راياتهم، يسرفون في ري الأراضي الخصبة، والمجدبة بنفس الجهد، والمثابرة، والرغبة.

كنت أقف على التاسعة عشرة من عمري، وتلويحة المستقبل تبدو غائمة، حيث قبلت في الجامعة من غير اختيار للكلية التي سأواصل بها تعليمي، غمام يجتاح تفكيري، ويتركني في حالة من التردد.

في مواسم الأمطار تتشكل السماء بكل درجات اللون الرصاصي الداكن لتعطي شارة واحدة، شارة على أن الأرض ستفقد بكارتها عما قريب.

لم يخطر ببالي أني سأمطر في فجوات ضيقة آسنة لمواسم طويلة.

جارتنا سميرة كانت أصغر من أن تزف لذلك الهرم (أبو مشرط) الذي نسي فحولته منذ سنوات بين فخوذ الأفريقيات المرحبات بمن يمنحهن مبلغاً ضئيلاً من المال، يسيّر حياتهن الشاقة. قطع أبو مشرط

ستين عاماً من الضياع، واللصوصية، وحين قرب موعد ذهابه للمقبرة، عاد للحياة بحثاً عمن يبكيه حين يطمر تحت التراب، سميرة تناديه يا عمّي، لكن هذا التحرز لم يمنع تلك العينين الضيقتين من فضح ثمارها الناضجة الشهية، فأراد أن يقضمها، ويسلم روحه.

تقدم إلى أبيها خاطباً حاملاً عرضاً يثير النفوس الشرهة، ومع موافقة عبده حسن على طلبه، وانتشار الخبر في أرجاء الحي، ضرب أبو يحيى المحلبدي فخذيه متحسراً على سميرة، وغامزاً أبا مشرط:

ـ اللصوص يقدرون الشيء الذي يلمع في عيونهم.

ولم يكن هناك من يستطيع إيقاف هذا القدر، كما لم يكن هناك من جمع مهراً يفوق ما تقدم به أبو مشرط الذي جاء إلى الحياة حاملاً هذا اللقب، فشفرته المسلولة على الدوام يغرس سنتها في خاصرة الغرباء العابرين لحيّنا، ويسلب ممتلكاتهم، ويغيب بين تلك الأزقة الملتوية، ولكي يسرق أنوثة سميرة أخرج كل مسروقاته، وقدمها لأبيها الذي عجل بدفع ابنته للنهاية.

أقيم حفل زواج سميرة في برحة أبو عجينة، ومع طلوع الفجر، دبت خطواتها المتعثرة على طبول الزفافات صوب مخدعها، وتربصت بها عيون المكلفات بمشاهدة فض خاتمها، ولم تكن رخاوة أبو مشرط كفيلة برفع الزغاريد، فتدخلت إحدى المراقبات لتنهي معاناته، وهمست في أذنه بالسر الخفي، وظلت تتلذذ بسماع استغاثة العروس الصغيرة، وتشاهد إبهامه يغوص عميقاً لاستخراج قطرات دم زهرية، مسحتها بمنديل أبيض، وخرجت به رافعة نصاعة شرف سميرة، وزغردتها تكسر وجوم الحاضرات بفحش.

وتفرقت النساء من أمام مخدع العروسة من غير أن يتنبهن أن الإبهام سلب تلك الصغيرة حياتها، في حين كان أبواها مزهوين بشرف ابنتهما، وبعد نقود (التوجيب) التي ستضاف على ما قدمه أبو مشرط كمهر وهدايا لكل أقارب عروسه.

هي ليال، وانتشرت الحمى في أوصالها، من أثر بقايا جذام لم يبرأ منه أبو مشرط (جلبه معه من الحبشة)، ونقله بأمانة لحقل سميرة، ليتغلغل من هناك إلى دمها، لم تكمل أسبوعين كاملين في بيت زوجها، فقد أكملت آخر أيامها داخل مستشفى الملك فهد العام، وكانت شهادة الوفاة التي وقع عليها طبيبها المعالج أن سبب وفاتها تسمم في الدم. هذا السبب كان مثار دهشة أنارت زواياه الممرضة توفيقة حسين حين تبرعت باتهام المستشفى بنقل دم ملوث إليها، وظل هذا اليقين مترسخاً بين أهل الحي، ولم يعرف أحد كيف ماتت، الوحيد الذي كشف السر كان أبو مشرط عندما كانت نفسه تنازعه في الخروج، ولا أحد يعلم أيهما كان صائباً، هو أم توفيقة حسين.

كم من مرة مهدت سميرة القائي بتهاني، وفي أحيان تقوم بدور الحارس كي نكمل حديثنا في استرخاء، بعد وفاتها، تناقلت النسوة أنها أقسمت على الانتحار إن هي زفت لأبي مشرط لكن الوقت لم يسعفها لأن تبر بقسمها، وحين ماتت تقولت بعض النساء أنها أبرت بقسمها، وإن جاء متأخراً، وتراجعن حينما تناقل الرجال أن سبب وفاتها تسمم في الدم، وترحمن عليها حين أعلن أبو مشرط أنه نقل إليها جرثومة الجذام. كانت نهايتها مجموعة من الحكايات المتضاربة، والتي لم تستقر على وجه واحد.

سميرة، وتهاني وردتان من ورود صبايا الحي، لكل منهما عشاق يبحثون عن رضاهما، حدثت معارك صغيرة، وكبيرة للوصول إلى قلبيهما، وفي كل عراك يفض، يكون ذوونا، يبحثون عن سبب مشاجراتنا الدائمة، وفي كل مرة يكون السبب غائباً عنهم، أنا، وكمال أبو عيضة، وصلنا إلى قلبيهما في حادثتين يتذكرهما الحي إلى الآن.

تسللت إلى داخل بيت تهاني بعد وفاة سميرة (بليلة واحدة) كانت منهارة تماماً، فألقت برأسها في صدري وهي تبكي بحرقة:

ـ ماتت سميرة يا طارق.

كان جسدها يهتز، ونهداها ينحشران بين أضلعي برخاوة الزبد، وشعرها يتموج، وخساسة لعينة تتجمع في صدري، وتتموج لقطفها، وهي في هذا الضعف المشتهى، في كل مرة ثمة شيء يحدث فتنفر من بين أحضاني.

في تلك الليلة اللعينة، كنت أسوسها، أمرر يدي على كل مفاتنها، وحدث أن انقطع التيار الكهربائي، فغرقنا في الظلمة.

الاحتكاك يولد النار، اشتعلت فينا اللذة الأولى لتنير ظلمتنا الداخلية، وسعينا لإحراق بعضنا، سعينا للفناء، أظنها كانت راغبة أن تلحق بسميرة!

الفضّ هي المفردة الشائعة لهتك الشرف، يتبادلها الناس حيال جسد الأنثى، وما دون ذلك لا يعني لهم سوى خير عميم، يستبشرون بتلاقح السماء مع الأرض، وجريان السيل في مناكب الأودية والجبال، وبتناسل البهائم، وتكاثر الفئران، أو الحشرات، أو افتضاض الأرض بأشجارها، وثمارها، وورودها، ولا يسقط الشرف بخرق وافتضاض

الوعود، والمواثيق، أو بخيانة الأمانة، أو السرقة، أو الرشوة، هذا الافتضاض الهائل، لا ينال حظوة إسقاط الشرف، كما تفعل طفقة دم تنسل كخيط زهري من فرج فتاة!

- من أين جاءت تلك الظلمة الكثيفة في تلك الليلة؟

مات كل شيء في تلك الظلمة. في آخر لحظة من لحظات انهزامها، كانت تستنجد بنفس محموم:

- ارحمني، فأنا أحبك!!

وكزتها بعنف، فصرخت، ليستجيب لصرخاتها أبواها، وإخوتها بطرق مضاعف على الباب، تلمست طريقاً صوب النافذة المطلة للشارع، وقفزت، سقطت واقفاً بينما سقطت تهاني في قبرها.

** **

لم يجد صالح خيبري لفجيعته سوى الصراخ مستنجداً بالجميع:

- امسكوا الحرامي!

تردد صراخه في جنبات الحي، وتعالى صوت المستغيثين لنجدته، ليوصلوا صوته لكل من سار في تلك الظلمة:

- امسك الحرامي.

ليل تتخبط فيه الأقدام، معتم، بارد، هائج، تتسع دوامته لابتلاع الدواب السائبة، والشوارع العارية، والهائمين في تلك الدروب الملتفة.

وكل من دخل به أيقن انه ليل لا يشبه كل الظلمات التي عبرت ذلك الحي النائم على نفسه، منذ أن استقر خارج أسوار بوابات جدة.

ظلمة شرسة انقضت على كل شيء، خفتت أصوات السهارى مع

إيقاف الألعاب التي طالما تصايحوا كثيراً أثناء لعبهم، أو فوز فريق على فريق، وأحجار الدومينو تناثرت في غير استواء، وأوراق الكوتشينة عبث بها ريح عابر، والأزقة الملتوية استوت أمام العابرين ليرتطموا بجدرانها المائلة، وتساوت السحنات، واختفت الألوان، وأضاءت الأصوات لتخترق تلك العتمة. كل شيء غارق في ظلمته، وبقيت إذاعة البرنامج الثاني تدفع بصوت طلال مداح كي يهرب من دوامة ذلك الليل البهيم:

ـ وترحل.. صرختي في واد لا صدى يوصل.

وقبل أن تخرج الشموع، والمصابيح لإضاءة تلك العتمة مقرونة بشتم شركة الكهرباء كنت قد تسللت من بين أحضان تهاني، وقفزت للشارع، أتشمم أريجها الباقي بين أنفاسي، وندم يعصر فؤادي لم أعرف كيف أبدده. قابلت رجالات الحارة، وهم ينيرون الدروب بتلك الكشافات العاجزة عن إنارة كل الدروب، متبادلاً معهم التحايا السريعة الخاطفة، ومشاركاً إياهم تغليظ الشتائم لاختيار هذا التوقيت لقطع التيار الكهربائي، ومع انبعاث، وتمدد صوت صالح خيبري ليوصل الأزقة ببعضها:

ـ امسكوا الحرامي.

تنافر المعزون من سرادق عزاء سميرة، وانطلقت كل الأقدام لتلبية النداء، لتسارع قدماي بالهرب بدم تهاني.

وأنا أسير صوب عيسى اختلط في مخيلتي تأوهاتها، ونشيجها، وصراخها، أيهم كان طاغياً؟

لم أستمتع بها كما يجب، صراخها المحموم جلب أسماع، وأقدام

من هم في البيت، حدث طرق متوالٍ على باب الغرفة، كانت متشبثة بي، وهي تبكي، ومع اختلاط نفسينا، وحمحمتها كان صوت أبويها يصل حارقاً:

ـ افتحي الباب.

تخلصت منها، وقفزت عبر النافذة المطلة على الشارع، وحين لامست قدماي الأرض، ارتفع صوت أبيها من الداخل:

ـ حرامي..

فتقافز إخوتها للشارع بحثاً عمن سطا على بيتهم.

كل شيء غارق في العتمة حتى الروح هبطت للقاع، تستغيث بمن يخرجها، كان موعدي مع عيسى قد أزف، وجدته ينير مصابيح سيارته الفاخرة بين بقالتين متجاورتين، دسست جسدي داخل مركبته، وانسللت من داخل الحي، مودعاً ليلاً، ونشيجاً سعيت لنسيانه على عجل، ولم يكن صوت طلال مداح رحيماً بي، وهو يوغر نشيجها في مخيلتي:

ـ وترحل.. صرختي في واد لا صدى يوصل.

** **

تأجل موعدنا لليلة بسبب ملاحظة عيسى على هندامي.

هذا التأجيل مكنني من دهس تهاني، وحفزني لأن ألحق بعيسى في أي اتجاه كان فيه.

مضى زمن طويل على تلك الليلة.

تجاسر عيسى من غير خشية على إدخال سيارته الفاخرة في تلك الشوارع الضيقة القذرة غير آبه بتجمع الصبية لمشاهدة مميزات سيارته

الألمانية الصنع، وأبدى تسامحاً حيال فضولهم لرؤيتها من الداخل، ونقد صبياً خمسة ريالات ليدعوني إليه، وعندما وقفت متلهفاً لاحتضانه، وضع يده بيني وبينه.

ـ أريدك غداً، جهز نفسك.

منذ أن التقينا مؤخراً تنبهت أن عيسى لم يعد نفسه الذي كان، ففي الولائم حين كان الناس يتهندمون بما يليق بالمناسبة كان عيسى يقتحمها مؤتزراً فوطته التكرونية ذات الألوان الفاقعة، ومرتدياً فنلة بيضاء دهكها العرق الطافح من جسده المرتوي، فزادها اتساخاً ليجد شاله المنقط المبسوط على كتفيه فرصة لحجب رؤية البقع المتسخة، والأملاح المتعرجة القابعة عند الأكمام، والرقبة، وخلف ظهره، يضع شاله المنقط على هيئة تتناسق مع كوفيته المخروطية المنكسة للخلف، ومنتعلاً حذاء شرقياً، تتعلق طرفا قدميه بشراكها بينما عرقوباه يطآن قاذورات الشوارع بإدمان متواصل. لم يكن بوسعه إظهار تأنق أفضل مما يبدو عليه في تلك الأيام.

مداومته على الظهور بزيه، ومشيته المفتعلة يمكنانه من الانضمام لمصاف الفتوات داخل الحي، ولم يكن يجد غضاضة في الولوج بهندامه المتواضع إلى أي مكان، متفاخراً، ونافخاً صدره مثل ديك أنهى رفة جناحيه بصياح متناغم مع سقوطه من كنه، وهو يمد رقبته في اتجاهات مختلفة.

في مقدمه من القصر اكتسب أناقة، وأعوج لسانه بما يكفي لكي ينطق الكلمات كأحد النجديين الذين لم تتبلل طفولتهم في مياه البحر، أو تدعك أجسادهم بين قمائم أزقة الحفرة.

الشعور بالدونية يجعلك تسفه وجودك، وينبه حواسك لأن تسلك طريقاً جديداً يمنحك الاعتداد.

بسبب هندامي المتواضع، تأجل موعد ذهابي معه لليوم التالي، اكتسب صلافة طارئة، بدا شخصاً غريباً بتلك الهيئة المتعجرفة، وعندما استشعر نفوري، اعتدل، وخرت حبات السبحة بين أصابعه:

ـ أنا أدعوك لحياة جديدة، وعليك أن تنسلخ مما أنت فيه.

ـ ....

ـ لا أستطيع حملك معي بهذه الهيئة القذرة، يا أخي استحم، وارتدي أفضل ما عندك من هندام، سأدخلك الجنة!

ـ ....

ـ سيكون موعدنا غداً في نفس الوقت.

ركب سيارته، ومن غير وداع تحرك داهساً دهشتي من تصرفاته.

وقوف عيسى على رأس الحي انتشر بين الأزقة، ليصل إلى مسامع أبيه الذي استعد لاستقباله، ونسيان كل عقوقه مقابل تشمم رائحته التي غادرت رئتيه منذ تلك الليلة التي امتلأت برجال مكافحة المخدرات، إلاّ أن ذلك الاستعداد انطفأ حينما انتصف الليل، وهو يرتب مجلسه، ويتخير أي الأماكن يمكن أن يجلس ابنه فيها.

كان يرتب أولويات اعتذاراته، وفي كل مرة ينكث سيناريو تلك الاعتذارات حتى بلغ به الخنوع أن يقدم على تقبيل يدي ابنه كي يعود بأمه، ويركز خيمة الأسرة مرة أخرى.

كذب من نقل إليه خبر رحيل عيسى من غير أن يطرق عليه الباب،

ووقف على باب منزلنا في الواحدة صباحاً، ليتوثق مني عن رحيل عيسى:

ـ لماذا لم تسحبه لرؤية أبيه؟

بدا ذليلاً كمن يحمل عاراً قديماً، ليطحنه في مطحنة حسنة السحق، لامني كثيراً لكوني لم أذكر عيسى بحاله:

ـ ألم تقل له إن أباك لم يعد كما كان؟

ـ . . . .

ـ ألم تخبره بأني غدوت أتبول في مكاني، وأهذي به، وبأمه؟

ـ . . . .

ـ دعني أنا، ألم تخبره أن إخوته اشتاقوا لأمهم؟

لم أشأ أن أخبره بأني دعوته للدخول إلى داخل الحي فرفض رفضاً قاطعاً، نافضاً يده من ماضيه، وجازماً أنه لم يعد له من أحد داخل هذا الحي البائس (كما وصفه).

أصيبت ليلى جبريل (أم عيسى) بقلق مضاعف لتغيب ابنها البكر لمدة أسبوع، وأيقنت أن هربه الأخير لن يعود منه أبداً، فأخذت تتلمس أخباره من أفواه أصدقائه المقربين، ولأننا لم نكن نعلم طريقاً له، فكانت إجاباتنا هي احتمالات، أرادت ليلى جبريل التيقن منها، ولم تجد أحداً ينتقل بها في الأماكن المحتمل تواجده بها، فلجأت لأبناء الجيران للبحث عن ابنها. يومياً ـ وبمجرد أن يخرج زوجها من البيت ـ تخرج بحثاً عن أي شاب، ليجوب معها الأماكن بحثاً عن ابنها.

وبلغ يوسف الرديني قصة خروج زوجته اليومي، فتربص بها، والغيظ يكاد يفتك صدره، ومع مجيئها من بحثها اليومي، استبقها بفتح

باب سيارة إسماعيل الصيرفي، وانهال عليها ضرباً في الشارع، ولسانه يخرج أقذع الشتائم، متهماً إياها بالبحث عن المتع المحرمة مع شباب الحي بحجة البحث عن ابنها، وأقسم إن هي خرجت ثانية ليكسرن ظهرها حتى لا تعود تقوى على السير.

غدت ليلى جبريل سجينة بيتها ودموعها، ولم تشفع شفاعة عمتها لها عند زوجها الذي أمعن في قهرها، وإذلالها بربطها أسفل أريكة أمه.

وفي أحد الصباحات تسلل عيسى (بعد أن أيقن من مغادرة أبيه) لمنزلهم، وأخذ أمه معه، وترك عند جدته خبراً لتبلغه لابنها يوسف (هكذا قال متنكراً من أبوته):

ـ قولي ليوسف: لن ترى زوجتك، ولا ابنك بعد اليوم.

كان صادقاً في مقولته فقد مات يوسف الرديني، وهو يتمنى أمنيتين عزيزتين على قلبه: أن يجمع الله شمله بزوجته، وابنه، وأن يبحر لعرض البحر للمرة الأخيرة!

** **

لم يكن حديث عيسى منغلقاً، أو مواربا، فكما ربته الشوارع العارية بالتجرد من أسمال العيب، داهمني مفتتحاً سبب مجيئه للحارة بعد كل ذلك الغياب:

ـ وجدت نفقاً لمياهك المنسكبة بالمجان، بعد الآن سيكون لها ثمن.

وبانفعال واصل: ليس ثمناً زهيداً، بل ثمناً باهظاً.

عقدت الصفقة، بهزة من رأسي بالموافقة ظن أن إذعاني جاء متشهياً، أو مقتفياً المغريات التي شيدها حديثه، لم يكن يعلم أني

اغتلت تهاني قبل لحظات من وصولي إليه، وإني أهرب بدمها، وشرفها معاً، فحين كانت سيارته تتدحرج لمغادرة الحي، كان رجالاتها موزعين في الشوارع للقبض على اللص الذي داهم بيت صالح خيبري.

سحقت غلماناً كثراً من غير أن أتنبه لما يتولد داخلهم من قهر، وها أنا أتذوق قهراً مقلوباً تماماً.

استلمت العمل داخل القصر، محتزماً بوصية عيسى:

ـ إياك أن تبدي أي اعتراض.

شدّد عيسى على هذه الوصية مراراً، ودفعني لمجلس السيد الذي استقبلني متفحصاً جسدي، وهيئتي، طالباً مني السير أمامه، والاستدارة، والتثني بزوايا مختلفة:

ـ عرفت من عيسى أن حياتك بين ساقيك.

ـ . . . .

وأمرني بالاقتراب منه، والوقوف في مواجهته تماماً، وأخذ يدنيني بأوامر متلاحقة (أقرب أكثر)، ولم يعد بيني وبينه سوى أقل من متر واحد، ليصدمني بطلبه:

ـ اخلع سروالك!

هكذا، ألفاظه عارية أكثر عرياً مما نتحدث به نحن من يطلق علينا أبناء الشوارع، يمتلك قدراً من الصفاقة لا تعرف كيف استطاع جمعها، وهو محفوف بكل هذا البذخ الفاحش خلال خدمتي له تلقيت مئات الشتائم البذيئة النابية، تفوق في بذاءتها بذاءة معاجم السوقة، والمنحرفين، كل يوم يسمعني كلمة، أو جملة ترسخه في قاع البذائين.

مكوثي الطويل داخل القصر أوصلني لمعرفة المصدر الذي يغذيه بكل هذه المفردات، لم يخطر في بالي، وأنا أقف أمامه في أول لقاء لم أتصور أنه يحمل سفالة تفوق سفالة وبذاءة سليل قوادين محترفين، وقوفي، وارتباكي أمام أفعاله التي يحدثها، جعلاني متخشباً، متلعثماً لا أعرف ما هي الخطوة التي يجب علي اتقانها معه، وعندما وجدني متخشباً، جاء صوته آمراً بخلع ملابسي الداخلية.

تباطأت في الاستجابة لأمره، فانتدب أحد الخدم الفيليبينيين لمعالجة ملابسي، شعرت بالخجل يعتريني، وأنا مسلوب أمام تنقلات يدي الخادم السريعة.

عذرية تهاني لا زالت عالقة بي، ودم بكارتها الوردي انتشر على عمود تراخى حيال الجذب المستفز الذي قام به سيد القصر، وهو يتفحص شيئي كحق مكتسب:

ـ أليس من حقي معرفة غلاظة العصا التي سأضرب بها خصمي؟

لم يكتف بالمشاهدة، وحسب بل استخدم الجذب، والقياس كما يحلو له، غصت في خجلي بينما واصل تقليب عضوي يميناً، ويساراً، رفعاً، وهبوطاً، جذباً، وتراخياً، مثله مثل من يقلب سمكة ليتأكد من كونها طازجة، وكافية ليولم عليها.

انهى الكشف بضحكة مقززة:

ـ هل تسير بآثار إدانتك دائماً؟

ـ . . . .

ورفع رأسه باتجاه عيسى مطلقاً كلمة الإجازة:

ـ يصلح.

قالها مع استقباح قذارتي، ماسحاً يده بمنديل خطفه من علبة استقرت فوق طاولة رخامية، كانت إيماءة منه كفيلة بتحرر الخادم الفيليبيني من تصنمه، وهو يهز رأسه مراراً للسيد فاتحاً فمه عن ابتسامة عجلة.

بعد خروج كلمة (يصلح)، استبشر لها عيسى ـ أيضاً ـ، وانسحب متقهقراً، ومطأطئاً الرأس تبجيلاً للسيد، فانتقلت ليد الخادم الفيليبيني، ليقودني بين ردهات القصر مخترقين أبواباً داخلية تسلم بعضها لبعض، يتقدمني حيناً، ويدفعني للمقدمة أحياناً، وكلما تباطأ سيري زالت ابتسامته المرتبكة، وحثني على المضي قدماً لأجده يدفعني لداخل غرفة نوم وثيرة ملحق بها صالون صغير، وحمام، أشار الخادم لي بلكنة أعجمية أن أدلف للداخل، وعندما ظللت متخشباً في مكاني، استعاض عن كلماته المعجونة بالإشارة لأن أتحرر من ملابسي، ولم ينتظر ترددي، فتقدم نحوي تاركاً ليديه إكمال المهمة، وشرع (مبتسماً) بخلع ملابسي قطعة قطعة، قبضت على يده بعنف، فعكرت ملامحه، ليزجرني زجراً مخلوطاً بترهيب كما لو كان ينهر طفلاً رفض الإذعان لعملية غسيل إجبارية.

خضعت لغسيل متقن كانت نتيجته نزع جلدي الميت، وترطيب جسدي بزيوت اللوز، والجوز، والرمان، وتخفيف لمعانها بمرطبات وأنواع من البودرة ذات الروائح الدافئة، فغدوت كمصباح يشع رغماً عنه!

ألبست (روباً) قطنياً، وتركني الخادم الفيليبيني مضطجعاً، والأسئلة

تبحث لها عن منفذ، لم يخبرني عيسى عن تفاصيل ما سوف أقوم به، كانت وصيته أن أبدي رضوخي، واستجابة لأي أمر يوجه إلي، كانت صورة تهاني تجاورني دامعة، وتزاحم توقعاتي لما سيحدث، استرحامها طغى في أحيان كثيرة على تفكيري فيما سيحدث بعد قليل، وبسببها لم يصل تخيلي لما سوف أقوم به، وإن كانت معاينة سيد القصر تشي برغبته في أن أجوف إليته.

بشرته ناصعة، ولينة تشبه بشرة الإناث القادمات من المراحيض المعطرة، ومع ذلك تخيلت أن معالجته ستكون عسيرة، فلم أتعود الحصول على فرائس سهلة الامتطاء!

حفزتني للخروج من استرحامات تهاني همهمات، أخذت في الاقتراب من الغرفة التي أقبع فيها، وبزغ من بوابتها سيد القصر يحفه أربع شخصيات مقهقهة، ومتفكهة على رجل يقاد باكياً معلقاً بأيدي خادمين من ذوي العروق الزنجية، وهو يستعطف سيد القصر، وفمه يطلق الأيمان المغلظة أن لا يعود لمعصيته بتاتاً، استرحاماته جاورت استرحامات تهاني، واختلط صوتاهما في داخلي: أيهما أكثر حرقة؟ قذف الخادمان بذلك الرجل على السرير ـ الذي أضطجع عليه ـ بعد أن تكفلا بتجريده من ملابسه، واتخذ السيد مقعداً مواجهاً للسرير، ووازته شخصيتان مهيبتان بينما انشغل اثنان آخران بحمل كاميرا، وتسمر الخادمان الزنجيان على بوابة الغرفة.

ـ أريد سماع صراخه يجلجل!

لم استوعب كيف لي أن أنجز مهمة في ظل عيون مبثوثة تراقبني، وكاميرا تصور كل حركاتي، وسكناتي، أبديت امتعاضاً تسلل عبر جملة أظنها خرجت مرتعشة:

ـ لا استطيع فعل شيء بهذه الكيفية.

نظر سيد القصر للخادمين الواقفين على باب الغرفة، وغمزني:

ـ إن لم تفعل سيقوم هذان بمعالجتك معالجة تدخلك في خانة العاهرات!!

على هذه الجملة فتح الباب عن خادم متأنق يدفع أمامه عربة اصطفت عليها زجاجات مشروبات روحية لم أر مثلها سابقاً، وانهمك بإعداد كؤوس للسيد، ومرافقيه، وأضاف كأساً أمر بها، ودفعها نحوي:

ـ سيساعدك هذا على أداء مهمتك لكن ليس في كل مرة سأخدم عليك!!

كانت الضحية تستغيث، وتذرف كل الأيمان بأن تكون خاتماً في إصبع السيد إلاّ أن استغاثته لم تصل لأبعد من أذنيه، وكنت بحاجة ـ أنا أيضاً ـ لأن استغيث به كي يعفيني من أداء هذه المهمة، نظراته المركزة تشي بأنه فقد صبره بالرغم من ضحكاته المتعالية التي كان يتبادلها مع مرافقيه.

كنت محتاجاً لبعض الوقت كي أغيب عما أنا فيه إلاّ أن الخادمين الزنجيين تحفزا لأداء مهمة معكوسة، فأسرعت بانجاز مهمتي وفق إرشادات المصور الذي تفنن في إخراج تلك العملية حيث طالبني بإعادة كثير من الحركات، وكأنه يخرج فيلماً سوف ينافس به للحصول على جائزة أحسن إخراج!

في تلك الليلة شعرت بفداحة ما كنت أقوم به داخل الأزقة المظلمة، مرات عديدة قمت بنفس الفعل لكني هنا، وعلى هذه الحالة اشعر بأني أنا الذي أغتصب، وأسترحم فلا أرحم.

علمت بأني أقوم بدور عظيم لسيد القصر، وأني بديل لشخصية تراخت همتها كانت تخدم أباه في إنجاز مثل هذه المهام، والإشارات كلها كانت تشير للعم محمد الركابي في كونه الجلاد المتقاعد.

كنت أبحث فقط عن الفرصة السانحة لأستجلي صدق هذه المعلومة من الركابي نفسه، مضت سنوات، ولم تأت الفرصة تلك، أو بالاصح لم تواتيني الجرأة لمفاتحة محمد الركابي بهذه التهمة.

** **

للحياة داخل أسوار القصور العالية مذاق مختلف. هناك لا توجد حدود للمفاهيم، والقيم. في كل حين ترتدي قيمة تتناسب مع اللحظة والتي يمتلكها السيد، فكيفما يكون مزاجه تكون القيمة، والمبدأ.

اكتشفت قذارتي متأخراً. ربما قادني لهذا الاكتشاف الملل، وعدم مقدرتي على الرفض. كل المتع لا تعود ذات قيمة حين تفقد إرادتك في اختيارها، هذا تفسيري للملل الذي يعتريني، بينما مرتادو القصر لهم وجهة نظر أخرى لمنشأ الملل، فهم قادرون على الوصول لكل المتع، وفي كل لحظة ثمة بحث عن متعة جديدة حتى إذ ارتووا من كل المتع أصبح الشاذ جالباً للمتعة. هكذا يعلل الشاذون والمترفون اقترافاتهم الخارقة للمألوف حتى إذ ملوا مما هو ممكن، بحثوا عن ما هو غريب وعجيب، لتكسر اعتيادية المتعة.

ملل إتيان الفواحش خرج من أنفاس سيد القصر حتى أنه خصص جائزة لمن يأتي بسلوى جديدة لقلبه. اقترف كل المتع، وكلما عبر إحداها، وجد أن الحياة تضيق به. استمتع بتشويه خدمه، واستمتع مع

أخيه بشراء النكت، وجلب الراقصات، والمغنيات من أصقاع الأرض، وتراهن على الزواج بالمشهورات من الفنانات، والمذيعات، واقتعد أكبر صالات القمار في العالم، وكانت مشاهدة إتيان خصومه آخر المبهجات التي وصل إليها.

في أول ليلة، وقفت داخل القصر، وقبل أن أصل للسيد، جذبني العم محمد الركابي:

ـ إياك أن تمكث هنا طويلاً.

وعندما وجد قامتي راسبة، قدم لي القهوة صاغراً (كان يقدم القهوة للسيد الكبير، وأبقاه الابن لوصية من أبيه، هذا أول تعريف به قدمه لي عيسى عن مهمة الركابي داخل القصر)، وسكب معها جملة طويلة لم أستوعبها في حينها:

ـ الاقتراب من أصحاب الجاه محرقة، هم يستخدموننا مناديل لمخاطهم، ويقذفون بنا في النفايات.

ـ . . . .

ـ المال يجفف الأخلاق.

حياة العوز أكثر قدسية مما أجد هنا، لا شيء مقدس هنا، كل شيء مباح، وعندما لا تجد حدوداً لحريتك، تبحث عن سياج ليوقف اندفاعك، تعلمت متأخراً أن الحرية تكتسب وجودها حينما يكون هناك حواجز، وموانع، ومن غير هذه الحدود، والحواجز لا معنى للحرية!

عندما تقتعد العمة خيرية مجلسها أمام الشيش طلباً للهواء لتجفيف حنائها الذي تضعه مساء كل جمعة، وتلمحني مقذوفاً في الشارع يصلني صوتها متموجاً بسخريتها اللاذعة كلما عنّ لها تمزيق اعتدادي:

ـ ألا تخشى أن تَحتَّ مؤخرتك من كثرة الجلوس في الشوارع؟!

كنا نظن أننا نموت في هذا الحي المغمور بقاذوراته، وتنافر حكايات قاطنيه القادمين من جهات الأرض. يسيح أهل الحي مساء الخميس كما لو كانوا أصباغاً سيئة الإعداد. ظل الحي متمسكاً بساكنيه الأصليين في جهة واحدة بينما ترك أجزاء منه للقادمين إليه، لفيف من جنوب المملكة هم خليط: من الغمد، والزهارين، والقحطانيين، والشهرانيين، والعسيريين، واليامين، والجازانيين، وخليط آخر من بدو قدموا من أطراف الصحارى المترامية، وجاليات من يمنيين، وشوام، ومصريين، وسودانيين، وصوماليين، وارتريين، وهنود، وأفغان، وجاويين، وتشاديين، وصينيين، وأكراد، وبخاريين، وتركستانيين، وقوقازيين فروا من محرقة الاتحاد السوفياتي. كل هذه الأعراق، تم عجنها، وتسويتها في مساحة شاسعة قذفت داخل الحفرة، وتشاطر القاطنون فيها كدح العيش، وحلم الخروج منه، ولم يعد يكفي أن تقول إنك تقطن حارة الحفرة فقد غدت حارات متداخلة لكل مساحة منها مسمى يبزغ بفعل حادثة ما، أو جالية ما.

في حارة (الحفرة) تاريخ سري تواطأ الجميع على كتابته، وكل حدث ينسب لصاحبه من غير أن يستنكف من بشاعته، أو يفاخر بملاحته.

الجالية الحضرمية هي الأكثر كثافة وجاهاً، وكذا المكانة الرفيعة داخل الحي، ثم تأتي بعدها مباشرة الجالية الأفريقية المكونة من الصوماليين، والتشاديين، والنيجيريين، وهي ذات البطش والأفعال المنكرة التي يحيكها أبناؤها من غير خشية، أو تخاذل، ولا أحد يكترث بعد ذلك بترتيب المواطنين، أو بقية الجاليات.

وإجازة رجولة أي فتى من فتيان الحارة تأتي من التصادم والشجار مع ذوي البشرة الزنجية، وإذ لم تفلح في ذلك تخضع لقانون الأقوى، ولا تبرح جهة بيتكم كيلا تتعطل رجولتك في ذهنية شباب الحارة.

هذا الدرس وصلني مبكراً، فتربصت بأيهم أقل إقداماً، وهاجمته أمام أقرانه، وأوسعته ضرباً، ولم أتركه إلاّ وأنا أحمل لقب الفتوة مبكراً.

هذا الشطط الذي نمارسه بين الأزقة لم يكن محموداً، وعقابه النبذ، أو الاستصلاح من قبل كبار السن بالضرب المبرح، وكل القبح الذي نسلكه كان يتم خفية عن عيون المصلحين الكثر الذين يرون في أفعالنا خروجاً عن القاعدة.

فالعيب بقي شارة حمراء دائمة الإضاءة توقع متجاوزها للنبذ، أو الضرب، أو السجن، وفي القصر ثمة إشارة حمراء مضاءة دائماً ـ أيضاً ـ تمنع الاستنكار على أي فعل مشين يحدث.

** **

ينقسم القصر إلى قسمين: قسم للعائلة، والمحظيات والمربيات، وقسم للضيوف، وهذان القسمان لا يمثلان حداً فاصلاً حيث زرعت في المساحة الشاسعة للقصر أبنية تعددت غرفها، وردهاتها، وصالاتها، وحدائقها، وملاعبها بتعدد الأغراض، والفئات القاطنة، والمنتسبة لخدمة السيد.

ولا أحد يجرؤ على دخول المقصورات الداخلية المخصصة للعوائل. هم أشخاص محددون الذين يسمح لهم بالدخول، ويرأسهم عيسى الرديني الذي يشرف على تلبية طلبات واحتياجات

نساء القصر. وأخبار تلك الجهة تكاد تكون معدومة تماماً، فلا أحد يعرف خطوط العلاقات الأسرية الجامعة بين سيد القصر والسيدات اللاتي يظهرن من عمق القصر عبر بوابة داخلية خصص لهن سائقون من جنسيات مسلمة تتسم بالصلاح والورع والزهد. وقد جهزت للمقصورات الداخلية طريقان لسير المركبات المقلة لهن: طريق رئيس يخترق وسط القصر (وهذا الطريق يغلق عند إقامة الاحتفالات)، وآخر خلفي محاذ للبحر تماماً، يسلكنه أثناء اكتظاظ الزائرين، أو إقامة الحفلات الصاخبة.

كنت بالقرب من بوابة تلك المقصورات عندما توقفت سيارة فاخرة، بزغت من نافذتها سيدة باهرة العينين أطلتا بهما من خلف نقاب تساهل عن كشف جزء من الوجنتين، وأقام احتمالات للتخمين عن سحر فتنتها، مظهراً صفاء بشرتها، وحيرة عينيها أيضاً. توقف السائق فجأة أمامي، لتطل من نافذة السيارة فتاة فاتنة:

ـ ألم يعد عيسى من سفرته؟

تلعثمت كثيراً، وتنبهت أني أطيل النظر في عينيها، وهي تنتظر رداً على سؤالها.

في شبابي كانت عين المرأة الطريق الآمن للقيام بسرقة روحها، وجسدها معاً، كنت أحرص على تعليق العين أولاً ثم اختلاق المغامرات للوصول إلى ما خلف النظرة، هذا الدرس تلقيته من منى زوجة عثمان المحينب:

ـ المرأة تعشق التحديق، تعشق أن تسمر عينيك بها لتروي أنوثتها، وتزيدها زهواً، ونشوة.

المرأة الوحيدة التي وجدتها تكره التحديق بها هي عمتي خيرية، فالنظر إليها يكشف جانباً من اعتلال نفسيتها حين تفور فجأة مبدية طبعها المنفر والحارق، وكل نظرة إليها تلهب نارها المخبأة في أعماقها، وإذا أردت إغاظتها فحدق في بؤبؤ عينيها لحظتها ستكتشف كم هي لئيمة وخسئة.

رجال حيّنا يعرفون أن النظر إليها يثير شهيتها لصرف شتائمها المخبأة، فيتحاشون السلام عليها، أو متابعة خطواتها المتعرجة أثناء سيرها بين بيوت الجارات، لذلك لم يقف خاطب على بابها كي لا تصيبه حمم غضبها الوفيرة.

تجاوزها عمر الزواج من غير أن تثير شهية أحد، فبقيت عزباء، وعندما أيقنت من نفور الرجال منها أخذت تبحث عمّن تُساحق معها، كانت مكشوفة في التعبير عن هذه الرغبة، فكلما اقتربت من امرأة نفرت منها، وسربت اعتوار أخلاقها المتأخر إلى بقية صويحباتها.

بعد أن فرغ بيتنا إلاّ منها تفرغنا لبعضنا نتبادل الضغينة والمراقبة، وكلما خطر ببالها أني أقف على سر لا تود أن يقف عليه أحد، أسرفت في تحقيري، والتعريض بأفعالي في مجالس النساء التي تحضرها.

تكفلت عمتي بمراقبتي منذ أن كنت طفلاً، ولم يكن لأمي دور في تربيتي بتاتاً، فأمسكت العمة خيرية بكل شيء داخل البيت. مدت رقبتها من النافذة المطلة للشارع الخلفي:

ـ ألن تعود للبيت؟

سمعت نداءها بوضوح، وتعمدت إهمالها مستكملاً ملاحقة صبي خطف لعبة خشبية كانت تلعب بها تهاني في الزقاق المجاور لمنزلها،

فتشاغلت عمتي بالحديث مع جارتنا بلقيس عن ندرة المياه في الصهاريج، وقدوم مواسم الأمطار حافية.

صلوات الاستسقاء عادت خائبة، ولم تفلح في جلب سحابة عابرة كالتي نسق لها إمام، وخطيب المسجد الشيخ صالح الظهر، فخلال ثلاثة أعوام متتالية لم ينزل المطر لاعتوار قلب الشيخ صالح، والمصلين معاً، والذي كلما دعا وسمعته زوجته رقية تناشجت، وتذكرت غلظته، ومرارة طباعه معها مرددة:

ـ الرحمة لا يعطيها الرحيم إلاّ للرحيم.

استندت تهاني بجذعها على الدراجة النارية الملقاة بإهمال في شارعنا منذ أن مات صاحبها غالب أبو حمامة دهساً، واستقبلتني مادة يديها بابتسامة، وهي تستعيد لعبتها المسروقة، وأسرعت بالانزواء عند سماع صرير أمها حين رأتني أقترب من ابنتها.

كنت على مقربة من حسرات العمة خيرية، وهي تأسف على تساقط خصلات شعرها، مبدية لوعة على زمن كانت فيه خصلاتها طريقاً لغواية شباب الحي الواقفين أسفل نافذة بيت جدي، هذا الخليط من الحسرة، والتيه (المزعومين) قابلتهما بلقيس بضحكة هازئة:

ـ أَوَكَانَتِ النوافذُ في شبابك بلا رواشين يا خالة خيرية؟

لتتحرك موجة غضبها المتجعدة:

ـ أنت سافلة كأمك.

وعادت تناديني بألقاب بذيئة لم أجعلها تتمادى في صرفها، فبزغت لها صائحاً:

ـ سمعتك . . سمعتك .

عادت لداخل البيت، وهي تلعن الحظ الذي أبقاها حبيسة بيت أخيها تذب أيام نحس لم تفارق صفحة جبينها.

قفزت أكوام القمامة المتراكمة أمام بيتنا، ودلفت من البوابة الخشبية المنخورة بفعل الأرضة لتصدر صريراً يشبه صوت عمتي التي أحس أنها نخرت، وأوغل السوس في روحها حتى إنها لم تعد قابلة لأن تتصالح مع واقعها.

ـ ها أنا جئت؟

تطلعت أمي صوبي متلمسة التغير الذي أصاب هيأتي من غير أن تحاول نهري، أو تقريعي، وتشاغلت بتخليص خيوط غزلها من التشابك ممضية غالب وقتها لإنهاء بزة ستقدمها هدية للمولود الصغير الذي أنجبته زوجة جلال مكبر، لتجذبني عمتي من أذني:

ـ ألم أبعثك لجلب الماء؟

ـ كل البلد ليس بها قطرة واحدة.

ـ تكون كذلك عندما يكون بها أمثالك!

ضربت فخذيها بيديها الاثنتين، وعندما لم تهدأ علقتني من شعري:

ـ الآن تخرج ولا تعود إلاّ بالماء.

في ذلك اليوم حدثت مشاجرة تجمع لها كل الجيران لتخليص السقا من بين يدي عمتي، فقد ادعت أنه شاغلها بعينيه، فانهالت عليه ضرباً بالمكنسة، وأغلقت عليه الباب، وأطلقت صوت الاستغاثة، وبدوره أطلق استغاثات مضادة، فهب الرجال لداخل بيتنا، الكل يصفع ذلك

السقا الممسوك بكلتا يديه، وإزاء الصفعات المتوالية، خر السقا صريعاً داخل بيتنا، ليتحول الضاربون إلى مسعفين، برشه بالماء، وإسناده كي يفيق.

فاسترجع أنفاسه، وعمتي لا تزال تحرض الحاضرين بتلقينه بقية الدرس، ومع استواء جلسته نظر إلى عمتي، فصاحت انظروا، لا زال يشاغلني بعينيه، وألقت على رأسه بالمكنسة التي تحملها، كتم الحضور ضحكاتهم حين لاحظوا أن عيني السقا تعتريهما رفة كلما حدق في شخص، فخلصوه منها، معتذرين له مما صدر منهم، كان السقا يريد الخروج فقط، فتحامل على نفسه، ودفع عربته، وقفز قفزة متدرب، ليستقر بالمكان الذي يقتعده خلف حماره، وأخذ يلعن عمتي، ومن ساندها حتى إذ أيقن أنه ابتعد صاح باتجاهنا:

ـ والله لو أن لي نفس حمار، ما نظرت لهذه الجيفة! (يلعن أبوك من مرة، مرة رجال!).

وخفية عن عمتي، ألصقت بها شتيمة السقا بين النساء، وعرفت في الحي (بعد هذه الحادثة) باسم (مرة رجال)، ولم تقع عليها عين رجل من أهل الحي بعد ذلك.

** **

مع غياب عيسى ترتبك الدنيا، هكذا أشعر، لا زالت الفتاة تعيد سؤالها على مسامعي:

ـ ألم يعد عيسى من سفره؟

تحديقي بعينيها أشعرها بالضيق، واستحثتني للرد على سؤالها، بينما كنت أبحث عن ما يحجبه نقابها من فتنة.

ـ اخفض بصرك، وإلاّ لن ترى به مرة أخرى!

تنبهت لحماقتي، فأخذت اعتذر بكلمات متقطعة لم تعرها بالاً، وهي تضغط على زجاج نافذة السيارة المظللة، والتي انطلقت مخترقة وسط القصر بتمهل.

هاتان هما العينان اللتان تبحر بهما، ولا يهم ما الذي يحدث لك بعد أن تغرق بهما.

لم أر نقاباً يحتضن عينين كتلك العينين. عميقتان، متسعتان، سوداوتان، كثيفتا الهدب، شحيحتا الحاجبين، زاهدتان في تحديقهما، انتظرتها طويلاً أن تعبر نفس الممر فيما تلا من أيام لكن مرورها كان كالموت لا يحدث مرتين.

أضمرت أن ألعب معها لعبة السقا مع عمّتي، فأوهمت من حولي برفة اعترت عيني اليمنى فجأة، وأتقنت إحداثها، حتى غدا الكثيرون ينصحوني بمراجعة طبيب العيون، فأعد كل من ينصحني بأني سأفعل، عل صاحبة العينين الحارقتين تمر ذات يوم، فأجرب معها تلك اللعبة.

كان قدري رحيماً بي، فلم أرها، وأقلعت عن افتعال رفّة العين.

تذكرت عيني عمتي، فاستلقيت ضاحكاً، صدق ذلك السقا حينما نعتها بالرجل فهي تحمل بذور ذكر فسد أثناء التكور، كان أبي أرق، وألطف منها، لم يصفُ مزاجها طوال حياتها، أو هكذا عرفتها مكدرة عكرة، توعدتها في مخيلتي كثيراً، وحين حانت الفرصة لم أمكنها من رفع صوتها، جعلت كلماتها تهذي من غير أن تبين.

آخر جمل سمعتها منها:

ـ حين تأتي من بطن وخمة تكون رائحتك كريهة.

الإنسان يرى بعد أن يعيش، تغدو حياته الماضية سجلاً يصطفي منه الحكم التي يصوغ منها حكمه، وسجل عمّتي مليء بالأدوات الحادّة المدببة فرشتها مسامير معكوفة في طريقي، فكل كلمة خرجت من فمها، وجهتني نحو الانحراف بصورة ما.

كنت أتمنى سماع حكمها الأخير على حياتها إلاّ أني حرمت نفسي لذة سماع حرقتها الأخيرة، فعلت ذلك بيدي.

- من أين تأتي القسوة؟

الحياة المرة لا تترك لك فرصة تدبر معالجة الاعوجاج، فليس هناك وقت لاختيار الصواب، أو الامتناع عن الخطأ، حيث تقع على كاهلك مهمة دفع الحياة للأمام من غير تبصر كي لا تتركك خلفها، وبهذه المدافعة اليومية نفقد أنفسنا في أوقات كثيرة، أو نتناقص، الحياة تلعب معنا لعبة الإغواء، وتتزود بسحق أرواحنا لكي تستمر في جريانها، ونظل تائهين داخلها متبرمين من ضيقها، أو سعتها.

جربت الحالتين، ولكل منهما ضيق يسد الأفق، الفقر يدفعك لأن تبحث عن أبواب الغنى، والغنى يدفعك لأن تبحث عن أبواب الفجور، وفي الحالتين أنت منساق لكتابة قدر يتلون بأفعالك الأولى.

تبعدني سنوات طويلة عن طفولتي المبكرة، تلك الطفولة التي وجدت نفسي رفيقاً دائماً لليل.

رافقت الليل منذ أن كنت صبياً صغيراً. البرحات الواسعة تستقبل الصبية المندفعين من البيوت الضيقة التي فاضت بأنفاس أهلها. نتجمع على هيئة أشكال هندسية لنمارس ألعاباً مختلفة، وكل مجموعة تصفي أفرادها، وتعزل الصبية الذين تم التحذير من اللعب معهم، عيسى الدريني كان منبوذاً من كل المجموعات، فاعتزل الصبية، واقترنت

مجالسته بالمخمورين، واللوطيين، واللصوص الدائبين على سرقة أغنام، ودجاج، والدراجات الهوائية والنارية لأهل الحي.

كان أكبر من عمره بكثير ـ مثله مثل أسامة ـ فلم يخش أن يبطش به في الأزقة المظلمة التي يسير فيها برفقة أحد من رفقائه الكبار. توثقت صلتي به في إحدى الليالي المظلمة حينما كنت أعبر زقاق الكفت (وهو زقاق مظلم اشتهر كموقع لمواطأة الصبية الذين يقادون إليه رغبة أو رهبة)، كنت أسير بذلك الزقاق منتظراً فريستي (ياسر مفت) الذي حفزني لأن أسبقه بعد أن تلقى تهديداً مراً فاستجاب لرغبتي، وفي ذهابي، وإيابي داخل الزقاق منتظراً ومستبطئاً مقدم ياسر مفت، وجدت ضوء كشاف يسلط على وجهي، ومن خلفه كان صوت مصطفى القناص حاداً يطالبني بخلع ملابسي، في تلك الظلمة الغامقة كنت أبحث عن حجر أفض به هامته، وأركز بصري في الاتجاه المنير من كشافه، وعندما لمحت حجراً يتناسب لما نويت عليه تحركت باتجاهه، وقبل أن أمد يدي إليه كانت شفرته مغروسة في ظهري، ويده اليسرى تلتف حول عنقي من الأسفل، صائحاً:

ـ نفذ ما أمرك به، وإلاّ قتلتك هنا.

ظهر عيسى الرديني كملاك هبط لنجدتي (يظهر دائماً بهذه الصفة)، ضحك، وهو يرى مصطفى القناص يلفني حوله، ويثبت غرز شفرته في ظهري في محاولة إجباري لأن أمتثل لرغبته، فربت على ظهر مصطفى القناص مترفقاً:

ـ ألم تجد إلاّ الماطور لتهدده؟

تفلت من بين يدي القناص، وتناولت حجراً صلداً، وهممت بشج رأسه، فأمسكني عيسى:

ـ لا تفعل، وإلاّ سيمتطي ظهرك عاجلاً، أو آجلاً.

واقترب من القناص ملاطفاً، ومداعباً، وذاكراً أني صديقه الحميم، فتراخى غضب القناص، ووضع يده على خدي:

ـ ربنا شفعلك بعيسى!

فارتفعت ضحكات عيسى عالياً:

ـ لو تعرف الماطور لما فعلت معه هذه الفعلة.

وأخذ يسرد وقائع شاعت بين أقراني عن فحولتي التي لم تقف عند إنسان، أو حيوان، ليضع القناص يده على كتفي معتذراً، وضاحكاً:

ـ (آتريك زمل)!

بينما نحن على هذا الحال ظهر ياسر مفت، فاشترك ثلاثتنا في نهشه.

** **

عينا تلك السيدة بقيت في مخيلتي تشاغلني، ربما لأني حرمت من رؤية النساء منذ فترة طويلة، فبعد فزع عيني تهاني، كانت تلك العينان أول عينين أراهما في حجري، فمهنتي الجديدة يحظر فيها رؤية النساء، أو مخالطتهم. في البدء لم أستوعب سبب هذا المنع، إلاّ بعد زمن إذ كان يخشى تراخي همتي، محاصرة المنع هذه ضربت كي أبقى متلظياً بالشهوة إلى أن يحل قدر فريسة جديدة يسيل لها لعاب الشبق المكبوت بي.

في ساعة أُنس قفزت لمخيلة السيد، فكرة تكوين فريق لتأديب خصومه، فانبرى يخطط لهذه الجماعة، ولم يغادر مجلسه قبل أن يختار

مسمى للفريق، وأوكل لي مهمة اختيار بقية أفراد (فريق الجلادين)، وكانت التوصية بضم الفتيان الأشداء، وكلما كان الفرد أكثر كبتاً كان مفضلاً لأداء هذه المهمة.

وبعد تنصيبي رئيساً للفريق، تخلى عيسى عن هذا الدور، وأوصاني بزيارة مقهى Derems، علني أجد بغيتي هناك، موضحاً موقعه المستقر في ظهر شارع التحلية يقصده الشواذ، والباحثون عنهم. زيارة واحدة لذلك المقهى جعلتني أجفل مما يحدث هناك.

واستقر الحال على اختيار أعضاء الفريق من المعدومين، والمكبوتين داخل الأحياء الشعبية، وهي الفئات التي ترضى أن تعيش داخل إسطبل تعلف ما يقدم لها من غير اشتراطات مسبقة.

جمعت هذه الأعداد، وألقيت عليها المحرمات الممنوعة التي يستوجب اقتراف إحداها الطرد من المجموعة، وضمت قائمة المحرمات عدة بنود يأتي في مقدمتها: عدم مخالطة النساء، أو رؤيتهن بتاتاً، واقتصار بث القنوات التلفازية على قنوات محددة، ومنع استخدام التلفون، أو الجوال، وعدم السماح بدخول المجلات النسائية، مع منع العادة السرية، ومراقبة هذه النقطة يكون بالتفتيش المفاجئ، وإن لزم الأمر إجراء تحليل طبي للاستمناء.

ومع موافقة الجميع على البنود تم اختيار موقع معزول من القصر، حشرت به تلك المجموعة، لا تخرج إلاّ لأداء مهمتها التي جلبت من أجلها ثم العودة إلى مواقعها.

لم يستطع أحد من هذه المجموعة الانتقال إلى جهة أخرى من القصر سوى أسامة، فقد جاء به عيسى ثم اختار له مهمة تناسب مواهبه

ـ التي ظهرت متأخراً، فتم تنسيقه من مجموعة الجلادين، ولم يعد تحت رئاستي.

كما أن بقاء هذه المجموعة لم يدم طويلاً، فالنظام الذي اقترحه السيد لم يجد استجابة على المدى الطويل من قبل الأعضاء، فتم إخلاء طرف الكثيرين منهم بعد كسر أنوفهم بنفس الفعل الذي اقترفوه في خصوم السيد، وتم توديعهم بتحميلهم صوراً تثبت تجريدهم من رجولتهم المعتدين بها مع وعيد قاس لنسيان ما حدث، وتُرك العقاب مفتوحاً. ليتخيل كل منهم ما الذي سيحل به لو أفشى سر المجموعة، أو ما أحدثوه داخل القصر.

وتم الإبقاء عليّ لأداء مهمة التعذيب منفرداً، كنت أخشى أن أفقد اعتدادي بنفسي ـ أنا أيضاً ـ لو طبقت بحقي نفس العقوبة، وكانت مشكلتي مع تعدد المحرمات التي وضعها السيد في طريقي كي أظل فحلاً يقدم على التيوس دون الإناث من النعاج.

وبعد خمس سنوات أو سبع من المطالبات، وإلحاقها بالرجاءات، سمح لي السيد بالانتقال لخارج القصر عندما أبديت التماساً برعاية عمتي التي ليس لها عائل سواي.

** **

تركت الحي ليلاً وعدت إليه ليلاً.

عدت على غير ما ذهبت، حيث لم يعد بي شيء مزهر، كل ما أحمله أداة عمل فترت من كثرة البري، والاستخدام، وجسد مل من الالتصاق الدنس.

تسللت إلى داخل الحي الذي لم يتغير كثيراً، حيث بقيت أكوام

القمائم متزاحمة، ومصابيح الإضاءة أغمضت نورها، ولا زال الصبية بثيابهم المتسخة غارقين في ألعابهم مع تبادلهم الشتائم المقذعة، ولا زالت بائعات الحبحبوه واللوز، يجلسن خلف بضاعتهن بدعة واستسلام، والباعة المتجولون يذرعون الأزقة لبيع غزل البنات، والبليلة، واليغمش، ولا زال الذباب يحط على تلك المأكولات بكثافة تفوق عدد صبية الحارة مجتمعين.

صوت إبراهيم يأتي ندياً من مكبرات مسجد الإخلاص مؤذناً لصلاة العشاء، فتهبط السكينة في مكان ما من هذا الحي المتقاعس، ليستجيب لندائه عجائز الحي بلحى كثة، وماء يتقطر من الوجوه، كنت أتحاشى مواجهة أي منهم، متلثماً بطرف شماغي، ومسارعاً الخطى، وواضعاً عيني بين مواقع خطواتي.

طرقت الباب طرقات متوالية، وانتظرت، صوتها المشبع بالعداوة يزأر من الداخل:

ـ مين، مين، عفريت يأخذك ستخلع الباب؟

التقيت عيوننا. لم تكن مصدقة، وفي دهشتها، عجنت الكلمات:

ـ خطر ببالي أنك الطارق فلا أحد يقرع الباب هكذا إلاّ أنت.

لم تكن تتوقع أني أقف على الباب بتاتاً، وما قولها الذي أطلقته إلاّ محاولة لإسناد دهشتها من وقوفي أمامها مباشرة، فمع رؤيتها لي اتسعت حدقتا عينيها، وتذكرت شتائمها القديمة، ربما لم تنسها، وإنما غيابي عنها جعلني أظن أنها نسيتها، أخذت تسترجعها طازجة فوارة.

ـ ما الذي جاء بك؟

سبع سنوات إلاّ قليلاً هي التي غبت فيها تماماً عن حيّنا مع دخولي

إلى الزقاق المؤدي لبيتنا لمحت نافذة تهاني مغلقة، وقد تيبست مسامير صدئة على ألواح خشبية دقت من الخارج تمنع فتح ردفيتي النافذة، لمحت فائق (أخوها الأكبر) يتتبع خطواتي، وشيء ما يحترق في دمه، فأشاح بوجهه عني، وكأنه لا يراني، تمنيت لو أني أستطيع أن أسأله عنها، عندما أعدت نظري إليه، كان يبصق مراراً في اتجاهي من غير أن يمنحني وجهه.

كان الحي أكثر اتساخاً مما تركته، وأقل صخباً مما توقعت، فقد غابت أسراب النساء المتزاورات، وأغلقت النوافذ المطلة على الشوارع، وتضاعفت حجب البيوت، واختفت ستائر الأبواب، وشاخت بيوت كانت فتية قبل زمن قصير.

ـ عمّتك تكاد تموت جوعاً.

أسر أسامة بهذا الخبر في أذني، وهو يستعد لخروجه المسائي في ممارسة إغواء النساء، وجلبهن لداخل القصر.

لم أكن حريصاً على حياتها، أو بالأحرى لم أكن حريصاً على إحياء الماضي الذي عشته، تبقت جملة أسامة تتسع في داخلي لثلاثة أيام، قبل أن أقرر ردم ذكرياتها تماماً.

قبل أن يُسر أسامة بخبر عمتي، كان قد أخبرني بعذاباته التي تسببت بها، لم أستوعب تماماً حديثه فقد انبث حزنه في ليلة صاخبة، كنا قد أعددنا السهرة لسيد القصر، وتهافتت الفتيات من جهات مختلفة، كل واحدة منهن تبحث عمن تصطاده، ويقدر جمالها، ويغدق عليها بما تشتهيه من هدايا، وكنت قد تحللت من عزلتي المفروضة، وسمح لي

السيد الخروج من الحجر الذي كنت حبيسه، انزويت أنا وأسامه في مؤخرة المجلس نرقب تمايل الفتيات، وطغيان شهوة ضيوف القصر بتفرس فرائسهم، وفي مباغتة غير محسوبة أشار أسامة صوب إحدى الفتيات:

ـ انظر إلى تهاني؟

سمعت وجيف قلبي يتعالى، واتسعت حدقتا عينيَّ بحثاً عنها:

ـ أين هي؟

ـ هناك، ترقص، بجوار سليمان غانم.

ـ لا أراها.

ـ صاحبة الفستان المشقوق من الظهر.

جال بصري كرادار سريع الالتقاط، ها هي تبر بوعدها، وتلحق بي في وسط هذه الدناسة، عزمت على قتلها صراحة.

ـ حدد مكانها.

وهممت بالتحرك، باتجاه إشاراته، فاستمهلني:

ـ ألا تشبه هذه الفتاة تهاني؟

بردت، وتهاويت في مكاني، الماضي يسحبنا بـ(خطاطيف) جيدة الصنع حينما يرغب في استرجاعنا، وفي القصر كنت أخشى ما أخشاه أن أجد تهاني أمامي.

صرت متيقناً أنها في مكان ما من هذا القصر، وكلما أيقنت من ذلك اضطربت، وتخيلتها تقف في مكان ما من غرفة التعذيب وتشاهد سقوطي المتتالي، وغدوت أحوك الأعذار على سرقة دمها، وما أنا فيه من فحش.

آه كيف لو أن تهاني سقطت هنا؟ هل جاءت كما جئنا جميعاً لتنصهر داخل هذه الجنة الحارقة؟

أم أنها بقيت في مكانها حيث تركتها تجمع دمها، وفجيعتها، وصارت نصباً تذكارياً يذكر العابرين بضحايا نار الحب.

لا زالت عيناي تبحثان عن شبيهة تهاني كما يزعم أسامة، وفي تشتتي ذاك، غرس مسماره جيداً في داخلي، وأخذ ينتزعه بغير استواء:

- ماذا فعلت بتهاني؟

حينما لا نصوب أخطاءنا تبقى الحسرة حاضرة في كل حين، لم يكن مفيداً لنا أن نوغر صدورنا على أخطاء سقطت في الماضي، ولم يعد بالإمكان انتشالها من سقوطها.

هكذا أردت الهروب من ملامته، قال حديثاً طويلاً عن تهاني، ولم أكن في حالة تمكنني من زجره على أقل تقدير، فمهمته الجديدة تمكنه من الخروج من القصر في أي حين، فدأب على تزويدي بأخبار الحي، ليدس أخبار تهاني بينها علني أفشي له سراً، لم يعد له في الحياة من مهمة سوى كشف ذلك السر، في إحدى الأماسي هتف في أذني:

- عمتك على وشك أن تموت من الجوع!

فقررت الذهاب للإتيان بعمتي بحثاً عن خلاص مما أنا فيه من حجر، وعزلة.

عندما رأيت نافذة غرفة تهاني مغلقة من الخارج كنت متيقناً أني لن أجد تهاني في نافذتها كما كانت تفعل مع مجيئي من سهراتي، أو من ألعابي، بل كنت متيقناً أنني سأجد الكره الذي أودعته عمتي في صدري، كنت متأكداً أني سأجده كما ودعته إن لم يكن نما أضعاف أضعاف ما تركتها عليه.

ـ ما الذي جاء بك؟

كانت أجف مما مضى، هزل كل شيء فيها إلاّ لسانها حافظ على لياقته، فاستعادت براعة تصويب قذائفها. أفرغت كثيراً من شتائمها القديمة على مسامعي، وهي تقف ممسكة بالباب قبل أن ألج لداخل الدار. قبلت رأسها ففاحت رائحة عطور مجمعة من ثنايا مفرق شعرها، تلك الرائحة التي استثارت مخابئ البغض لها، طوحت بيدها في وجهي، متفلتة من احتضاني لها مفتعلة البكاء، ومتحسرة على بقائها في هذه الدنيا وحيدة من غير عائل، وكما تذكرت بغضي لها، تذكرت هي بغضها لأمي:

ـ ماذا تلد الحّية؟

تلك الأم الحّية لم أرها منذ أن انتقلت لبيت زوجها، فمع قبولها بالزواج من جمال المهندس شعرت بأنها خانتني. خانت أمومة كان عليها أن تبقيها داخلي كأم لا تمنح جسدها لرجل آخر، ينهش ثدييها اللذين وهباني الحياة، كلما تخيلتها تحت زوجها، وهو ينوشها، أتمنى رجمها كزانية لا يرد على صراخها إلاّ بالحجارة الماطرة، وأقلع عن تشييد تلك الصورة حينما أتذكر أنها لن تستطيع أن تطلق استغاثتها، وستبقى تذرف تأتأتها، وعويلها غير المجديين، والمفهومين معاً.

لتحل صورة تهاني مكانها، وهي موثوقة على سارية خشبية، وكل من حولها يحصبها لاعناً إياها، وصائحاً:

ـ يا زانية.

فيفور دمها، يغطي ثيابها تماماً حتى إذا انكشف وجهها، ورأتني بين المتجمهرين لحصبها، صاحت بي:

ـ لماذا تركتني هنا؟

فأحل وثاقها من مخيلتي مقللاً من عقوبة رجمها بهاجس أن من لم تتزوج لا ترجم، فإذا بها تزج لداخل السجن في زنزانة مظلمة داخلتها الخفافيش ووجوه السجانات الباحثات عن المتع مع من تقاد بتهمة فقدان الشرف. ألمحهن يلقينها على أرضية السجن، ويساحقنها رغماً عنها، ومع انتهاء كل سجانة من إفراغ رغبتها تبصق على وجهها مستخفة:

ـ الرجال يوصلوا الفتيات إلى البغاء عنوة، ولو أنك سلمت نفسك لامرأة لما كان هذا حالك!

أخلط بين قصص الفتيات اللاتي عرفتهن في القصر، وبين ما يمكن أن يكون قد لحق بتهاني. كم من فتاة وجدت ملاذاً في القصر. بعضهن قُبض عليهن في مغامراتهن الأولى، وبعد خروجهن من السجن، لم يجدن طريقاً رحيماً بهن سوى البغاء، وفي هذا الطريق تعلمن كيف يعشن بعيداً عن روائح السجون، وبعضهن امتلكن النفوذ في تسيير شخصيات بارزة في المجتمع لتحقيق رغباتهن، حالات مبتذلة أراها، واسمعها يومياً، وأصناف من الفتيات الفاقدات لعذريتهن، وهن يتحدثن عن أول عبور لأجسادهن، تلك القصص المختلفة كونت طبقة من اللامبالاة حجبت مشاعري حيال كل ما يحدث للنساء.

ـ فهل سلكت تهاني نفس الطريق؟

أتوق لأن أسأل عمّتي عنها، لم يكن وجهها، وحالتها النفسية قابلة لأن تجيب عما يعترك في داخلي. تقف على الباب، وفي مواجهتي تماماً:

ـ ما الذي جاء بك؟

هذا هو السؤال الذي جئت باحثاً عن إجابته، ولم أستطع سبر رغبة جارفة اعترتني، لأن أحملها مرة أخرى مثل الداء الذي انقرض، وبقيت جرثومته في مختبر العواطف الحية التي تعيد للجسد روح المقاومة، جئت لأحملها، وأخبئها في حياتي مرة أخرى، لأبرهن لها أن ازدراءها أثمر، وعليها أن تتذوق طعمه. كنت أسأل نفسي: حقاً لماذا عدت، هل اشتقت لإسقاط نبوءاتها، أم لتأكيدها؟ لا زالت تصر بسؤالها مثل مكنة لتوقف تدويرها منذ أمد. راودتني رغبة الإقلاع عن حملها. يكفي ما تحملته من عنت معها، وتراجعت، فأنا أريدها لأمرين: أن تكون منفذاً لخروجي من القصر، وأن أتشفى منها في كل حين.

ـ هل ترغبين في مصاحبتي؟

شعرت بالندم مع إطلاق سؤالي الذي يفتح لها منفذاً للهرب، ماذا لو قالت لا أريد، عندها ستكون زحزحتها عن عنادها من المستحيلات، وقبل أن أمنحها فرصة للتردد، أخذت أرثي لبؤس حالها، وحال البيت المقوض في جوانب متعددة، فقد انقشع سقف غرفة الجلوس، وتصدعت جدران الحوش، وغادرت مفاصل الأبواب الداخلية أماكنها، وشاخت ألوان السجاد، والستائر، وتعطلت مفاتيح إنارة المصابيح، فمع محاولتي إضاءة بقية الأنوار لرؤية غرفة والدتي لم يتمكن أي مصباح من الاستجابة للضغط على مفاتيحه. كنت أطوف حولها متأملاً هذا البيت الذي أبقيت فيه أجزاء غالية من حياتي، وهي تقلب بصرها مع دوراني حولها؛ كاظمة أسئلة عن السبل التي أوصلت هيئتي إلى ما لم تتنبأ به من قبل.

ـ هل ترغبين في مصاحبتي؟

ربما كانت تقلب السؤال في أعماقها لتتغلب على عسر إجابتي على سؤالها المضاد:

ـ أمك أكثر عوزاً مني لماذا لا تحملها؟

ـ أمي تحت رجل آخر، ولم يعد لي في الدنيا إلاّ أنت.

كانت بحاجة لجزء يسير من الإلحاح لتجتاز أنفتها، تنبهت لذلك عندما انفرطت شكواها من وحدتها، ومماطلة الضمان الاجتماعي من قبول أوراقها، وأنها تعيش على حسنات المحسنين، فأغدقت عليها ما تشاء من الإلحاح متقبلاً مماطلتها السمجة، واعداً إياها بعيش رغيد في ظل خدم يلبّون رغبتها بمجرد أن تشير لهم.

كنت حذراً من أن تكتشف كرهي القديم لها، فتحاملت على نفسي، وأخذتها بين أحضاني مبدياً لها رغبتي في وجود شخص من دمي يخاف علي، ويؤنسني في وحدتي:

ـ لماذا لم تتزوج؟

تبعثر كل صبري عليها بأسئلة لست مستعداً لأن أجيبها عليها:

ـ أنت من سيختار عروسي؟

ضحكت، أظن أنني أول مرة أرى نصاعة أسنانها التي لم تتهدم بالرغم من كل القاذورات التي تخرجها من بينها!

ـ ما رأيك بتهاني؟

ـ من تهاني؟ تقصد تهاني صالح!

وانفجرت في وجهي:

ـ هل تريد أن تبحث عن فاجرة كجدتك!

صمتت للحظات، وانطلق لسانها:

ـ يقولون إن أباها حملها ليلاً لقريته، وزوجها هناك من غير أن يقيم لها عرساً.

ـ . . . .

ـ يبدو أنّها فضحت أهلها بفعل مشين، فلم يجد أبوها ستراً لفضيحتها إلاّ بين أهله، وفي قريته.

أخذت تجمع ضفائرها المتهالكة، ولسانها يسترجع عافيته:

ـ يجري في عروقك دم سنية فأنت لا تبحث إلاّ عن العاهرات.

تجرّعت شتيمتها لجدّتي كسابق عهدي، وأضمرت تأديب لسانها كما ينبغي في وقت لاحق، لم يعد لي في هذه الحياة من فجوة أفرغ بها كل حقدي، وغيظي فيها سوى هذه البيارة التي علمتني السباحة بين القاذورات.

كنت أدفعها بآخر صبري عليها، فتحركت صوب خزانة ثيابها لتجمع ملابسها المهلهلة، فألغيت مهمتها بوعود أن أتسوق معها لشراء كل ما تحتاجه بدلاً من ثيابها القديمة، لكنها حرصت على أخذ بعضها مع صندوق خشبي، وضعت فيه أقراطاً، وخواتم، وسلاسل ذهبية خرجت بها من حياتها، وكلما أستعجلها أخرتني بتذكر شيء لم تأخذه معها. آخر ما تذكرته نقابها، فأخذت تبحث عنه بين ملابسها المتراكمة داخل خزانة الثياب، مقسمة أنها لم تخرج منذ أكثر من شهر، وتنقلت بين الغرف بحثاً عن ذلك النقاب، مبدية غضباً فائراً لاختفائه فاستحثيتها:

ـ أنت لا تحتاجين للنقاب يا عمة!

هذا التنبيه أيقظ عدوانيتها، لتضربني على صدري:

ـ ما دمتم أنت في الوجود، فهناك أمثالك يضعون شهوتهم بين شقوق الحجارة الصلدة!

توتر حالها فجأة، كادت تتراجع لولا تبسطي معها، وإظهاري لها أني أمازحها.

كدت أخنقها، حينما عرجت على جاراتها لتوديعهم، كانت تطرق الأبواب المجاورة، وتصيح بالجارات:

ـ أستودعكم الله سأذهب مع طارق ابن أخي!

وعرجت إلى جارتنا بلقيس، وأطالت في وداعها لها، ومع تكرار تحفيزي لها بإنهاء وداعها، تبادلتا الأحضان، وهي توصيها:

ـ أخبري إبراهيم أني ذهبت مع أخيه إن جاء لزيارتي سائلاً.

وانشغلت بقبل الوداع، والأحاديث المستعجلة مع من بزغ إليها من النسوة، وقبل أن نمضي استشارتني في إبقاء مفتاح بيتها عند إحدى جاراتها كي تتفقده في غيابها، فأشرت عليها أنه باستطاعتها القيام بتفقده بنفسها كلما رغبت في ذلك. لم أتيقن من خروجها من الحي، إلاّ عندما ابتعدت بنا السيارة عن المكان تماماً، ورأيت الدهشة تتقافز من عينيها، وهي تقتعد سيارتي، وتذرف الأسئلة المتلاحقة:

ـ من أين لك كل هذا؟

كانت تتصنت على استقبالي لمكالمات نساء القصر المتوالية، ومع نهاية كل مكالمة ترغب في رفع سؤال، فتقاطع سؤالها ولادة مكالمة أخرى، أعادت نفس دهشتها عندما وقفت داخل (الفيلا)، وهي تقلب بصرها في كل زاوية من زواياها.

ـ أهذه لك!

ـ . . . .

ـ هذه لا يأتي بها إلاّ سارق، أو بائع مخدرات.

وصمتت قليلاً، وهي تتطلع لوجهي متفحصة، لتمرير فجيعة سكنت داخلها، وأطلقت سؤالها بخشية أن تكون إجابتي بالإيجاب:

ـ هل غدوت قواداً؟

** **

للكره رائحة، كما للحب رائحة.

ولكل رائحة زمن حي، تلد منه، وتعيش فيه، ومع استنشاقها في زمنها الذي بزغت فيه، تسكن في الذاكرة كالأيام، والأحداث، وحلوى الطفولة، وملابس العيد، وكراريس المدارس، وأغنيات المراهقة، ورائحة الحبيبة، والشهوة الأولى، وانبعاثها مرة أخرى يحفز الذاكرة على استرجاع تاريخها، استرجاع زمنها الذي مضى بلوعته، أو حسرته. كنت قد نسيت كرهي لعمتي، وها أنا أزرعها لأستنشق عبق البغض، والكراهية القديمين من خلالها.

داخل القصر كرهت رائحتي، ورائحة السيد، ورائحة أسامة، ورائحة الضحايا، وفي مكان ما، ستكون رائحتي باعثة للبغض، فهل تتأفف تهاني من استرجاع رائحتي؟ لا شيء يبقى فتياً في واقعه، أو ذاكرته.

مع وصولي للبيت أستشعر بالاختناق، فروائح عمتي المخلوطة، تنوس في زوايا الفيلا، وتفقص الزمن حكايات الزمن القديم، وتنتشر

كأسراب الجراد، تقتات على أعصابي، وتقلل من مساحات الصبر التي أتزود بها لأمد في صدري مساحات الاخضرار.

من ضمن الأسباب التي دعتني للمجيء بعمتي الرغبة في اكتساب مساحة من التحرر، والإفلات من قبضة السيد الخانقة.

ضقت ذرعاً بما أجد، فبعد خدمة متواصلة، دامت لست سنوات أبديت تقاعساً في أداء مهماتي، كنت محتاجاً لدعم عيسى، ليحررني مما أنا فيه، وعدني خيراً، ومع إلحاحي المستمر، وتذكيري إياه بأن عمتي في حاجة ماسة لي:

ـ أستطيع أن أجلب لك استثناء للخروج إليها.

ـ لا أستطيع أن أعيش معها في نفس الحي.

ـ لا لا، تستطيع أن تُؤجر، أو تشترى فيلا في الزهراء، أو في النعيم.

ـ أتمنى ذلك.

ـ دعني أشاور السيد.

مضت عدة أشهر، وعيسى يتقلب في سفريات لا تنتهي، وأنا أتابعه بالاتصالات، ورسائل الجوال، فجاءني ذات ليلة مفاوضاً:

ـ تحدثت بشأنك مع السيد، وهو يرى أيضاً أنك بحاجة لفترة راحة، ولكنه اشترط أن توفر البديل لمهمتك مع بقائك في الخدمة حالما يطلبك مع استمرار قائمة المحرمات عليك.

ـ حسناً

ـ هل فكرت في البديل؟

ـ أسامة.

ـ انس أسامة، فقد انتدب لمهمات أخرى.

ـ لا عليك سأتدبر البديل.

ـ الشرط أن تسكن مع عمّتك، ولا شيء غير عمتك، أفهمت؟

كان البحث عن بديل يرضي السيد مسألة شاقة، جعلتني أعصر ذاكرتي بحثاً عن شخص يمكن أن يؤدي المهمة من غير تأفف.

وخطر على بالي الاستعانة بأحد أفراد فريق الجلادين (المنحل)، لكن العقاب الذي نالهم وهشم اعتدادهم برجولتهم لن يجعل أياً منهم، يقبل بأداء المهمة مرة أخرى، هذا إذا تسامح معي، وقبل الاستماع لما أقول قبل أن يتذكر ما حل به، ولم يسقني علقم الكأس التي تجرعها.

استطعت أن أرتب شراء (الفيلا)، والمجيء بعمتي، وانشغلت لعدة أيام في البحث عن بديل فبرق وجه مصطفى القناص في مخيلتي، وجدته كما تركته، قابعاً في إحدى زوايا حارتنا لا يفوق من ارتشاف خمرته (المضروبة).

ويرسل صوته بكسرات شعرية يُنشنها، ويعلقها على سيرة الغلمان الذين تعلق فؤاده بهواهم، ولم يعد له من عمل سوى التعقيب عليهم في المدارس المتناثرة بالحي، والسؤال عن أوضاعهم الدارسية، وموصياً مدرسيهم بالاعتناء بهم، منتحلاً صفة العم أو الخال لأداء هذا الدور. كان له في كل مدرسة (وجه) يتابعه بالملاحقة، وكلمات الغزل، والدفاع عنه من بقية الذئاب المنتشرين في نفس المنطقة، وجدته كما تركته، سانداً ظهره في مركاز المحقن بعينين غائمتين:

ـ يا درش.

رنة الصوت أجبرت عينيه على التحديق المتفحص، فنهض مستبشراً، مرحباً، وغبنا في حضني بعضنا، كان حضنه دافئاً ولا زال يفور برائحته القديمة، استغراقي في حضنه بعث ذكرى تلك الليلة التي تشاركنا في نهش ياسر المفت، يبدو أنه مضى عليه زمن لم يضمه أحد إليه، افترق عني مبقياً يديه على صدري، متأملاً وجهي بابتسامة ناضجة:

ـ (والله زمان يا واد).

ـ (واد يلعب كبت في بطنك، مانت شايف يا درش انّا كبرنا).

ـ (مهما كبرنا لسّا القلب أخضر).

حدثته عن المهمّة التي جئته من أجلها، كان عقله المسلوب غير قادر على تبين نوع العمل الذي سيقوم به، وقدرت أن عمره المسفوك بين الأزقة لم يعد طريًا كما كان في سابق عهده، كانت مهمّتي الإتيان بالبديل، وليس معنيًا بإجادته لعمله.

ولم يكن مصطفى منشغلاً بشيء سوى تقديم واجب الضيافة، وكلما رفضت أصر على ذلك، فرضخت له، ليتحرك لبقالة حسين جابر، جالباً مشروباً غازياً لم يدفع ثمنه، ليلحق به حسين جابر متشاجراً معه، وهو يهمس له همساً، وصل لبقية الشارع:

ـ (يا راجل عيب عليك تفضحنا).

فسحبته للقصر، وهو مشطور بين نصفين: نصف يقظة، ونصف غضب على حسين جابر، أودعته ليد الخادم الفيليبيني، واستعديت لأن أعب من متع الحياة.

إلاّ أن مصطفى القناص خذلني سريعاً برفضه إتمام المهام الملقاة

على عاتقه رافضاً بتاتاً إتمام أي مهمة ما دامت أضواء الكاميرات مسلطة عليه.

كان هذا آخر لقاء به، وظللت أتحاشى رؤيته، أو مقابلته، فقد أقسم على قتلي حتى لو لم يعد له إلاّ نفس واحد في هذه الحياة!

** **

مع مجيء عمّتي، وانتقالي إلى سكن خاص بحجة رعايتها، ظننت أنّي تحررت من سطوة السيد.

غدوت أقيم ليالي خاصة في فيلتي، وأدعو إليها من أثق أنه لن يشي بسري. تغيبت عن حفلات القصر بحجج أوصلها للسيد بانكسار مبالغ فيه. في ذات ليلة أوقفني أمامه متفحصاً هيئتي:

ـ ما هي أخبار عمّتك؟

ـ جيدة، وتلهج لك بالدعاء.

أطلق ضحكة هستيرية وهو يردد (تلهج لي بالدعاء)، وقضم على شفتيه، وضحكته تترقرق في حنجرته:

ـ وماذا عن لسانها، هل أوصلته لها كي تستطيع أن تلهج لي بالدعاء!

تسمّرت في مكاني، وزاد في تهكمه بالضغط على أعصابي، وهو يقلبني بعينيه بازدراء، وحيرة مشتتة تسكن داخلي، وتبعثرني أمامه، (كيف عرف؟ لم يكن هناك من أحد). هذا السؤال جال في مخيلتي مراراً قبل أن أُجيب، أعرفه تماماً، يرمي بالسؤال، وينتظر إجابته من غير تباطؤ، أو مواربة. رحمني رنين جوال استقبله بالترحاب، وتركني في مكاني أجمع تشتتي قبل أن يعود.

كنت قد ضقت ذرعاً بلسانها، كل شيء في جسدها بدأ يتهدم إلاّ لسانها، أجدها تقف في وسط الحفلة ساخطة، ولاعنة النساء الحاضرات بعد أن تغسلني ببرميل من شتائمها اللزجة.

في البدء أردتُ اشهادها أني قادر على فعل ما أشتهي، تعمدت إنزالها من غرفتها لتشاهد الفتيات اللاتي ينتظرن أي إشارة مني، وتماديت في تقبيلهن، والعبث بهن على مرآها.

ثم ندمت على هذا التصرف، لأني أوجدت منفذاً لخروج لسانها بكل القاذورات التي حملتها عبر سنواتها الطويلة، فما أن يحل المساء حتى تقتعد صالون الضيوف وتصرف شتائمها لكل الحضور.

لم تكن تستجيب لرجاءاتي لأن تعود لغرفتها، تحوم كبرغوث اشتهى مواصلة امتصاص دم طازج، وصريرها المتواصل حمل النساء المتواجدات على مغادرة الحفلة، كل امرأة تأتي تقسم أن لا تعود، والجسورات منهن، يغيرن مواقعهن في الصالة، بالانتقال إلى الغرف المجاورة أو الخروج من الفيلا، ويجلسن أمام المسبح، مطالبات بإسكات صوتها كي يعدن، وإن عدن، عدن بمزاج فاتر نضبت نشوته، ويبقين متململات في انتظار الحصول على مقابل مادي لسهرتهن، وإذا تباطأت في الدفع، ألحين في طلب الثمن، فيتناولنه، ويغبن في الحال.

يظل لسانها طري الشتائم حتى إذ غابت النساء تفرغت للرجال محقرة تصرفاتهم، ومتهمة إياهم بالمخنثين، والقوادين، وتتناول زجاجات الخمر، وتريقها، أو تقذفها في اتجاههم مهددة بالتبليغ عن كل هذه المفاسد إن لم يخرجوا في الحال.

نفد صبري عليها، وفاض كل الكره الذي أحمله لها.

في ليلة قذفت بمنفضة السجائر «تيسير محمود»، وفضت هامته، فأسرع الجميع إلى مغادرة السهرة، وهم يحملون تيسير بحجّة نقله للمستشفى، وحين فرغ المكان، تحركت مثل دودة نهمة صوب غرفتها بعد أن بللت لسانها في أعراض المدعوين، ولم تكترث بما أحدثته من ضرر لتيسير بل توعدت أي قادم لهذا البيت بأن مصيرخروج دمه سيكون سابقاً لخروج قدميه.

فار غضبي، ولحقت بها، كانت مفاجأتها إمساكي بشعرها من الخلف، وشدّها بعنف، وإلقائها على أرضية غرفتها. لم أبالي بصراخها، قلبتها، وأوثقت يديها خلف ظهرها بأسلاك الهاتف، وحشرت في فمها كومة مناديل، كنت أتحرك بجنون وغيظ، ورغبة أن لا أسمع صوتها مرة أخرى، قلبت محتويات دورة المياه فوجدت شفار الحلاقة، حملتها جميعاً وعدت لها، أقعدتها في مواجهتي مباشرة:

ـ هل تذكرين أمي؟ جاء يوم القصاص.

. . . .

ـ سأجعلك تضعين لسانك في الفريزر، وتحاولين وصله.

ـ . . . .

ـ لا، سأجلب قطاً، وأجوعه لثلاثة أيام، وأعطيه لسانك، أعرف أنه سيصبح أكثر سفاهة في تاريخ القطط، لكن حظّه العاثر أوقعه لأن يبتلع كل زفرك!

ـ . . . .

ـ تذكرين قصة القط؟ ربما تناسيتيها لكنني لم أنس أبداً.

كانت عيناها جاحظتين، تهربان فزعاً لم أره بتاتاً يخرج من تلك العينين اللتين لم أكن أعرف لونهما، عندما نزعت كومة المناديل من فمها صرخت، واندلقت شتائمها لاعنة بطني سنية وأمي على السواء، وكانت آخر جملة سمعتها منها:

- حين تأتي من بطن وخمة تكون رائحتك كريهة، يا ابن العاهرة.

لكمتها على وجهها، وحشرت كومة المناديل في فمها كي لا تزيدني تهيجاً. حمحمة صوتها يشي بأنها مثابرة على شتمي بكلمات تبين رغم عدم وضوحها، فأطبقت على فمها للتقليل من جريان السب واللعن اللذين أوصلتهما لكل من تسبب في مجيئي لهذه الدنيا.

كنت أتمنى أن تسترحم، أن تذكرني بصلة الرحم، أن تقول احفظ عهد أبيك بي، أن تعتذر، أن تقول أي شيء غير الشتائم لكنها كانت ممعنة في دلق ما تبقى من سفالتها، وكأنها تعلم أنها لو لم تخرج شتائمها الآن فلن تقدر على إخراجها بعد ذلك.

فمها مفتوح على الدوام، فلم أجد صعوبة من التقاط لسانها، والقبض عليه بأناملي، توثقت منه تماماً، ووضعت رأسها تحت قدمي، وفي سرعة متناهية قطعت لسانها من المنتصف، بقي الجزء المبتور عالقاً في يدي، والدم يشخب على وجهها، ويسيل في جوفها، فهمدت تماماً.

أصابتني حالة الرعب، ظننت أنها ماتت، جلست أمام جثتها أنظر إليها، أقلب جسدها، أحسست بهشاشة عظامها، كرهي لها لم يجعلني أتعاطف مع شيخوختها، كنت أريدها أن تنهض لتسمع من غير أن ترد.

لم أرغب في أن تموت هكذا، كنت بحاجة لأن أسمعها ما لم تسمع من قبل، بقيت حائراً، ما الذي يمكن أن أفعله الآن؟

لم أكن في حاجة لأن أتذكر تفاصيل الحادثة، فقد عاد السيد بعد أن أنهى مكالمته، وناولني شريط فيديو:

ـ لسانها قذر ويستحق البتر!

بقيت متخشباً، صامتاً، خافضاً رأسي، ومنتظراً ما يأمر به:

ـ لم يغضبني ما فعلت بعمتك، الذي أغضبني خرقك لشروط عملك، ولم تلزم بما طلبته منك.

ـ . . . .

ـ النساء محرمات عليك ما دمت في خدمتي.

ـ . . . .

ـ كنت أفكر في إخصائك، ولكن هذا العقاب لن يجعلك مفيداً لي.

ـ . . . .

ـ الآن معك، جريمتك (وأشار لشريط الفيديو)، وأي خطأ آخر لن أرحمك، أفهمت؟

كنت محتاراً ماذا علي أن أفعل عندما منحني ظهره، وغادر موقعه، فبقيت متخشباً في مكاني، يبدو أنه كان يختبرني، خرج ثم عاد ليجدني كما تركني، فأطلق ضحكته المقززة:

ـ على فكرة أثبت براعة في الإجرام المتقن، فقد تخلصت من الخدم، والسائق بسرعة مهولة.

ـ . . . .

ـ عد الآن لعمتك، وعليك أن تعلم أنك لم تغب عن عيني، ولن تغيب!

تحركت من أمامه، وقد تبللت ملابسي كاملاً، وضحكاته تتبعني لآخر الممر.

** **

وصلت إلى غرفتي، وأخذت أشاهد شريط الفيديو.

كل ما حدث تم تصويره، كانت الصورة واضحة تماماً، والصوت على درجة عالية من النقاء.

كل هواجسي التي أخرجتها في تلك الليلة حاضرة، وحمدت الله أني لم أتعرض لشخصه بأي كلمة، كان التصوير متقناً، تم أخذ اللقطات من كل مكان انتقلت إليه، في (الصوالين)، وفي غرفة النوم، وغرفة عمتي، ودورة المياه، والممرات، ومشاهد تلك الليلة، وما حدث فيها من فض هامة تيسير، والنساء اللاتي خرجن مبكراً، واللاتي قبضن ثمن سهرتهن ومضين وهن يقسمن أن لا يعدن وإن وزنتهن ذهباً، والشتائم المصبوبة من لسان عمتي، وشدي لشعرها، وتغير الخدم، ومشهد مجيء الدكتور الذي أسعفها، وزياراته المتعددة، ونصائحه التي أسداها للمحافظة على صحتها، ووضعي للسانها في الفريزر، والشغالتين الجديدتين اللتين أفهمتهما أن عليهما الاعتناء بها لأنها وقعت على فمها، والقط الذي جلبته من أحد الشوارع، وحبسي له، ومشهد التشفي (من عمتي) عندما أجلستها أمامي ـ بعد أن استعادت صحتها ـ وتقطيع لسانها أمامها، وإطعام ذلك القط الجائع بتلك القطع المتناهية الصغر، قطعة قطعة، جريمتي مثبتة كاملة بالصوت والصورة.

** **

ضجّت باحات القصر الخارجية بالمتسولات.

نساء مختلفات الجمال والظروف اهتدين لداخل القصر لإشباع رغبات نهمة، كل واحدة منهن تحمل حكاية حزينة، تسكن داخلها، وتحاول ردمها بافتعال الحبور، والنشاط الزائدين، فليس لها من منفذ لأن تروي حكايتها على شخص جاء إليها باحثاً عن جسدها، وليس معنياً بتخفيف أحزانها.

تكون إنسانياً مع المرأة عندما لا يكون لك مغنماً بها، أما إذا تحركت شهوتك نحو جسدها، فكل فعل إنساني تقدمه لها إنما هو إجادة متقنة للفخ المعد لاصطياد جسدها.

لا أحد من رواد القصر يكترث بالنساء اللاتي يصطففن طوال النهار أمام بوابة القصر الرئيسة طلباً للإحسان، فيضخون عليهن كميات من اللوم، والزجر، ويحاربوهن لاستئصالهن كالأوبئة المعدية التي يخشى أن تمد أطرافها لمساحات أوسع.

تواجد هذه الطوابير من المتسولين، والمتسولات، كان محل دهشة رواد القصر، وأرادوا تنبيه سيد القصر لتواجدهم، فاكتفى برفع يده كإشارة أن لا يكملوا ملاحظتهم.

تتقاطر المعوزات إلى بوابة القصر الرئيس حاملات أطفالهن وحلم أن يجود عليهن بهبات مجزية تتساوى مع العنت الذي يجدنه من الحراس، وحرقة أشعة الشمس المنصبة على رؤوسهن.

يقتعدن الجهة المقابلة لبوابة القصر الرئيسة كالغربان وينفرن لجهات أخرى مع الزجر والنهر.

بدأ هذا التجمع بأعداد قليلة حين جئن للحصول على زكاة الفطر،

فتناثرت عليهن الصدقات الوفيرة، فتداعين من أطراف جدة للظفر بهذه العطايا، وانجذب لتجمعهن كل المعوزين، فاكتظت باحات القصر الخارجية بمئات المفترشين، واختلطت أصواتهم ببكاء الأطفال، وكلمات الاستجداء، باعثة همهمات عظيمة طرب لها السيد، وانتشى، شعر بالمتعة تتمدد في أعماقه، وتدخله في نشوة جديدة لم يتذوقها من قبل، فأمر الحراس بالتسامح مع افتراشاتهم، وإبقائهم في الحدود الفاصلة ما بين القصر وباحاته الخارجية مع تصبيرهم بقرب توزيع الهبات.

خرج السيد ودخل القصر مراراً، يعبر هذه التجمعات بسيارته متمهلاً ومتعجباً من تلك الهيئات الرثة التي سكبت عليه الأدعية، والأمنيات بالعمر المديد، وكان لصوتها رنّة مختلفة تصل لأعماقه مباشرة، فقرر أن يقوم بنفسه بتوزيع الهبات والصدقات، فتحلقوا عليه وكادوا يمزقون جسده وهو يتوسطهم وينثر أوراق مالية فوق الرؤوس، هذه المتعة قادته لأن يتحول إلى محسن يوزع تبرعاته للجمعيات الخيرية ودور العجزة والمسنين ويحرص أن تتواجد الصحافة في كل زيارة يقوم بها لهذه المرافق.

كانت محض متعة انقشعت سريعاً، وبقيت أعداد المتسولين تتوالد، ومع وصول ضجره إلى مداه، كانت تقف سيارة مصلحة مكافحة التسول لتقوم بمهمتها، وتعيد الهيبة لباحات القصر.

- الإنسانية المزيفة تنتهي مع انتهاء غرضها.

فتلك الأجساد المهلهلة الرثة لم يعد لها مكان أمام بوابة القصر،

بينما ثمة أجساد لدنة فوارة تعبر بوابة القصر وتنهب المال والهدايا بأجسادها وتعطفاتها وضحكاتها الرنانة.

نساء يقمن بعملية تبادلية، يهبن المتعة، ويأخذن ما شئن من غير منّة، جسد واحد من أجساد نساء القصر يتثنى في سهرة ليلية صاخبة، تجب صاحبته مالاً يوقف أصوات المستجديات اللاتي نثرن دعواتهن بلا كلل، أو ملل للحصول على تكلفة وجبة واحدة.

لمرام جسد باذخ الإغواء والفحش، قفز بعمرها الصغير الذي لم يتجاوز الثالثة والعشرين، لمرتبة البغايا المحترفات. امتازت بسرعة التعلم في إظهار غوايتها. حينما دخلت إلى القصر لأول مرة كانت ضمن وفد الفتيات اللاتي يحضرن لتزيين السهرات بالرقص، والضحك، وتقبل ثقل وخفة أولئك الأثرياء، ومع نهاية السهرة، يأخذن مبلغاً كبيراً من المال، ويمضين على أمل العودة في الليالي التاليات.

في أول مرة كانت متحفظة، ولم تبد مفاتنها كما يجب، وعندما وجدت أنها تقاضت مبلغاً زهيداً يقل عن صويحباتها، خلعت عن نفسها ترددها، وانتفضت في حلبة الرقص تاركة فتحات عارية من جسدها كفخاخ لاصطياد العيون المبحلقة. وعندما رأت أنه تم إبخاصها حقها، تقبلت بسهولة المساومة على المبيت مع أحدهم.

مساومتها كانت متواضعة، لم تكن تثمن تسعيرة الرغبة، ولولا أن التقطتها عين السيد لدُهِكَ جسدها بثمن بخس.

عادت سعاد إلى مخيلتي، وهي تساومني على ريال صحيح مقابل غرس مسماري في خشبتها. تذكرت طلبها الأخير، وفكرت أن أحدث السيد بشأنها لكني تراجعت خشية من رفض طلبي، وقررت إدخال عيسى الرديني كشفيع لتحقيق أمنيتها.

كانت سعاد من ضمن اللاتي تجمعن في باحات القصر الخارجية طلباً للمعونة، تجر خلفها ابناً (منغولياً) لاستدرار شفقة مضاعفة.

رأيتها فيما كنت أُشرف على تنظيم تواجد أعداد المعوزات، وإحصاء عددهن، واستلام معاريضهن، بعد أن ملّ السيد من الخروج إليهن، ونثر الأموال على رؤوسهن.

رأيتها تقف واضعة قطعة كرتون على رأس ذلك الطفل المنغولي، لتحجب عنه أشعة الشمس الحارقة، وتجرعه الماء من قنينة انتصفت، فطلبت من أحد الحراس استدعاءها لغرفة الاستقبال، فهرعت مستبشرة غير عابهة بمقولات الغمز واللمز المنبعثة من أفواه النسوة المجاورات لها في الاقتعاد. انتشلت ابنها من الأرض عندما لم يستجب لسحبها له، ومع دخولها لصالة الاستقبال استنشقت الهواء البارد، فأخذت تلهج بالدعاء:

ـ اللهم رطّب علينا قبورنا كما بللت الشجر اليابس في الصحارى بغيثك.

بادرها أحد حراس الاستقبال بغلظة قبل أن تصل إليّ:

ـ (ما حاجتك يا امرأة).

ـ (وش حاجتي يا خويه، حلم الجيعان عيش، واحد منكم طلب...)!

وقبل أن توصل ردها، نهرته، فانتهر، فتقدمت صوبي، ووقفت أمامي مباشرة، وهي لا تزال تذرف الأدعية الحارة، غير مكترثة بتغطية وجهها كما يجب، أو صيانة نهديها الذابلين الظاهرين من فتحة فستان

مهترئ، غدت كهلة كُسِرَ سناها الأماميان، وخط الشيب مفرق رأسها، وسودت محاجرها.

ثمةّ نساء يذبلن كالأعشاب المتطفلة.

وقفت أمامها مباشرة منتظراً أن ينير وجهها دهشة لرؤيتي، كانت تغمغم منكسرة، وتذرف أدعية ألفتها ألسنة المستجدين، وذكر حاجتها، وعوزها بدءاً من عدم مقدرتها تسديد فاتورة الكهرباء، وصولاً إلى عجزها عن تطبيب ابنها.

ـ أهذا ابنك؟

ـ نعم، ولديّ ثلاثة آخرون يكبرونه.

ـ ألا يعمل زوجك؟

ـ زوجي داخل السجن، حكم بعشر سنوات، مضى منها أربع.

الأيام حُفر وجبال تعترض طريقنا، هناك من يصعد، وهناك من يهوي، وسعاد منذ أن عرفتها وهي في القاع، وأنا لا أبعد عنها كثيراً، نتماثل في السقوط، هي استقرت في القاع، وأنا لا زلت أهوي، وأرى موقعي أدنى منها كثيراً.

أخرجت محفظتي، ونقدتها أربعة آلاف ريال، فشهقت، وأرادت تقبيل يدي، فسحبتها، محاولاً إحياء روحها:

ـ هذا سداد دين مضى عليه زمن!

تلعثمت، وهي تمسك بالمال بيديها تاركة ابنها يتلهى في زاوية قريبة منها.

ـ أنا لم أعط أحداً مالاً في يوم من الأيام، فهل تسخر مني، أو أنكّ مخطئ، فخذ مالك.

عند جملة (خذ مالك) تغير صوتها وغصّ عميقاً، فضحكت، وأنا أربت على كتفها:

ـ لك نصف ريال كدين قديم في ذمتي يا سعاد.

كنت فجًا بهذه الإجابة، فتهدمت على تهدمها، وهي تذرف الاستغفار، وتلملم عباءتها مرة أخرى، معمقة النظر في وجهي:

ـ أتعرفني؟

ـ أنت التي لم تعرفيني!

ـ الأيام سحقت كل شيء، ونسيت أن أقول لك إني مصابة بقصر نظر، وليس لدي نقود لشراء نظارة أمر بها الطبيب.

ـ أنا طارق، طارق فاضل.

سحبت ابنها، وسلكت طريقها للبوابة، بقيت أرقبها. متحسراً على انطفاء كل شيء في تلك الطفلة التي كانت في يوم ما عروسة الحي.

دفعت الباب مرة أخرى عائدة، ونادت عليّ:

ـ طارق، انتظر.

فتحركت صوبها جاذباً ابنها لداخل غرفة الاستقبال بعد أن تركته في الخارج:

ـ لو كان لي دين عندك، وأنت قادر، فحاول إخراج زوجي من السجن، يقولون لو حصل على التماس يخرج ثاني يوم.

ـ تأمري يا سعاد، سأحاول بقدر ما أستطيع.

تهلل وجهها، ولم تنقطع دعواتها، فأخرجت ورقة لتسجيل معلومات عن زوجها، فغاص قلبي في جوفي، وهي تُملي عليّ معلومات عن زوجها:

ـ هو صديقك، ياسر مفت، مسجون في سجن بريمان بتهمة ترويج مخدرات.

تصلبت تماماً وهي تردد:

ـ هل تعدني أن تحاول، لو فعلت تكون أسديت لي ديناً لن أنساه ما حييت.

واستدركت بضحكة (يبدو أنّها استعادتها من طفولتها المبكرة):

ـ طبعاً ليس لدي ما أعطيك الآن، ولكن تذكر أننا عشنا طفولة واحدة، كانت حلوة بالمرة!

مضت، وأنا أتبعها، وهي تتلفت بين الحين، والآخر صوب شبحي الظاهر لها من زجاج غرفة الاستقبال، كانت لها ثلاث حركات: مرة تجذب ابنها، ومرة تلتفت صوب جهتي، وثالثة تمسك بشق عباءتها الخلفي كي لا يبين!

أخذ جسدها يتلاشى من ناظري، يغوص بين الأجساد المتجمعة حول القصر.

ـ الجسد ركوبة منقرضة، هي الروح الباقية، تبقى منطفئة أو متوهجة.

أظن أنّ سعاد سألت عن عمّتي وأمي، فقفزت على سؤالها، أكره ذكر هذه العمّة، ومع ذلك تقفز لمخيلتي، تذكرت أنّي لم أزرها منذ شهرين مضت، فهل أكل العذاب جسدها، ذلك الجسد الشبيه بعمود فولاذي بقي صلداً أمام مرور سبعين عاماً على وجوده.

ـ كيف ذبل جسد سعاد، ولم يذبل جسد عمتي، كيف ذلك؟

** **

فكرت بالخروج لإمداد عمتي باحتياجاتها الضرورية في سجنها الذي أقمته لها، كان عصياً علي مغادرة القصر في مثل هذه الساعة.

ومع اشتراكي في (خدمة جاهز) إلاّ أنّ خروجي من القصر لن يمكنني من العودة في الوقت المحدد لو وصلت رسالة التنبيه.

داخل القصر ليس للمخدومين وقت محدد للنوم، عليهم أن يكونوا مستيقظين طالما عيناه مفتوحتان، في يقظته يتعمد السؤال عن كل شخص، فإذا أُخبر أنّه نائم، أو غير موجود يأمر بإنهاء خدماته في الحال لذلك لجأ الكثيرون لسرقة النوم حالما يغفو سيدهم ومقابل هذه السرقات راجت تجارة سرية داخلية بين الخدم المكلفين بمرافقته إلى غرفة نومه، فهؤلاء يمررون خبر نومه باشتراكات يومية لبقية موظفي القصر، والشخصيات المعنية بمرافقته حالما تفتح عيناه تصلهم رسائل الـ MES تخبرهم باستيقاظه، ولكي لا ينفضح أمرهم ظلت الرسائل الخلوية مشفرة ترسل للمشتركين في خدمة التنبيه التي أطلق عليها عملية (أنا جاهز)، وزيادة في الحرص كانت نصوص الرسائل تتغير يومياً، وتبقي على كلمة (جاهز) في أي صيغة نصية ترسل عبر تلك الرسائل.

جوزيف عصام قاد هذه الشبكة بتمويه مضاعف، وملتو كي لا تكشف شخصيته، والوصول إليه يحتاج لوسائط متعددة تسد منافذها، وتغير طرقها بين الحين والآخر، والانضمام إلى هذه اللائحة يحتاج إلى وفرة مالية، وسلوك محتشم مع جوزيف عصام الذي يبدي تديناً مشوباً بقلق.

وجد مرافقو السيد أن هذه الخدمة تدر عليهم دخولاً تفوق دخولهم الشهرية، فبرعوا في ابتكار خدمات أخرى تقدم لضيوف القصر، وندماء السيد في عمليات يغلب عليها التكتم الشديد.

توطدت علاقتي بجوزيف عصام الذي وجد في ظلمتي الروحية مادة خصبة ليتقرب بها إلى الله وانتشالها من العذاب السرمدي. محاولته الحثيثه لجذبي نحو ديانته طغت على صداقته لي. ومع ادراكي لمسعاه لم أحاذر منها أو أظهر امتعاضاً لتلك المحاولات البائسة.

ـ إياك أن تخرج هذه الليلة!

ألقى جوزيف هذا التحذير عبر مكالمة قصيرة، فخضعت لآخر قرار توصلت له، وكففت عمّا عزمت عليه، متخلياً عن مغامرة الخروج في مثل هذا الوقت، ولتمت عمّتي، وتريحني من التفكير بها على الدوام!

** **

في كل الأدوار التي تنقلت لمزاولتها داخل القصر لها أهميتها المنبثقة من المنصب الذي أشغله، كانت بداية عملي داخل القصر سيئة، ولم أكن ظاهراً للأعيان، يتعرف عليّ فقط من أوقعه حظه العاثر في طريقي.

كنت أبدو زائداً، ثؤلولاً استقر في محاشم السيد، فستره عن الأعين، ومع الأيام تسربت إلى مهام أخرى. لم يكن لي موقع محدد. أتنقل وفق المهام التي يطلبها مني السيد مع الإبقاء على عملي الأساس وقت الحاجة.

ومن ضمن مهماتي داخل القصر الإشراف على صرف مكافأة النساء اللاتي يحضرن للمشاركة في إحياء الليالي الحمراء.

مهمة تبدو خسيسة في ظاهرها إلاّ أنهّا تغدو ذات مكانة مرموقة حين تتطاير الرغبات من عيون الحاضرين بحثاً عن التواصل مع فتاة عبثت بألباب الحضور، ولم يجرؤ أي منهم على مفاتحتها أمام سيد القصر.

نخبة من أعيان البلد يتخلون عن وقارهم هنا، يخلعون أنفسهم من أنفسهم، ويستلقون على أبسطة الملذات كما لم يفعلوا من قبل، وقبل أن تنتهي الحفلة يكونون قد أضمروا النيات على معاودة ما لم يكملوه في تلك الليلة.

وفي كل ليلة لا يكملون رغباتهم، يؤجلونها لمواعيد قادمة، لهذا تتواصل السهرات، وأبقى محل اهتمامهم كلما جنحت إحدى الفتيات عن رغباتهم.

أقوم بتزويدهم بأرقام الفتيات، أو بدور الوساطة خلسة، وبحذر شديد، فلو علم السيد أنّي أُوزع فتيات قصره لمريديه لخسف بي الأرض.

بحوزتي جميع أرقام السيدات اللاتي يتم طلبهن لإحياء حفلات القصر بالرقص، و(الفرفشة)، والتنقل على الضيوف لإيناسهم.

مع مجيء كل واحدة، أحرص على فتح ملف خاص بها، يحمل نبذة عنها، وصورة لها ـ إن أمكن ـ ومجالات اهتماماتها، ومدى خطورة الاقتراب منها، وأوضاعها الأسرية، وحالتها الاجتماعية، أغلبهن يمنحنني معلومات خاطئة، فألجأ إلى الصديقات. كل صديقة تخبر عن حالة صديقتها، وكل واحدة منهن تنبش في سيرة الأخرى، حتى إذا جمعت المعلومات المتضاربة أوثق المتطابق منها.

أحتفظ بهذه الملفات بعيداً عن أعين رجالات القصر، وألجأ إليها عند الحاجة.

شرعت في فتح هذه الملفات، والاهتمام به حينما اكتشفت أني أجلس على بيضات ذهبية، يرغب في لمسها، أو الاحتفاظ بها ثلة من

رواد القصر، تنبهت لذلك عندما انفرد بي رجل الأعمال صافي المحمود منوهاً عن رغبته في الحصول على هاتف داليا، لم أكن حريصاً على حفظ أسمائهن لأن لكل منهن اسماً مستعاراً تبدله كما تبدل فساتين سهرتها، واكتفيت بمهمة ملء المظاريف بمبالغ نقدية وفق إرشادات أتلقاها من سيد القصر مع بدء الحفلة، لأقوم بتوزيع تلك المبالغ المالية على الفتيات مع انتهاء كل سهرة.

صافي المحمود تعب وهو يحاول تقريب أوصاف تلك الفتاة التي تدعى داليا، وكلما أجهد نفسه في الوصف أبديت عدم المعرفة بها، ومن تلك الليلة حرصت على أخذ أسماء كل الفتيات الحاضرات، وأرقام هواتفهن الخلوية، وبدأت في متابعة سيرة كل فتاة على حدة، وجمعها، وتنسيقها في ملفات احتجت إليها فيما بعد.

حين يحين موعد الحفلة تتزاحم السيارات الفاخرة على بوابة القصر في تفويج نساء للداخل تم انتقاؤهن بعناية، حيث تعبر الفتاة المختارة عدة أذواق، وكأنها في مسابقة جمال؛ حتى إذ تم ترشيحها لأن تكون ضمن الفتيات اللاتي يحضرن الحفلات الخاصة تكون الفتاة قد اجتازت فحصاً عسيراً.

يحدث هذا من غير علم الفتيات.

في السهرات الخاصة تتواجد النخبة من النساء. من كل لون وعرق تم جمعهن، ولكل منهن ميزة تمنحها التفرد بين بقية الجميلات، وتقتصر الحفلات الخاصة على مدعوين محددين، يهبون لاستراق اللحظات الماتعة، وينفقون من سعة. كل النساء اللاتي يحضرن الحفلات العامة تتقافز أمنياتهن للدخول إلى دائرة الحفلات الخاصة، فوصول الفتاة إلى

هذه الدائرة تكون قد بلغت المنى، فيمكنها أن تتحكم فيما شاءت، وأن تحصل على الأموال بيسر وسهولة.

في مهاتفاتي لمرام أتلكأ في إظهار ما كُلفت به، كان هذا قبل أن تتحول إلى الأثيرة لديه، كنت قد وضعت عيني عليها إلاّ أن فتنتها كانت بحراً متسعاً بحاجة لمن يقدر على الإحاطة بتنافر أمواجها.

في أول مرة نقدتها ثمن حضورها أبدت امتعاضاً من إبخاس حصّتها مقارنة بصديقاتها اللاتي شاركتهن الحضور، كنت راغباً في زيادة نصيبها إلاّ أن الإرشادات تقضي بعدم تجاوز الحدّ المقرر من قبل السيد.

براءتها، وجهلها بالأجواء التي دخلت إليها جعلتها تبدو غافلة عمّا يحاك لها من هذا المجيء، وأردت أن ألعب معها دور الملاك بتجنيبها مغبة الانغماس في هذه الأجواء، فأجريت مهاتفة حاولت فيها إبداء خشيتي على سمعتها، ومستقبلها، فأغلقت جوالها بجملة عاهرة صفيقة.

بعدها تنبهت لعيوني الملاحقة لمفاتنها في كل سهرة تحضرها، وقبل أن أصل إليها كانت عينا السيد قد وقفت عليها، فتحولت إلى محظيته، وتم حظر بقية الرجال من الاقتراب منها، لم تعد تمر على الصندوق لأخذ حصّتها كما كانت تفعل سابقاً. غدت تمتلك قلب السيد، والمال الذي تريده يكون في رصدها بمجرد أن تتلفظ بالمبلغ الذي تريده.

أهميتي تتوهج في مخيلة الفتيات اللاتي يصلن إلى القصر حديثاً، وكلما توغلت أي منهن في علاقاتها داخل القصر أغدو في مخيلتها الباب الذي لا تحتاج لمفتاح لفتحه، أغدو بالنسبة لها ممراً مألوفاً، أو عتبة عرفت موضعها في القصر، ولم تعد بحاجة لتتنبه إلى موضعها فقط عليها أن تضع عليها قدماً، وتنقل القدم الأخرى لداخل الجنة!

فتيات، ونساء يتغيرن في كل حفلة، وكل واحدة منهن تبحث عن البقاء ضمن الكوكبة الأثيرة، لذلك حرصن على مذاكرة مزاج السيد، وحفظ تقلبات مناخه عن ظهر قلب من خلال تلقينهن من قبل من أوصلهن لهذه السهرات.

إغداق الأموال على النساء لا يحدث أمام سيد القصر، فهو الوحيد الذي يحق له نثر النقود على رؤوس الحاضرات، والمحظيات من صديقاته. يهب لهن مبالغ مجزية، ويحجر على المدعوين منافسته في هذا الفعل.

«عماد بنوني» أحد المدعوين الجدد، والقادم من خزائن (بطاقة سوا) لم يكن على علم بهذا الحجر، ومع انتصاف الحفلة تمايلت به نشوة الشراب، فأخرج دفتر شيكاته، وكتب لكل فتاة من الحاضرات مبلغ خمسين ألف ريال، كان منظره سخيفاً، وهو ينحني أمام كل فتاة يسألها عن اسمها كاملاً، ويدونه غارساً الشيك بين نهديها.

الفتيات يعرفن ردة فعل السيد، فابتذلن هذه الهبة أمام صاحبها مباشرة، فما أن يغرس ذلك المخمور شيكه في صدر إحداهن حتى تكون حركتها أسرع من تثاقل خطواته، وتنقلاته بين بقية الفتيات، فتقوم بتمزيق الشيك، ونثره على رأسه قبل أن يغادر وجهها. هذا الفعل المتكرر من الفتيات أدخل السرور لقلب السيد، فقهقه كثيراً، وهو يشير للخدم بحمل ذلك المخمور، وقذفه لخارج القصر.

لم ينته الأمر عند هذا الحد بل صرخ على «جوزيف عصام» المشرف على توجيه الدعوات سائلاً عمّن دعا ذلك الصعلوك لدخول حفلته الخاصة، ومع معرفته الأكيدة بالداعي إلاّ أنه قام بهذا الدور كي

يوصل الرسالة لبقية الحضور. لم يتريث لسماع الرد بل صاح متذمراً: جميع من لهم صلة بدعوة هذا المتخلف، عليهم مغادرة القصر، ولا يحضرون مجلسي بعد الآن.

لاذ الحضور بالصمت حيال تلك الشتائم المتعاقبة، وتخشبوا في جلستهم كنوع من التبرؤ من معرفة ذلك الشخص، فأشار بإصبعه صوب «هشام جوهرجي»: أنت يا كلب من أمرك بدعوة الحثالة من أمثالك إلى هنا؟

غاص هشام في صمته فهو يعرف أن التعقيب على هياجه بالاعتذار، أو الرد كفيلين بسحق عظامه، فاختار الصمت على أن يتفوه بكلمة، تحرك سيد القصر صوبه بتثاقل ممسكاً بأذنه، وباصقاً في وجهه:

ـ لا أراك بعد اليوم في مجلسي، فهمت، أم أفهمك؟

هز هشام رأسه المعلق بين يدي سيد القصر من غير أن يمسح البصقة الجارية على خده الأيمن، ومع انفلات أذنه، انسل من المجلس بعجلة بينما صوت السيد يوصله إلى نهاية الارتباك:

ـ يا حيوان أتجرؤ على إعطائي ظهرك!

فاعتدل، وأخذ ينسحب بنقل خطواته للخلف مانحاً وجهه للسيد، وناثراً كل الاعتذارات التي استطاع لسان دفعها لخارج ارتباكه وذلّه.

تعكرت الجلسة بما فيه الكفاية، ولم يكن أحد من الحضور قادراً على إبداء أي فعل خشية من اتساع دوائر غضبه. الجميع ظل منتظراً ما الذي سيفعله تالياً.

عاد إلى مقعده، تحفّ به مجموعة من الخدم والمشرفين مطأطئي الرؤوس، ومتحيرين فيما يجب فعله. كنت أعلم أن سبب تأخر مرام

كفيل بجعله يفور غضباً لأتفه الأسباب، كانت تعرف الوسائل الكفيلة بجعله هادئاً راضياً.

ظل المجلس واجماً، الكل صامت، وأخذ كل منهم يعبث بنظره في اتجاهات مختلفة متحاشياً النظر في اتجاه السيد.

ران صمت طويل، وحين خطت مرام بخطواتها داخل المجلس، قفز مستقبلاً إياها، ولاثماً خديها:

ـ فديتك، ما الذي أخرك يا غالية؟

ـ أمي كانت معتلة.

ـ في الحال، يكون أطباء البلد كلهم تحت قدميها.

ضحكت في وجهه، وهي تحضنه بين ذراعيها:

ـ الله لا حرمني منك.

وزيادة في تدليله قبلته بين عينيه، فانتشى، والتفت منادياً على محاسبه «عبدالجواد خيري»، وهمس في أذنه، لينطلق عدواً، ويعود حاملاً حقيبتين، ومنتظراً إشارات السيد الذي التفت للفتيات ضاحكاً، وأمر بصرف مائة ألف ريال لكل فتاة مزقت شيك عماد بنوني، وتناول إحدى الحقيبتين المجاورتين لجلسته، ونثر أكثر من مليون ريال أسفل قامات الفتيات المتثنيات على أغنية: (عارفة أحلى حاجة فيك إيه).

إزاء فعله هذا تصايحت الفتيات بدلال فائر وهن يدخلن لحلبة الرقص باذلات جهداً مضاعفاً في هز أجسادهن بإغواء مثير.

غالباً يكون معتل المزاج. مسامرته جالبة للضجر، والثراء معاً. لا أحد يتحدث إلاّ بعد أن يأخذ الموافقة بإيماءة من رأسه.

كان الحديث في السياسة ممنوعاً منعاً باتاً، فليس مسموحاً لأي أحد بنقل خبر عمّا يحدث داخل البلاد، أو خارجها، وقد دأب على التزود بالأخبار قبل الدخول إلى أي سهرة، حيث يقدم له مستشاره الإعلامي «بشار اليفلا» تقريراً موجزاً عما يحدث في العالم فيكتفي به من غير الحاجة لأن يسمع أي شيء يكدر مزاجه أثناء استمتاعه بالشراب، والنساء.

يضطر على مضض أن يسمع عنوان خبر ما، وأثره على سوق الأسهم حين تدار دفة الحديث عن ما يحدث في السوق إلاّ أن المتحدث سرعان ما يهمل الأحداث السياسية، وينتقل لتخصيص حديثه في نبوءات جريان السوق خلال الأيام القادمة، أو ما الذي يجب فعله من قبل المجموعات المنضوية تحت قيادة السيد لإحداث التغيرات صعوداً أو هبوطاً.

غضب كثيراً من محمد الركابي الذي لا يمل من التعليق على كل حدث سياسي من منطلق قومي حمله الركابي من عهد قديم، كان متابعاً لمحاكمة صدام حسين، ويطيب له تمجيد مواقف صدام في تلك المحاكمة الماراتونية، في ليلة كان السيد ثملاً، وسمع الركابي يقول:

- ستنكشف كل حقائق المنطقة على لسان صدام البطل.

فقذفه بحذائه لاعناً إياه، وصدام على السواء:

- يا حيوان مهمتك تقديم القهوة لا التنظير في السياسة.

من بعد هذه الحادثة لزم محمد الركابي غرفته، ولم يسمح له بمغادرتها بتاتاً.

ويقال إن الركابي نفسه هو الذي اختار البقاء داخل غرفته كسجن

اختياري حزنا على إذلال شيخوخته، وسقوط كل الأحلام التي تغذى بها في زمن غابر.

لم يعد خروج الركابي أو بقاؤه محزناً لأحد، غدا إذلال شيخوخته المحزن بالنسبة له، كان يحس أن الزمن يسجنه بالحياة الطويلة، يبقيه ليعذبه. في صباح تنفيذ حكم إعدام صدام حسين أقلع عن الذهاب لصلاة العيد. أخذ يلعن الدنيا بأسرها، وأقدم على حبك أنشوطة من النايلون تدلت من معكوفة حديد. استقرت في سقف غرفته، وأوصلها بحلقه، وعصب شماغه على عينيه، وارتفع على كرسي ربط قوائمه في عكرة الباب الداخلية (مستغلاً باب غرفته الذي يفتح للخارج)، وأخذ ينتظر أي زائر ليجذب الباب حتى يلقى حتفه، مضت ساعات طوال، وهو ينتظر زائراً يهبه الموت، وعندما لم يطرق بابه أحد، جبن من أن يقدم على إنهاء حياته بيده، فنزع الأنشوطة من على ترقوته، وأخذ يبكي. ووصلت به قناعاته لأن ينتظر خاتمته كما تشاء أن تأتي.

وأخذ يطهر أثامه بدعائه الذي استهواني كثيراً:

ـ اللهم يا الله، يا ربي ورب كل شيء إني أحبك بلا قيد أو شرط، فأحببني كما أحبك.

** **

ليلة صاخبة أكلت يقظة السيد وندمائه.

خيوط الفجر تتسلل إلى المقصورة الرئيسة، تقلب أجساداً تشبعت بخدرها، وغدت كلماتهم نيئة لا أحد يتذوق طعمها، تناثروا في أوضاع مزرية، كانت جلستهم في أول الليل دائرية الشكل، وأخذت في التشكل، والتقلب مع أنغام الموسيقى الصاخبة التي عزفت من قبل فرقة

موسيقية، تعهد بإحضارها «أبو هاني» مصطفياً مطربة من دولة خليجية لأداء الوصلات الغنائية الراقصة، فهيجت الحضور مراراً، وجعلت أبدانهم تتخلص من تخشبها برقصات تقترب من القفز أكثر من اقترابها للرقص المتقن.

وتفننت الفتيات في إظهار مهارة أجسادهن بتثني قدودهن، وهز أردافهن بتموجات قاهرة. آخر نهوض جماعي شاركوا في تبديد توتراتهم فيه على أغنية (فوق هام السحب) ثم انطفأوا فجأة ليغادر العازفون مع المطربة مواقعهم من غير إحداث ضجّة تذكر.

وقبل أن تنشط نسمات رطبة متكاسلة في نفث الليل بعيداً، انعكست أضواء القصر الخلفية على سطح البحر ممتزجة بأشعة الفجر مشكلة لوحات فيروزية مشوبة باصفرار باهت يشع من جهة القناديل المعلقة على الشرفات المطلة على مياه البحر.

في هذا الخدر القاتل نهض «جلال المعيني» مغالباً سكرته في نصف استقامة، ودار حول نفسه حتى ثبت في اتجاه الشرق، ورفع صوته الرخيم مؤذناً، ولم يكمل أذانه إلاّ وقد تحرك في كل الجهات، ومع انتهاء الأذان كان وجهه متجهاً نحو الشمال!

وكل من كان منكباً على وجهه استجاب للأذان بحركة لا إرادية، فيما كان الخدر يأكل تحركاتهم غير المنضبطة، «جوزيف عصام» احتاج لمن يرشده عن ماذا يفعل بالتحديد، فقد رغب مشاركتهم الصلاة كمجاملة أراد بها إلغاء حواجز الأديان، فاصطف معهم، منشداً ترتيلاً من الاصحاح الثاني، فنهره «خالد عزم»، وأوصاه بالصمت والاصطفاف منفرداً إن أراد الصلاة.

وفي صفين متعرجين اصطف الجميع خلف «المعيني» الذي راح يدور يمنة ويسرة منادياً على النساء للاصطفاف في آخر صف بجوار «جوزيف عصام»، وقبل أن يكبر تكبيرة الإحرام جذبه سيد القصر (الذي نهض متثاقلاً) من ترقوته:

ـ أنا من يؤم بالصلاة يا حمار!

فسقط «المعيني» على ظهره، ولم يحاول النهوض بتاتاً فقد وجد نفسه بالقرب من زجاجات الخمر، فأخذ يعالج إحداها، ويعبُّ مما تبقى منها.

أخذت لسان سيد القصر تتلعثم في قراءة القرآن، وتعالج عسر النسيان الذي ران على ذاكرته إزاء محاولته تذكر سورة الهمزة، فانقلب لسورة الشرح، وأخذ يلوك بدايتها: (ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك. . . . .) من غير أن يتجاوز كلمة (وزرك)، وعندما عجز عن استكمالها صاح:

ـ أنبئوني يا كلاب!

فلم يجد أحد من المأمومين يكمل له الآية التي تعسر بها، فانثنى ساجداً من غير ركوع، وعلى تلك السجدة خر سيد القصر ـ نائماً ـ في مكانه، فاقتدوا به المأمومون برفع الشخير من أفواه بعضهم.

فتنقل الخدم بحذر زائد بين تلك الأجساد المترامية لجمع ما تناثر من زجاجات وكؤوس، وانسل من بقي يعالج نعاساً ثقيلاً إلى غرف النوم، تصاحبهم رفيقاتهم لمعالجة شبق تمدد في أوصالهم طوال الليل.

أضفت لجريمتي جريمة أخرى تعلقني من رقبتي إن اكتشف أمري.

لم أتعظ من ذلك الشريط المصور الذي ناولني إياه السيد. كانت حيرتي تتشقق بحثاً عن الوسيلة التي اتبعت في تصوير ما حدث. تفرعت تخميناتي إلاّ أنها لم تصل إلى حقيقة ذلك التصوير، واستقريت أن أحداً اختبأ داخل (الفيلا)، ولاصق تتبع خطواتي.

داهمت الشرطة (فيلتي) بغتة وحمدت الله أن ما حدث كان بحضوري.

حلت الإجازة الصيفية، وانتقل السيد مع عائلته إلى عدة دول أوروبية في جولة سياحية، كان أمامي حرية ثلاثة شهور أتنقل فيها إلى أي جهة أرغب، فكرت بالسفر للدار البيضاء للحاق بمجموعة من موظفي القصر اتفقوا على قضاء الإجازة هناك، كنت أهيئ نفسي لذلك، وفي نفس الوقت كنت متحيراً من وجود عمتي بمفردها داخل (الفيلا). داهمتني فكرة إعادتها لبيتها، والتخلص منها نهائياً، فلن تستطيع إخبار أحد بما حدث لها، وستكون لغة الإشارة شاقة لفهم القصة كاملة.

تراجعت عن هذا اليقين عندما تذكرت أن الخادمتين تتواصلان معها من خلال الإشارة، وتؤكدان فهمهما لإشاراتها، وإن كانت انفعالات وجهها وأطرافها ساخنة غاضبة.

جاءتني إحدى الخادمتين تخبرني أن الشرطة تقف بالباب.

ـ شرطة!

تباطأت بالنزول، باحثاً عن سبب يدعو رجال الشرطة للوقوف أمام الباب، داهمني خاطر أن السيد رغب في التخلص مني، فأوصل الشريط للشرطة. فكرت في احتمالات أخرى غير هذه الاحتمالات، ووصلت إلى قناعة أن تأخري سيزيد تعقيد أي مشكلة جاؤوا من أجلها. نزلت متصنعاً آلاماً في بطني، ومعتذراً عن تأخري. كانت سيارتان تقلان ضابطاً، وثلاثة أفراد، ومع رؤيتي ترجل الضابط من إحدى السيارتين، فبادرته بالحديث معرفاً بنفسي، وجهة عملي (وهي المرة الأولى التي استخدم سلطة القصر في شأن خاص) وبادرته:

ـ خيراً إن شاء الله!

ـ خير، يا طويل العمر، فقط تأتي اتصالات على رقم ٩٩٩ من غير أن يتحدث أحد، نسمع فقط تأتأة وصراخ.

ـ اعتذاراتي الشديدة لسعادتك، فأنا مخزن رقم الشرطة كاحتياط، ويبدو أن الأولاد عرفوا الزر المخصص لهذا الغرض، واستخدموه بشكل خاطئ.

أبديت الاعتذارات، وأخذت أصيح بأي اسم يطرأ على بالي:

ـ هتان... غسان. . معن، تعالوا إلى هنا.

ـ . . . .

ـ يا أولاد، تعالوا.

كانت خشيتي أن يستمر ندائي، وأن يظل الضابط منتظراً رؤية هؤلاء الأطفال، وبين النداء، والنداء أبدي أسفي لما حدث، وأطلق المدائح لجهود رجال الشرطة في حفظ الأمن، وبين كل جملة وأخرى أعاود النداء على الأولاد المزعومين، استشعرت بفداحة الخطأ الذي وقعت

به، فلو أنهم أجروا بحثاً سابقاً عن ساكن (الفيلا) سيعرفون أنه رجل أعزب، وسأكون عارياً أمامهم، وستتحرك الظنون لتطبق علي.

فأمسكت عن النداء باحثاً عن حكاية لوجود هؤلاء الأولاد، كنت أفكر أن اخبره أنهم أبناء أخي، أو أبناء الجيران، أو أبناء أحد الأصدقاء، لم أجد شخصاً أعرفه يمكن إلصاق نسب من ناديت عليهم به، أخذ الارتباك يعتريني فلزمت الصمت، ليبادرني الضابط مودعاً، وموصياً إياي بتحذيرهم من العبث برقم الشرطة، وأنهى حديثه بتوصية عدم ضرورة تخزين الرقم لسهولته.

أخذت هواء عميقاً، وأنا أراقب ابتعاد سيارتي الشرطة.

** **

قطع لسانها لم يكن كافياً لعقابها.

أثناء حديثي مع الضابط، لمحتها من النافذة الداخلية ترقبنا، وعندما صعد الضابط سيارته، وأغلق الباب ارتفع هياجها وصراخها وضربها على النافذة (الشتر)، ولحسن الحظ جاء دقها واهناً.

تيقنت من رحيل رجال الشرطة، وأول عمل قمت به الاتصال بالهاتف ومطالبتهم بقطع الخدمة موقتاً، اعتذر موظف الهاتف عن عدم تمكنه من تلبية طلبي ما لم أقم بمراجعة المكتب بصفة شخصية، وتعبئة نموذج بهذا الطلب، أنهيت المكالمة على عجل، وتناولت (زرادية) وقطعت السلك الخارجي الموصل لخدمة الهاتف، واستدعيت الخادمتين طالباً منهما مغادرة البيت بعد أن نقدت كل منهما راتبها قبل انتهاء الشهر، كان تصرفي محل دهشة، واستفسار من قبلهما عن أي إهمال، أو تقاعس بدر منهما، فبددت حيرتهما بإبداء حرصي عليهما، وأفهمتهما أن الشرطة جاءت تبحث عن الخادمات المخلات بشروط

الإقامة، وأن رجال الشرطة ذهبوا للإتيان بامرأة كي تفتش البيت، فقدمتا شكرهما لنبلي، وتلفعتا عباءتيهما، وغادرتا المنزل على عجل، بعد أن أوصيت السائق بإيصالهما إلى الجهة التي ترغبان الذهاب إليها.

صعدت لغرفة عمتي، بعد معالجة الأقفال، وحين انفتح عنها الباب وجدتها مكومة في ركن الغرفة أسفل ملابس جمعتها، وانحشرت داخلها، أزحت الملابس من فوق رأسها، فظهرت خصلة من شعرها المبيض، ونزعتها بقسوة، فشهقت، واتسعت حدقتا عينيها، وكما حدث في المرة السابقة، ربطت يديها خلف ظهرها بأسلاك الهاتف، وحشرت فمها بكومة من المناديل، وصعدت على ظهرها، كانت هشاشة عظامها تتقصف من ضغطي على ترقوتها، وزفرات ثقيلة تتسلل من فمها، وعيناها تتابع (الكمّاشة) التي أحملها، تناولت أناملها متفحصاً:

ـ أي أصبع من أصابعك هذه ضغط على أزرار الهاتف.

ـ . . . .

ـ أنت بحاجة إلى عقاب مضاعف.

ـ . . . .

وضعت سبابة يدها اليمني بين فتحتي (الكمّاشة) وضغطت. كنت حريصاً أن لا تقطع سبابتها، وانتقلت في تعذيبي لها إلى الخنصر والبنصر، والوسطى، والسبابة، كنت اضغط على كل أصبع حتى أسمع خشخشة العظم لأنتقل للأصبع الذي يليه، لم تعد تصرخ، حيث ذهبت في غيبوبة، فحللت وثاقها، وألقيت بها كيفما اتفق.

كم تمنيت أن تموت، وإن لم تمت فعلي أن أميتها.

غدوت سجيناً لها.

** **

بات سكني مثيراً للتوجس، وهذه العمة لصقت به جثة لا تتحلل، ولا تساعدني في دفع نفسها للآخرة، تداهمني أفكار ملحة للتخلص منها قبل أن تعلق رقبتي في المشنقة، لم أعد أبرح مكاني، أجلب الخادمات، وأغيرهن قبل أن يتواصلن معها إنسانياً، أو أن تجد من إحداهن تعاطفاً.

ألفت تضميد جروحها بنفسها، ويصل إعياؤها مداه فلا تفعل شيئاً سوى إخراج زفرات محمومة، والكز على أسنانها، أو قضم راحة يدها، مع إطباق عينيها التي انطفأت شراستهما، وكأنّ عمرها المديد تذكر فجأة أنه عبر سنوات طوال، وعليه أن يلملم عظامه، ويمضي.

عاد السيد من رحلته السياحية، ووقف الخدم، وموظفو القصر للسلام عليه، وتهنئته بسلامة القدوم، كنت من بينهم، وطلب مني أن لا أغادر مكاني.

لم تعد بالنفس رغبة لإتيان منكر إضافي، أخذت أشحن داخلي برفض طلبه هذه المرة، بلغت مرحلة من الضيق تمكنني من الإقدام على الموت مختاراً.

انشغل باستقبال المهنئين، وتبادل أحاديث المدن التي زارها، والمواقف التي أسعدته هناك.

مضى وقت طويل، وأنا أقف أمامه كحاجب من حجاب العصور العباسية الواقفين بين يدي السلطان حاملاً سيفه المصلت لغرسه في أي مذنب يلقى على النطع، كنت أقف، وحقدي يتلظى عليه بين أضلعي، وثمة يقين أن ضحية قادمة علي تأديبها.

أقف مع مجموعة من الموظفين، والخدم منتظرين أن يأمر بانصرافنا، أو توجيهنا لأداء عمل ما.

أخذ المهنئون في الانسلال، وهدأت الجلبة المصاحبة لقدومهم، ومغادرتهم، تفحصنا واحداً تلو الآخر، ونادى بإحضار الهدايا، ناول كل منا هديته المغلفة تغليفاً فاخراً، ، وأمرنا بالانصراف.

لم أطق الانتظار، رغبت في معرفة محتوى هديتي، فأزلت تغليفها، كانت مكونة من ثلاثة أجزاء: حبوب منشطة جنسياً، وزجاجة عطر، وشريط فيديو.

أسرعت للبيت، ووضعت الشريط في جهاز الفيديو لأتابع مشاهد تهشيم أنامل عمتي كاملة.

** **

ـ عليك أن تتخلص منها قبل أن تموت في يدك.

كانت هذه هي نصيحته، وكانت عمتي قد بلغت مراحل متقدمة من الصمت، والإنهاك، غارت للداخل، وكأنها اكتفت بكل الشتائم التي أطلقتها سابقاً، وتفرغت للسباحة في الآهات.

لم تعد تحفل بمقدمي، ولم أعد أثير رعبها، وكلما حمت حولها أغمضت عينيها، وشبكت يديها حول رأسها، وتوترت كل مفاصلها منتظرة ما سيحل بها.

أقلعت عن إيذائها.

وتكشف لي سر شريطي الفيديو.

كنت أتحدث مع العم محمد الركابي في غرفته مفتتحاً حديثي باستفسار عن مقدرة السيد في معرفة كل ما يحيط به، فقاطعني ممجداً أفعال السيد مع مخدوميه، وحرصه عليهم مقدماً حالتهم على أي أمر، وأنه يتابع شؤونهم بنفسه كي لا يجدوا ضيماً من أحد؛ لأن عزتهم من عزته.

وقلب الحديث باتجاه آخر:

ـ يقولون: إن عمر القرش اعتلت صحته تماماً. ودخل في الاحتضار.

ـ أنا أحدثك.......

ـ ستتحدث كثيراً عن حرص السيد أما الآن، ومن الوفاء السؤال عن عمر القرش قبل أن يودع الدنيا، وإذا لم ترغب في الذهاب فأنا ذاهب لعيادته.

تحرك إلى خارج غرفته، ساحباً يدي، ومنطلقاً إلى تعرجات ممرات القصر بتوعك يغالب فيه شيخوخته المتقدمة، واقترب هامساً:

ـ أنت لم تتعلم شيئاً طوال هذا العمر!

ـ أتعلم ماذا؟

ـ تأتي بسيرة السيد في غرفتي، ماذا تريدني أن أقول عنه، ألا تعرف أن جميع غرف مستخدميه مزروعة بالكاميرات، وأن هناك أشخاصاً يقومون بتسجيل كل شيء، وتزويده بكل ما يحدث بالصوت والصورة.

ـ الآن فهمت.

ـ أنت لن تفهم أبداً!

وأخذ يسعل سعالاً حاداً، أوشك أن يقطع أنفاسه.

** **

لم يعد السكن داخل هذه (الفيلا) مريحاً.

بقيت عمتي أمامي صامتة، تغمض عينيها مع إظهار حركات متحفزة إن اقتربت منها، لتصيبني حالة من الغثيان، وأنا أرى تقصف عمرها، انهارت صحتها فجأة، وكأن لسانها كان يمدها بالعافية.

اعتلت اعتلالاً مريعاً، وضمر جسدها، وبرزت عظام وجنتيها، وملت من تطبيبها ممرضة فيليبينية أحضرتها لهذا الغرض.

غدت عمتي عذاباً بصمتها، كما كانت في السابق عذاباً بصخبها. أهرب من عينيها دائماً، وتهرب مني، فحالما أصل، تغلق غرفتها، ولا تسمح بدخول أحد عليها.

غدت هذه (الفيلا) مكاناً قفراً، تجول بها خادمتان، وممرضة لا يفعلن شيئاً سوى متابعة عمتي، (ومنعها من مغادرة غرفتها لأي سبب كان)، وتجهيز الأكل لو طلبت ذلك.

لم يعد بالإمكان دعوة أحد لقضاء سهرات خاصة، وتحولت (الفيلا) الكبيرة إلى فندق، أنام به جزءاً من النهار، وأغادره في الثالثة ظهراً من غير أن أترك خبراً.

كنت بحاجة للخروج من هذا الجو البوليسي.

ألفت على أخذ الحيطة والحذر، غدوت أتحرك مثل جرذ يقطع ساحة ملئت بقطط جائعة، في كل حركة تسبقها احتياطات أمنية، وأول تلك الاحتياطات هجر (الفيلا).

في البدء كان وجود عمتي يؤرقني، هذا الأرق أنهيته، بتحويل غرفتها إلى زنزانة، وهي السجينة من غير سجان، ولأني لا أعرف تحديداً أين زرعت الكاميرات بغرفتها فقد عمدت إلى إلباس جدران، وسقف غرفتها بأوراق زينة، وجلبت لها كراتين من المرطبات والحليب والماء، والبسكويتات والحلويات والمعلبات سهلة الفتح، وخضروات، وفواكهه مجففة، وأغلقت عليها سجنها. كنت أقوم بكل هذا تحت جنح الظلام فما أن يأتي الليل حتى أغلق الأنوار، وأشرع في استكمال ما نويت عليه.

أنهيت مهمة زنزانة عمتي، بتغطية جدرانها، وسقفها بورق زينة، وقمت بتسريح الحارس، والممرضة، والخادمتين، وأحكمت إغلاق الأبواب، آخرها إغلاق البوابة الرئيسة، وانطلقت لغزو الفنادق، والشاليهات. لم يكن بمقدوري فعل ذلك إلاّ بوثائق رسمية تثبت زواجي، ففي كل مرة اصطاد امرأة من النساء اللاتي يحضرن لإحياء ليالي القصر، احتار أين أذهب بها. وفي كل مرة أخسر مراهنتي مع المرأة التي أقتنصها، فأطلق سبيلها بعد أن نكون قد طفنا بشوارع جدة مجتمعة. كنت أقوم بهذه الأعمال مع انتهاء سهرات السيد حين يكون (الشراب) قد عبث به ولم يعد يميز بين قدميه ورأسه، فأصطحب امرأة ممن لم يتم اختيارهن من قبل المدعوين للسهرة، فأجد أني متورط بها، فأوصلها إلى حيث ترغب الذهاب.

فكرة الحصول على كرت العائلة لم يكن يدور في الحسبان حتى وجدت أن النساء منفذ للخروج من هذا الضيق الذي أعيشه، ضيق جاثم على صدري، ويزداد ثقله بعمتي، وذكرى تهاني، وعمليات التعذيب التي يعدها السيد لأن أنفذها. أثقال تسقط على صدري. اعترتني عوارض صعوبة في التنفس، أفتح فمي لآخذ الهواء، فلا أقدر على استنشاقه كما يجب. في البدء ظننت أن مرض الربو حل ضيفاً برئتيّ، وبعد الفحوصات الطبية، تم تحويلي لطبيب نفساني، رغب أن يقف على سيرة حياتي، فلم أمكنه من ذلك، تغلغلت نصيحة في أعماقي أخرجها أثناء حوارنا، قال: على المرء أن يغذي روحه بالمشاعر الإيجابية، وأن يتخلص من الشحنات السالبة، فكما تجلس يومياً لتناول وجبات الغذاء، وتجلس لتتخلص من فضلات بطنك، عليك أيضاً أن تجلس يومياً لتغذي روحك، وتخرج فضلاتها، فالحياة تغذية وإخراج.

آمنت بمقولته هذه، وأخذت أبحث عن تغذية ايجابية لروحي

المحبطة، وأول مخرج رأيته يتسع به داخلي، ويتراقص له طرباً هو صورة مرام التي خيمت على تفكيري في كل حين، فأخذت أسعى لأن أستكين بداخلها. كانت صراحتها أقرب للوقاحة حينما رفضت الحب، ووعد أن تهبني النشوة إن أردت. فأخذت أبحث عن وسيلة أنجع لأقطف ثمارها الناضجة.

وقبل أن تفي بوعدها، اصطفاها السيد لنفسه، فبات الوصول إليها في غاية الصعوبة، فتلفت بحثاً عن السلوى من خلال نساء القصر الكثر. كان الانفراد بهن بحاجة لوثيقة رسمية تمكنك من الانتقال معهن إلى حيث شئت.

لذا قررت أن أتزوج صورياً، فقط كي أحصل على كرت العائلة، وبسرية تامة تقدمت لإحدى الأسر القروية، وعقدت النكاح، متمنياً على كاتب الأنكحة عدم كتابة اسمي كاملاً، كي لا يكشفني السيد إن كانت له عيون في محاكم الأنكحة، ومعللاً طلبي للمأذون بأنه تحرز من عدم اكتشاف أمري لدى زوجتي، وأبنائي. كان مؤذوناً سهل الطباع، فوافق على تسجيل اسمي، واسم جدي، ولقب العائلة، فهناك المئات ممن يتشابهون في أسمائهم بهذه الصيغة.

زواجي كان مجرد كتابة عقد، ومع استلامي لوثيقة الزواج، وقبل أن أصل لزوجتي طلقتها قبل أن أراها، وأكملت إجراءات الحصول على كرت العائلة، هذا الكرت جبت به فنادق جدة، وشاليهاتها من غير خشية أن تراني عيون السيد.

«ليلة من الليالي فاتونا

عيني لو صحيح نسيونا

زي محنا رحتوا جيتوا

فاكرين نسيتوا

حتلاقونا يوم ما تيجوا

زي محنا».

(غناء: نجاة الصغيرة)

تغيرت مهام عملي داخل القصر مع احتفاظي بالعمل الرئيس عند الحاجة، عملي الجديد يتطلب تواجدي من الساعة الرابعة عصراً، والإشراف على تجهيز مستلزمات السهرة.

دلفت لدورة المياه، واستلقيت في حوض الاغتسال بفتور مكتفياً بما فيه من ماء فاتر، وأغلقت مفتاح المياه غامراً جسدي كاملاً، وبقيت أتابع قطرات الماء الشحيحة التي تسقط من الصنبور، تسقط قطرة تلو القطرة وبينهما زمن أترقبه بالعد، فحين أصل إلى رقم أحد عشر تسقط قطرة.

وأخبار تهاني تصلني متقطرة بين كل خبر وخبر زمن طويل أقدره بالسنوات. ما للأيام إذا هربت منا تغدو قريبة، نعيش بها ومنها.

تهاني هي الحياة التي قفزت منها إلى النار.

كان يحلو لنا اختلاق الشجار، ذلك الشجار الذي يشعلنا فنبحث عن بعضنا لنطفئ جمرات احتراقنا، في كل مرة نقترف خصاماً، ونخترع الطرق المؤدية للوصل، المؤدية للاحتكاك، وإشعال فتيل الروح في أن تسل روحها من روحها، شجاراتنا تتدفق من نبع صغير: مرة لأني وجدتها تقف في النافذة، وتتطلع صوب الفتيان المتجمعين في برحة

الحي، ومرة لأنها سمعت خبراً مشيناً عني، وأسرفت في اللوم، ومرة لأنها لم تخرج ليلاً لملاقاتي، ومرة لأنها لم ترد على رسالتي، ومرة لخشيتها من سيرتي، ومرات لأنها أخبرتني أن الخطاب يطرقون بابها.

وفي كل مرة نعود متناسين خصاماتنا، كان المفتاح الذي يكسر أقفال خصامنا دائماً أغنية نجاة (ليلة من الليالي فاتونا)، شهر كامل هجرتها ففي ليلة اجتيازي للثانوية العامة، ظهرت من نافذتها بشكل موارب، وأطلقت إشارات التقطها معي أسامة، أخبرتني فيما بعد أن خالتها تقدمت لخطبتها لابنها أسامة الذي أبدى رغبته بها مع وعده بالبحث عن عمل، ومواصلة دراسته (في آن واحد) إن هي وافقت، لم أرد عليها اكتفيت بتنفيذ أمرين: التملص من بين يديها، وتوسيع صدري ليحمل كرهاً مضاعفاً لأسامة.

أين هي الآن؟

غدت تهاني شعاعاً أراه، وأنا مقذوف في أسفل الجب، في سقوطنا لا نتذكر صرخاتنا التي نطلقها، ولا نتذكر نوع محاولاتنا للإمساك بالأشياء التي تقينا من السقوط، ولا نستشعر بالجروح التي تخطف دماءنا، فقط نهوي باحثين عن آخر عمق، نرتطم به حتى إذا استقر قرارنا عندها نتلمس جراحنا، ومواقعنا. أنا الآن أسفل السافلين، ولا أظن أن هناك أبعد من القرار الذي وصلت إليه.

الآن أُحصي جروحي، وأستشعر حرقتها. لم أكن أعلم أني أحب تهاني بهذا العمق، وربما لأني عقرتها أحمل لها حباً، وندماً عليها، فعندما تذبح، ولا تحسن الذبح، تبقى ذبيحتك تتابعك برغائها الذي يقض مضجعك، وتهاني لم أحسن ذبحها جيداً.

لم يكن إتيان الذكور شذوذاً متأصلاً؛ كان فعلاً للخروج من براثن

المتربصين بالصبية، ذلك السلوك الاجتماعي الذي ظهر كـ (استوجاه)، وسمعة تلاحق الفرد إما أن يكون صياداً أو فريسة. هذا الشذوذ تحول إلى عمل، ومع وفرة النساء غدا الجنس أكثر ابتذالاً وخسئاً، بحثت عن الحب من خلال نساء كثر تواجدن داخل القصر وخارجه، نساء يمنحنك أجسادهن، وليس من سبيل أن تضعك أحداهن في صدرها... نساء كفرن بالحب، وآمن بتبادل المصالح وبيع المتعة.

في القصر المرأة تمنحك اللذة، ولا تمنحك سواها.

مع أول مجيء لمرام إلى داخل القصر، جاءت تراجع في ضآلة المبلغ الذي حصلت عليه مقارنة بزميلاتها. كان كل شيء يضجّ بها. تمتلك روحاً متعطشة للحياة، فتفجر جسدها عن ينابيع فياضة. وقفت في مواجهتي فاترة الابتسامة، وعيناها تحرثان أرض من يقف أمامها:

ـ هل أنا ناقصة رِجْل، أو يد حتى أحصل على أقلّ من صاحباتي؟

في العادة أغلظ القول لمثل هذه المطالبات، ومع تفجر الحياة فيها أذعنت لطلبها، وأخذت أتربص بها، كنت أظن أني من خلالها سوف أقفز فوق تلك البقعة من الأوحال التي اعترضتني في صباح ذلك العيد البعيد، مع ملاحقة عيني لها تنبهت، فنبهت جسدها لهذا التربص، ليفتح كل مسامه للهفتي، أما روحها فقد لحقها التيبس.

قبل أن تصل أخبار تهاني الأخيرة لم تكن لتخطر على بالي بهذا الإلحاح، فعندما نتشبع بالجنس يغدو مقرفاً، ومستفزاً، ويستكفي الجسد من نهمه؛ لتفيق الروح تبحث عمن يساندها، ويجلي صدأها.

كانت مرام تحتل حيزاً كبيراً من تفكيري، فهي تمتلك روحاً مشعة تنير أي عتمة مهما تكاثفت حجبها، وكنت بحاجة لمن يخرجني من عتمتي.

حلّ سيد القصر فئة الجلادين، ليس لتفلت المجموعة، وعدم صبر بعضها على النظام القاسي المتبع معهم؛ بل لإمعان حالات رغب ضحاياها في تكرار تأديبهم بنفس الطريقة، هذه الرغبة جعلت السيد يفشي سر هذه المجموعة الموجودة داخل القصر.

وكان في مقدمة تلك الضحايا رجل الأعمال «ممدوح سليمان» حين تجرأ على أخذ مناقصة لمشروع ضخم مع علمه بوجود السيد في المناقصة، ومع كل التحذيرات أصر على مواصلة المنافسة، وأمعن في تدني عرضه المقدم، فجلبه للقصر، وطلب تأديبه، وكسر اعتداده بنفسه، بعد هذه الحادثة ظن السيد أن خصمه لن يقدم على معاندته بتاتاً، فإذا به يبحث عن المشاريع، والأعمال التي يزاولها السيد كي يزاحمه عليها، ووصله خبر أن الرجل يبحث عن التأديب بنفس الطريقة، فأطلق ضحكة مجلجلة بعد سرد حكاية ممدوح سليمان قائلاً:

- يبدو أنني سأفتتح أكاديمية لتخريج المخنثين!

وانتقل لتأديب خصومه بتجريدهم من أموالهم من خلال مغامرات تجارية، تنوعت وسائلها وأساليبها من صفقات خاسرة،وعقارات مملوكة للغير،ومشاريع وهمية،إلى أن وصل بهم لسوق الأسهم، فبتتبع الشركات المساهمين بها، وضربهم هناك. هذه اللعبة العظيمة أجادها بإتقان، اعتمد فيها على لوبي من مستشارين اقتصاديين، وإعلاميين، ومخططين، ومديري بنوك، ومسيري عمليات البيع والشراء، ووشاة، وتواقين للشراء. بدأت اللعبة بأن رمى الزهر الخاص به، ذلك الزهر الذي جعل وجوهه الستة تحمل رقماً واحداً، وبيده سحق كل خصومه، وسحق معهم خلقاً كثيرين.

ومن هناك كرت السبحة، تساقطت حباتها دفعة واحدة.

بعد أن تم إحلال فرقة الجلادين، تحللتُ من تلك المهمة القذرة لأنتقل إلى قذارة أخرى.

انتقلت إلى مهنة توزيع الهبات على النساء اللاتي يأتين لإحياء ليالي القصر، وكانت مرام فاكهة البنات.

تعرف تماماً أنها تمتلك سحر الأنثى، وأنها بحاجة لأن تروي أنوثتها بنظرات المعجبين الذين يقتنصون مفاتن جسدها خلسة، وبحذر شديد، مخافة أن يلمح سيد القصر عيونهم، وهي تتنزه على نحرها، أو بين ترائبها العاجية، أو الانزلاق من قمتي وجنتيها المكتنزتين إلى أودية صدرها في اشتهاء رشف مائها. ندماؤه يسرقون مفاتنها حينما تعبر أمامهم، لتتخذ موقعها بجواره.

منذ شبابي الأول كنت مدرباً على سرقة مفاتن النساء العابرات للأزقة، أو الأسواق المجاورة، وظننت أني أملأ مخيلتي بما أسرقه منهن من غير أن تستشعر الواحدة منهن بهذا النهب الفاضح لمفاتنها إلاّ أن سرقتي لمفاتن مرام كانت مفضوحة تماماً، ويبدو أن المرأة تستشعر بالعين التي تقع على جسدها، تحس بالتيار الكهربائي الذي يسري في أوصالها بمجرد أن تقع عليها العين، فتتسع مساحات جسدها، وتنير، وتستشري في طلب ذلك الشحن.

اعتقلت مرام نظراتي مراراً، وهي تجوس بين نهديها، وفي كل مرة تضع كميناً يثبت جرمي المتكرر.

في السهرات الراقصة تتعمد أن لا تنهض من جلستها إلى حلبة الرقص إلاّ بعد أن يطلب منها النهوض، فتشترط أن تترك لها الساحة

بمفردها. هذا الاشتراط استوعبته جميع الفتيات الحاضرات، فبمجرد نهوضها يخلى لها المكان، ويفتعل الرجال الانشغال بالأحاديث الجانبية، أو التطلع إلى أي جهة أخرى كي لا تتسرب نظرات الرغبة لجسدها، فتكون نهاية صاحبها الطرد المشين من داخل القصر إن لم يكن تعطيل بصره تماماً.

تجيد الرقص الخليجي، والمصري على الايقاعات الصاخبة، تبدأ رقصتها بخلع حذائها، والسير المتغنج مع تحريك مؤخرتها تحريكاً مثيراً ينتقل رويداً رويداً نحو وسطها؛ لتنفض جسدها كاملاً، موزعة هذا الغنج بين القدّ والصدر؛ كابحة شلال شعرها المتصبب على وجهها بين الحين والآخر في حركة مفتعلة في الغالب، وتظل تتنقل بخفة في تلوين تثني جسدها بتموجات تظهر سريان جبروت أنوثتها؛ لتصل في رقصة مذبوحة ترتعش لها كل مفاصلها ثم تتباطأ؛ لتعاود السير بقدمين متداخلتين، وتقف أمامه تماماً ناثرة شعرها على وجهه، فيحتويها بين ذراعيه لاثماً ما يصل إليه فمه منها.

بعد هذا الأداء الفاتن لا يقوى على الجلوس، فيقودها إلى غرفة النوم الداخلية، وغالباً تتركه هناك، وتعود للمجلس منيرة وجهها بابتسامة واسعة، ومتصنعة نسيانها لحقيبتها، أو جوالها، أو حذائها، لتشبع جسدها بلذة الشعور بوخز العيون المتلصصة به، وتحرص أن لا تتلاقى عيناها بعيني أحد من أولئك اللصوص الذين خرجت عيونهم لسرقة أي جزء من جسدها.

** **

بدأت مغامرتي مع مرام قبل افتضاح جريمتي مع عمتي، وخططت لاستدراجها إلى (الفيلا).

كان أسرع من أي شخص في اصطفائها لنفسه، قربها إليه، فزرعت الشوق في فؤاده. تدربت على الشح في صرف مشاعرها، وإيهامه انها لا تمتلك قرارها. كان جزءاً من تدريبها أن تتركه وهو في قمة ابتهاجه بها كي تعود لبيتها، فلم يطق هذا الوضع، وخيرها، فاختارته، ليذلل كل المعوقات التي تعترض طريقها من أجل أن تكون بجواره دائماً. علمت منها فيما بعد كيف أودع زوجها المصحة النفسية؛ لتتخلص منه إلى الأبد من خلال حكم قضائي، تواطأ على أحداثه شخصيات متعددة كان أولهم القاضي «محمد أبو صالح».

منذ أن جاءتني محتجة على ضآلة المبلغ الذي حصلت عليه في تلك الليلة، وأنا أشاغلها، أرمي كلمات الغزل على مسامعها، ولم تكن بخيلة، حيث تستقبلها بابتسامة واسعة، وتمخر عباب القصر مثل سفينة تجوب البحار من غير أن ترسو في شاطئ.

قبل أن تصل لحضنه كانت مشاعة، كل من رآها اشتهاها لنفسه، وعندما حوطت يداه خاصرتها غدت محرمة على الجميع.

منيت نفسي بالتعشيش في صدرها. كان صدراً خرباً، تساقطت أفراحه، برياح القهر، والعوز، والاحتياجات الملحة.

تجاسرت، وفاتحتها بهيامي بها، أطلقت ضحكة ريانة:

- وماذا تريد؟

- فقط إخبارك بأني أحبك.

- وهل تتصور أني لم أسمع هذه الكلمة من كل الرجال الذين رأيتهم، الحب كلمة، وأنا لا أبحث عن كلمات.

ـ أعطيك ما تريدين؟

ـ وهل يشترى الحب، الذي أعرفه أن الجسد يُشترى.

ـ الألفة تولد الحب.

ـ لا يوجد رجل يحب، ولا امرأة تحب هنا، وفي مثل هذا الجو مجرد رغبة تسيل، وتذهب للنسيان.

ـ ....

ـ إن كنت راغباً بي، سأمنحك لحظة نشوة حد الارتواء، ولا تُطالب بأكثر من هذا.

حدث هذا الحوار، قبل أن تنتقل لملكية السيد، وأظن أن متابعتي لها لم تنسها وعدها لي، ففي كل مرة أراها، تمسك عيناي المتلصصتين بمفاتنها فتتعمد فتح منافذ في جسدها كوعد مؤجل لا ينسى.

** **

ـ أين هي تهاني الآن؟! في أي فجوة سقطت؟

لم يحمل ضميري وخز أفعالي المشينة. كل فعل أُحدثه أمحوه بفعل أكثر بشاعة من سابقه، وأحرص أن لا أرى ضحيتي.

هكذا هربت من كل أفعالي، الهروب للأمام هو تجميع للكوارث التي ستدق عنقك في النهاية (هذا ما عرفته مؤخراً).

بقيت تهاني تتأرجح في ذاكرتي، فأجفل من ذكراها، وحين انضم أسامة لمن دخل الجنة، اقترنت ذكراها برؤيته، فكلما رأيته عدت لنفس النقطة.

ليالي القصر الصاخبة لم تجذب أسامة كثيراً. ينسل من صخبها بعد

أداء مهامه، ويغيب فلا ألمحه إلاّ في وقت انقضاء السهرة، دائماً يتوارى في غرفته مبقياً هاتفه المحمول بالقرب منه؛ لتلبية أي نداء،وتنفيذ أي مهمة تطلب منه.

في مسامرة جمعتنا كنا خلالها نزاول بعث الذكريات البعيدة والقريبة. تنهد متخلصاً من هواء ثقيل جثم على صدره:

ـ هل سيصيبك الندم لو أخبرتك بأنك أفسدت حياتي؟

كان على وشك حياكة اعتراف متخاذل، وكنت أعلم أننا سنُدمي بعضنا، فالكلام شفار ذات نصل حاد، نخرجها من أفواهنا حين لا تستطيع حججنا دفع لوم الآخرين لنا، ربت على كتفه:

ـ كل منا يفسد حياة الآخرين من غير قصد، فهل يمكنني اتهام عيسى بإفساد حياتي، لو لم أكن موافقاً لما تورطت في هذه الحياة، وأنت لو لم تكن موافقاً لما كنت هنا.

ـ لم أقصد تواجدنا هنا.

أطبقت على فمه:

ـ أعلم أن الطريق الذي سرنا به كان قذراً للغاية، وليس هناك من وقت للتخلص من كل تلك القاذورات.

ـ أقول لك لم أقصد هذا، قصدت تهاني، هل تعرف مصيرها.

أتى وجهها بغتة ليزيح ستائر متربة أسدلها عليها في كل حين، أتى وجهها ناعماً حزيناً يحمل غباراً أراكمه عليه كي لا يفصح عن دمع شفيف، ويستدرك سنوات الغفلة التي أمضيتها هنا.

وقف أسامه في مواجهتي مباشرة، وصدره يغلي:

ـ جئت إلى هنا كي أقتلك!

وعندما لم يجد مني ردة فعل تماثل جملته، وضع وجهه بين يديه:

ـ . . . . . وأقتل عيسى، وأقتل نفسي.

صمت بعض الشيء:

ـ ماذا فعلت بتهاني؟

ارتبكنا مع إعلان الخادم عن طلب سيد القصر رؤيتنا، فنهضنا على عجل، مؤجلين حرقتنا لبعض حين، حثينا الخطا باتجاهه، فاستقبلنا في ردهة القصر:

ـ استعدا ثمة ضحية عليكما أن تقطعا دبره!!

ونهض متحركاً صوب المدخل الداخلي لقصر العائلة، وقبل أن يغيبه باب الردهة التفت صوبنا:

ـ سأكون مشاهداً لعملكما فلا تذلا نشوتي.

وأطلق ضحكته المعتادة، ومضى منصوب القامة، ومن خلفه الخدم، وهم يتلقون أوامره لتنفيذها في وقتها.

** **

أي روح نحملها.

أدينا مهمتنا، والسيد يرقبنا عن كثب، وعدنا إلى مجلسنا، وكأن شيئاً لم يحدث.

وعادت تهاني لتعذبنا معاً. . .

في تلك الليلة المظلمة، ومع عودة النور كان صراخ تهاني قد ارتفع مستغيثاً بي أن أرحمها، فنبه من بالبيت لخطر داهم، تبعته جلبة أصوات

عائلتها، وزمجرة أبيها تغالب حشرجة الكلمات، بعد أن تنافر إخوتها في الأزقة باحثين عمن سرق شرفهم، كان الأب قد جمع الوعود لقتل السارق.

ليالي عمياء دلفت بها لزقاق «الكفت» ساحقاً عظاماً طرية، للانتهاء من وطر فرضته سمعة الفحولة المعلقة على سيرتي.

مع نسنسة الليل، وعلى وقع خطواته الأزلية أسير منغمساً في دروب أعرف تعرجاتها، ومسالكها المتداخلة، والمتشابكة كأمعاء قطة مدهوسة أبقت جحوظ عينيها شاهداً على لحظة الدهم.

أزقة مدهوكة بالخطوات والحكايات والأدعية، والآثام. كل واحد من أبناء الحارة ترك شيئاً منه مسفوحاً في جنبات تلك البيوت العشوائية المتلاصقة، وظل يسترجعه عبر حبل سري من الذكريات.

في البدء كانت حياة آسنة راكدة لم تمكن أحداً من أبناء الحي من رفع رأسه على سطحها، والسباحة لخارج محيطها. ثمة رضا غلف الأفئدة، وأبقى كنزاً من القناعة جاثماً على الصدور، وأول من عبث بتلك القناعة كان «عيسى الرديني» الذي قلب تربة الخدر، وغرس راية الحياة الرغدة لتنضوي تحت لوائه النفوس الباحثة عن الزهو.

جذبنا لداخل القصر الواحد تلو الآخر. أدخل ملاعق الذهب إلى سقف حلوقنا، ولأننا لم نسعد برؤية الذهب، أو نتنعم بما تحمله ملعقته من أطعمة، استجبنا للقيام بأي دور مقابل الإحساس أن ملاعق الذهب تحمل أطعمتنا.

وكما تجلب (الأنتيكة) والخردوات المنقرضة (من سوق الحراج) جلبنا لنزين القصر برثاثتنا.

الأشياء الرثة لمن لم يرها تعد كنزاً ثميناً، وهكذا طهم السيد بنا جنبات قصره، وجد ميزة في كل شخص من أبناء الحارة فاستغلها، لإظهار أن الأحياء الشعبية تخبئ كنوزاً من الحياة المغايرة، والمدهشة لأبناء القصور، والجالبة للمتعة والتفكه، واعتمد على «عيسى الرديني» لجلب هذه «الأنتيكة».

استقطب شيخ الصيادين «عمر القرش» لقيادة اليخت أثناء النزهات البحرية، أو رحلات الصيد، و«علي المديني» (الأعمى) لإلقاء النكت البذيئة، وسرد حوادث النساء اللاتي يتشمم روائحهن حين تفيض الشوارع بهن، و«جميل بدري» لتشذيب الأشجار، و«بكر آدم» لطهو الأكلات الشعبية، و«إبراهيم الدانة» لتعليم مرتادي القصر لعبة المزمار، و«حمدان البغيني» للحراسة، و«حسن دربيل» لتربية الكلاب. طابور طويل تسلل لداخل القصر، كل منا اصطفاه عيسى لميزة اشتهر بها، أو لرغبة في إذلال شخص يحمل له شتيمة ما، أو ضغينة لم تندمل.

كنت الذليل الوحيد بين هذه المجموعة، فالسيرة التي أحملها لا تشرف بتاتاً.

كنت ثاني شخص أدخل القصر بعد عيسى ثم لحق بنا أسامة بعد ثلاث سنوات؛ ليساندني في تأديب خصوم سيد القصر، ثم توالت القامات والقلوب لدخول هذا القفص.

في أول يوم دخل فيه أسامة للقصر، أدى مهمته بمهارة ثمنها سيد القصر بأن ضمه لفئة الجلادين. كان منتشياً كما عرفته حينما نتشارك في اقتسام فريسة واحدة داخل تلك الأزقة المظلمة لكنني عرفت ـ فيما بعد ـ أن انتشاءه كان مفتعلاً؛ لكي يكون بجواري، يحاصرني لمعرفة الحقيقة التي يبحث عنها، ليقرر بعدها ماذا يصنع.

ظل محافظاً على عبوسه كلما التقت عيوننا.

ـ ألا زلت تضمر حقدك؟

انسحب صامتاً. غاب فترة زمنية تكفيه لأن يدلق الماء على جسده، وعاد وشعره يتقطر ماء، حاملاً مصحفاً ووقف في مواجهتي مباشرة بعد أن فتح دفتي الختمة:

ـ ضع يدك هنا.

لا زلت أحمل دنسي، ومع ذلك كدت أمد يدي لوسط المصحف، لولا أن قشعريرة اعترت جسدي، وسرت برودتها في أوصالي، ومع تراجعي استحثني:

ـ إذا أردت أن ننهي أحقادنا فضع يدك في المصحف، واحلف.

ـ أحلف على ماذا؟

ـ ضع يدك أولاً.

ـ لا زلت نجساً.

ـ اذهب، واغتسل.

انتظرني لساعتين تباطأت فيها علّه يمل، ويغادر، ثبت في مكانه كجذر شجرة عتيقة اعتلت بأوراقها الصفراء، ومع رؤيتي قفز، وتناول المصحف فاتحاً على سورة (التوبة):

ـ ضع يدك اليمنى.

استجبت له، فأغلق دفتي المصحف على يدي، وطالبني بترديد القسم الذي يتفوه به:

ـ قل: والله العظيم رب السموات والأرض، لم أكن على علاقة بتهاني من قريب، أو من بعيد.

احترت كثيراً قبل أن أقسم، حاولت التملص، فقدم لي الحل سريعاً:

ـ قل.

وجدت المنفذ في كلمة قل، فأدغمتها في سري، وأكملت القسم كما قاله.

أطبق المصحف بعد تقبيله، ووضعه على رأسه، ونظر إلي مرتاباً:

ـ لا أدري لما أشعر أنك حنثت في قسمك.

** **

كان يوماً كالحاً عندما قذف أسامة على مسامعي خبر تهاني، وأقسم أن ينتقم لها:

ـ أكاد أجزم أنك أنت الحرامي.

ـ . . . .

ـ أستطيع قتلك الآن لكن قتلك لن يشفي غليلي منك.

ـ . . . .

ـ سأعرف كيف أجعلك تندم.

أسامة يتمنى أن يفتح صدري ليعرف الحقيقة. في كل مرة يحمل تهديداً، ويلقيه على مسامعي. غدت علاقتنا متوترة للغاية، فمع ارتضائنا بالتجاور في المكان إلاّ أن هذا كان مبعثاً لنتذكر بعضنا بعضاً. انتقاله لخدمة نادر (أخو سيد القصر) قللت مواجهاتنا، وتقليب جمار الحقد

فيما بيننا. بعد حصولنا على الشهادة الثانوية، أبدى أسامه رغبة في العمل المبكر، كي يصل لتهاني في أسرع وقت. اكتشف فجأة أنه غدا رجلاً، فتأججت رغبته بالاقتران بتهاني. لم يكن يحمل صبراً كافياً لإخفاء هذه الرغبة، ففي نفس يوم إذاعة أسماء الناجحين في الثانوية العامة، انتقل إلى بيت خالته، وفاتحها برغبة الاقتران بتهاني، يبدو أنها منحته المباركة، فخرج إلينا منتشياً، واختلط بفتيان الحارة متقبلاً التهاني والتبريك بالنجاح، ولم يخف حبوره عني، وعن عيسى. سرب إلينا مفاتحته لخالته، وإظهار رغبته بخطبة تهاني، لم يكن يعرف العلاقة التي تربطني بها.

يومها ظهرت تهاني من نافذتها ملوحة لي فظن أن تلك التلويحة له، فاتسعت الحياة أمامه، وأخذ عهداً أن يخلع عن سيرته شيطنة المراهقة، وأن يلتفت لحياة جديدة يؤسس فيها لأيام سعد، كان عملياً في هذا، فعندما رأى أسوار الجامعة بعيدة عنه، فتقديره الدراسي الذي حمله بتقاعس لن يجلسه على كرسي الطالب الجامعي، فتقدم للعمل في الاتصالات السعودية، وما أن استلم وظيفته حتى تهيأ لأن يخطب تهاني رسمياً.

كانت فورة الفرح تجري في كل دمه، فرتب احتياجاته، ومصادر الحصول على الأموال اللازمة لإتمام الزواج. كل شيء تدبر أمره، كان يحسب التكاليف، ويفتح المنافذ لتدبر الحصول على ما يحقق سعادته. فكر في بيع بيتهم، ثم تراجع، وفكر بالمطالبة بدم أبيه، وظل يجتر هذه الفكرة حتى أقلع عنها خشية أن يقذف في سجن لن يخرج منه إلى النور، وفي نهاية الأمر قرر أن يقترض من أحد البنوك.

حساباته لم تصل إلى حلول جذرية لتدبير تكاليف الزواج، ومع ذلك كانت أفراحه تتراقص.

هي أيام، وجرفت ملامحه كاسحات الأحزان، واجهته تهاني بأنها لا ترغب به، وأنها على علاقة بشاب آخر، فسقطت أغصان الفرح في داخله، كان يجالسنا، وحيرته تتقافز، وسؤاله لا ينقطع:

ـ أي شاب هذا الذي لها علاقة به؟

لم يكن يعرف أن الذي يبحث عنه على مقربة من أصبعه.

حاول عيسى ترميم أحزانه لكن هذا لم يدم طويلاً، تأزمت علاقة عيسى بأبيه، وبسبب الأموال التي جرت في يده، خشي «يوسف الرديني» أن ابنه يتاجر في المخدرات، فشارك رجال المخدرات في نصب كمين علّه يعرف من أين لعيسى كل تلك الأموال، وبعد مراقبة لتحركات عيسى أقلع رجال المكافحة عن تعقبه، فلم يجدوا في البلاغ أي دليل إدانة، ومع إصرار الأب، داهموا البيت ليلاً، وخضعت كل مستلزمات عيسى للتفتيش الدقيق، وانهوها باعتذار بارد، وتركوا عيسى مع أبيه بعد أن أشعلوا فتيل الشجار فيما بينهما لينتهي الأمر بهروب عيسى.

بقيت أنا، وأسامة، كنت أستجمع شجاعتي لأخبره بعلاقتي بتهاني لولا بكاؤه المستمر، وشكواه من حب اجتاح كل ذرة في داخله.

وصله خبري متأخراً تماماً بعد أن شارك المخمورين طريقهم، وبات الليالي مناجياً حباً فاشلاً، يتسكع في الأزقة، وهو يتجرع (زجاجة خمر) رديئة عل تهاني تندم على دفعه لمحيط الضياع،، وزاد حزنه عندما أخبرته أمه بأن تهاني حملها أبوها إلى قريته لتعيش مع جدها هناك.

اجتمع أسامة، وكمال في بكائية مراهقة، كان كمال يبكي فراق سميرة التي زفت لأبي مشرط، وانتكست حالته مع موتها، وأسامة يبكي صدود تهاني عنه، وكنت بينهما أطبب حرقتهما بالكلمات الجوفاء، وبي رغبة لأن أسفه هيامهما الساذج.

فكمال أدمن زيارة قبر سميرة، وحوّل لقاءات عشقهما الليلي إلى لقاءات مكشوفة وعلنية، يطارحها لوعته، ووحشته في حضرة الموتى، يذهب عصراً، ويظل بالقرب من قبرها يناجيها إلى ما قبل الغروب، ويودعها كما لو كان يخشى مداهمة من سيكشف علاقتهما، ويطلق سر عشقهما بين المارة.

هذا العشق المسطح أشبه بالإناء المثقوب الذي يحمل ماء ولا يحمله، غضب كمال من تسفيهي لحزنه على فراق سميرة. لم أكن أحمل مشاعر صادقة تجاه أي شيء، وأرى أن التعلق بالمرأة مرض وخيم على الرجل وعليه أن ينأى بنفسه عن مواطن الخور. وكانت بي رغبة في تعليق أسامة من عنقه حينما أسمعه يشتم الشاب الذي تعلقت به تهاني.

كنت قد قطفت بكارتها في تلك الليلة المظلمة، وهربت بدمها مع عيسى، وبقي أسامة يجوب الحي بحثاً عن الشاب الذي تعشقه تهاني، وفضلته عليه. الفتيات يصلن إلى أسرار بعضهن، ويكتمنها في صدورهن تعاطفاً، ومساندة لبعضهن. وصل خبري إليه عن طريق أخته، فلحق بي إلى القصر.

وفي القصر بدأنا تقاسم الكره المكشوف.

** **

أحيا أسامة تهاني في داخلي.

حينما انتقلت للقصر، قررت أن أهرب من كل الماضي الذي تركته خلفي، وأول هروب، الهروب من دم تهاني، وتمكنت من نسيانها تماماً حتى ظهر أسامه داخل القصر بعد ثلاث سنوات من فعلتي تلك.

هذه المدة قضاها بحثاً عمن عشقته تهاني، وبحثاً عنها. رحل إلى قرية أبيها مراراً بحثاً عمن تزوجها. وجد عنتاً كبيراً في بحثه، ففي القرى يغدو البحث عن امرأة عاراً فاضحاً.

عجز عن الوصول إلى أي خبر يقود إليها، فعاد يبحث من خلال حكايات خالته عنها. كانت تعلم أنها أعطته عهداً بتزوجيه بابنتها إلاّ أن ذلك العهد تعطل بترحيل تهاني إلى قرية لا يعرف أحد كيف استطاعت بيئة قروية كتلك أن تخفي تهاني. ظل أسامة يبحث عنها في اتجاهات مختلفة حتى مع افتراض أنها تزوجت، كان يرغب في رؤيتها عن بعد، لينعم بقليل من الهدوء.

ووصل إليّ، ظننته في البدء عرف بما فعلته بتهاني، فاتخذت الحذر، إلاّ أن كل كلماته، كانت تدور في فلك اللوم لعدم إخباره بعلاقتي بها، وعندما علمت بأن أباها حملها إلى مسقط رأسه، نفيت أي شعور كنت أحمله لها، وأقنعت أسامه أني لم أخاطبها قط، وأن ما أُشيع عن علاقتي بها قد تكون من طرفها فقط، وشككت في هذا أيضاً.

هذا النفي جعله يحيا من جديد. وجدّ في البحث عنها، ذهب إلى قرية أبيها، ونزل ضيفاً على أقرباء أبيها، ولم يجد لها أثراً.

كانت خالته لا تعلم لأي جهة ذهبت ابنتها، فعندما عاد زوجها أخبرها أنه زوج ابنتها على أحد أقربائه، وأنهى حديثه لها بأن لا تسأل عنها أبداً.

وبعد عشرين عاماً، تزلزلت حارتنا بخبر مقتل تهاني.

حين كانت روح «صالح خيبري» تغرغر ما بين ترقوته وحنجرته، ذرفت عيناه، وطلب الغفران من زوجته، وأبنائه. أخبرهم بجمل قصيرة حارة بأنه غسل عاره بيده منذ أن رحل بها إلى مسقط رأسه، ولم يجعل عذريتها تتيبس، وهي تبحث عمن فضها، ولم يهمل أحداً فرصة لأن يعلق اللوم على تصرفه، فأغمض عينيه زافراً آخر هواء التصق برئتيه.

ارتفعت صيحات صفية (أم تهاني) وجداً على ابنتها، وليس على زوجها؛ حتى أنهم تركوا جثته داخل الغرفة التي قضى بها نحبه لليلتين متواليتين. كانت أم أسامة بجوار أختها، وتلتقط منها كل الكلمات المخبأة، وترويها لأسامة.

لم يعرف أحد من سلب عذرية تهاني، فلحقت بها الأقاويل متأخرة جداً، وأخذت تخمينات نساء الحارة، تبحث عن الشخص الذي أفسد حياة تهاني.

عندها تذكروا عزاء سميرة، وانطلاق صوت «صالح خيبري» منبئاً بأن لصاً دخل بيته وسرقه، ومع انتشار اعترافاته الأخيرة أيقن جميع أهل الحي أن ذلك اللص هو من قتل تهاني.

** **

ـ يقولون إنك أنت اللص نفسه.

كان يبحث عن يقين يزيل غمامة شكه، ولم أمكنه من ذلك، في كل مرة نتجاذب سيرة تهاني، أبعد ظنونه عني تماماً، فيستعيد ذكريات شبابنا، ويحصي كل شاب كان يطوف ببيتها، وفي كل مرة يستبعد ثلة من الشباب، ويبقيني وحيداً أمام بيتها وظنونه.

غدوت لا أطيق غياب نادر (أخو السيد)، فغيابه يمنح أسامة الوقت الكافي لتعذيبي بذكرى تهاني.

أوهم نفسه بتصديق ادعاءاتي، أو أنه أراد تحميلي جريرة فعلتي بإخباري عن كل التفاصيل التي تكشفت بعد موت «صالح الخيبري» (زوج خالته). الجرح الذي يمكنك أن تنكأه لخصمك يعيد الجرح ذاته، يعيد لحظة الألم. الألم كائن خرافي يمكن له الاختفاء لكنه لا يموت، يبعث بعثاً. عندها تقوم قيامة الأحداث التي عشتها في ماضيك، ومع ظهور الألم المتجدد يكون فيروساً يحمل مرضين: ألم الماضي، وجدّة الحاضر. وها أنا عدت مريضاً بتهاني!

تغيب أسامة لأسبوع كامل. خمنت أن سيده (نادر) أوكل إليه انجاز مهمة ما خارج جدة.

ظهر في حفل احتفال السيد بمجموعة من رؤساء الشركات، واضعاً نظارة سوداء، بوجه جامد، ومقتعداً آخر الصفوف، يقلب سبحة ذهبية بين أنامله من غير أن يستجيب لمشاركة الحضور تصفيقهم الجماعي للكلمات الخارجة من فم السيد، جلس متثاقلاً، ومد قدميه للأمام، واسترخى داخل حوض الكنب الذي يقتعده، نظارته السوداء منعت تحديد جهة نظره.

محمد الركابي لاحظ ارتداءه لنظارة شمسية في الليل، وكانت محل اهتمامه:

ـ ما بال أسامة؟ يرتدي نظارة شمسية في الليل!

السادة لا يتنبهون لخدمهم، نحن من يتنبه لاعوجاج بعضنا. قلق «محمد الركابي» أشعرني بالخزي، لم أعد أحفل بأحد، أو تثيرني حالة

أحد. أتعامل مع الناس والأشياء كعابر سبيل، ليس له غرض في الطريق الذي يعبره، سوى السير لقطع الطرقات التي ستوصله إلى مبتغاه. وكلما وقفت مع نفسي لا أعرف أي مبتغى أسير إليه. مجرد مسير كعروقي اليابسة تمرر دماً فاسداً، ولا تخجل من أداء هذا الدور!

كأن أسامة كان ينتظر انتهاء الحفل بفارغ الصبر، فمع احتزام المدعوين لـ(مشالحهم)، وتهيئهم لمغادرة جناح الاحتفالات بالقصر وتداخلهم في وداع بعضهم، نهض متحفزاً، ومتخلياً عن دوره في تلقي أوامر سيده، ليتحرك مقترباً مني هامساً:

ـ نسهر الليلة معاً.

اقتراحه كان أمراً. لم ينتظر أن يتلقى ردي، فابتعد متجهاً لسيده، ومنحنياً بما يكفي لسماع ما يتفوه به ثم استقامت قامته حتى تمكّن خادمان من نقل سيده لعربته المتحركة.

** **

الليل يجذب ساعاته المتبقية بجهد متواضع فيما كان البحر يحاول التخلص من رطوبته دافعاً أمواجه في اتجاه الكسارات الصناعية المقابلة للجهة الشرقية من القصر حيث مهدت مساحة رملية واسعة، زرعت بالنخيل، والنارجيل، وتناثرت الإنارة في خطوط لولبية على رؤوس تلك الأشجار توصل إلى البحر مباشرة، وتسلم له ضوأها بسخاء.

لم يشأ أسامة المكوث داخل الغرف، اصطحبني من مقر إقامتي، من غير أن يرد على سؤالي:

ـ هل كنت تبكي، عيناك منتفختان؟

سار صامتاً ممسكاً بيدي، ويده الأخرى تضم كيساً صغيراً لحضنه حتى أوصلني لجهة الشاطئ الرملي، وجذبني طالباً أن نقتعد الأرض:

ـ هل تخاف على ثيابك أن تتسخ؟

ـ ....

ـ سأسألك لآخر مرة: هل أنت اللص؟

ـ وسأجيبك لآخر مرة، لا ليس هو.

ـ إذاً سأخبرك عن انتفاخ عيني، لكي تبحث معي عن ذلك الخسيس الذي أفسد حياتي وحياة تهاني، لا، لا، بل نتشارك في قتله، هل تعدني؟

(تخرج كلماته مصحوبة بنفس ثقيل، ونفس ملتاعة، ولم يكن من خيار سوى إعطائه العهد).

مد يده للكيس الذي يحضنه، وأخرج قارورة (بلاك ليبل) انتصفت:

ـ سنتجرعها معاً.

ضحك باقتضاب: غدا هذا الشراب هو الزيت الذي نتزلج به في طريقنا الوعر.

وضع الزجاجة على فمه، وملأ جوفه بما يكفي لأن يتأرجح بين الوعي واللاوعي، وناولني ثم تراجع:

ـ أفضل أن تظل مستيقظاً لتسمعني.

وأعاد زجاجة (البلاك) لحضنه. اسمع ما سوف أقوله لك:

** **

صوت أسامة:

خالتي صفية صدقت زوجها عندما أخبرها أنه زوَّج تهاني من أحد أقربائه في القرية، وقبلت أوامره بأن لا تسأل عنها على مضض عسى أن يتغير الحال، وترى ابنتها، كانت تعلم أن ذلك اللص خطف شرف العائلة، وهرب مع الليل، ولكي يبقى هذا الشرف مصاناً كانت على أتم الاستعداد لأن تقبل بأي مخرج يقي أسرتها الفضيحة المنكرة.

لم يخطر في بالها بتاتا أن زوجها الرقيق الوديع يحمل صخرة بين ضلوعه. صلادة وقسوة تلك الصخرة تفجرت عند موته. تفجرت عن دم أراقه في سرية تامة، وبعيداً عن الأعين، هناك حيث مسقط رأسه. أراد أن يبقي ذلك الرأس مرفوعاً. كان يمكن أن تكون النهاية مختلفة عما حدث لو أن تهاني كشفت سر شخصية ذلك الخسيس الذي سرق حياتها وهرب. يؤلمني أنها أحبته كل ذلك الحب. تلقت الضرب المبرح، وبقيت صامتة، ومصرة أنها لا تعرفه، بادعاء أن شخصاً هجم عليها في غرفتها، وفعل بها ما فعل بالقوة، وأن استغاثتها هي دليل براءة. فلو أنها تعرفه لما استغاثت. جلدت طوال تلك الليلة، وأغمي عليها مراراً، و«صالح الخيبري» يستنطقها في استجواب مرير، ومع كل إفاقة من إغماءة، تصر أنها لا تعرف من سرقها، ولم يجرؤ أحد من أسرتها أن يقف أمام طوفان غضب أبيها.

لم أر امرأة تحب زوجها كخالتي، ولم أر امرأة تكره زوجها كخالتي، فحين كانت الحياة تغرغر غرغرتها الأخيرة في أوردته، وهو يبوح بسره، أخذت تنوشه بقوة؛ فعجلت بخروج روحه، وأخذت تلعنه لأنه هرب قبل أن يمكنها من إخراج كل لعناتها، وغضبها، ورفضها

لخضوعها له. كانت تسفح كل خلجات الحب التي حملتها له، وتستقبل موجات عاتية قادمة من كره ضرب بمده جدران قلبها، فتصدع. مع آخر أنفاسه ارتفع نحيبها، وأخذت تجذبه إليها، تحاول استعادته، كان خالياً من الحياة كأيامها التي انتظرتها لرؤية ابنتها البكر.

لم تكترث بالعدة، أو بالمعزين الذين قدموا من قرية زوجها لتأدية واجب العزاء، قررت أن تخرج للسلام على ابنتها، اصطحبت أمي معها، وعرضت نفسي لمسايرتهما. لم تكن ترغب في اصطحاب أحد من أبنائها. أرادت أن تتخلص من أي التصاق قربها ذات يوم من زوجها. طوال الطريق، وهي تدعو الله أن لا يرحمه، وتغالي في شتمه. كانت بحاجة لثقب تسرب من خلاله وجعها. وعندما نضبت دموعها تحرك لسانها في اتجاهين: الدعاء لتهاني بالرحمة، والدعاء بالعذاب الأليم لزوجها، وبين الدعاءين تصرخ بي:

- أسامة، هل تصدق أن تهاني ماتت؟

- . . . .

- حبيبتك ماتت يا أسامة!

سلكنا طريق الساحل، متجاوزين مدناً، وقرى رفضت أن نتوقف عند إحداها بتاتاً. كنت فقط أتزود بالوقود. وكلما هممت بالتزود بالماء، أو المرطبات، تصيح:

- تهاني تنتظر حرقة أمها فلا تؤخرني أكثر من هذا يا أسامة.

ويعتلي نحيبها:

- غدت رميماً الآن، فهل ستسمع لوعتي عليها!

وكلما قربنا من قرية زوجها، ازداد هياجها، فتلعن منشأه، وقريته، وقبيلته، وأولاده، وتختم لعناتها بلعن نفسها.

أكثر من مرة تفاديت دهم جمل سائب عبر الخط الطويل، وأنا أحاول تهدئتها، أو أحث أمي لفعل ذلك.

نزلنا ضيوفاً على قريب بعيد النسب لزوجها، لينتشر خبر مقدم خالتي بين نساء القرية، فتوافدت المعزيات اللاتي لم يتمكن من السفر لمدينة جدة لتعزيتها في وفاة زوجها، ولم يكن حالهم أحسن ممن جاءها لبيتها مسافراً لتأدية ذلك الواجب، جابهتهن مجتمعات:

- من جاءت تعزي في تهاني فعلى الرحب والسعة، ومن جاءت تعزي في صالح، فليس له عزاء عندي!

استنكرت النساء موقفها، ونعتوها بـ(المخبولة) التي جاءت لتتقبل عزاء في ابنة ماتت منذ أكثر من عشرين عاماً.

في القرية حكايات كثيرة لموت تهاني، اختلطت جميعها، وتناسلت، ولم تعد هناك حكاية ذات أركان لموتها، تهدمت حكاية موتها تماماً، كحياتها التي زهقت، لم يبق من يحمل في ذاكرته قصة موتها واضحة، الكبار منهم يختصرون الحكاية في قدوم صالح خيبري مع ابنته لزيارة أهله وأقاربه، وفي الصباح كان يحمل جثمان ابنته، ويودعه في الجهة الشمالية من القرية، واقتصر دفنها على أعمامها وأبناء عمومتها، ولم يحضر الجنازة أحد من أهل القرية ممن لا ينتسبون لجذرها العائلي، ورحل أبوها قبل أن يأخذ العزاء فيها.

أعمامها، وأولاد عمومتها اتفقوا على رواية واحدة لموتها، وكل

رواياتهم خرجت من فم صالح خيبري الذي روى أنها ابتلعت قطعة لحم فغصّت بها.

وعمها الأكبر «مطلق الخيبري» روى أن أخاه صالح نزل عليه، وبصحبته ابنته، فخصص لهما غرفة جانبية من الدار، ونادى عليهما لتناول وجبة العشاء إلاّ أنهما رغبا في تناوله بغرفتهما، وما هي إلاّ لحظات حتى تعالت حشرجة مخنوقة صحبتها جلبة تساقط أواني، واصطكاك بعضها ببعض، فطرق عليهما الباب، وعندما لم يجد رداً، تدافع هو وأخوته لخلع باب الغرفة، ليجدوا صالحاً محتضنا ابنته، وهي ملقية على صدره، ويده تسوي خصلات شعرها المنسكبة على جبينها.

كان يبكي بحرقة، ولم يفهم إخوانه ما حدث بالدقة، وبعد دفنها جمعهم راجياً منهم أن لا يصل خبر وفاة تهاني لأمها، أو إخوتها، متحججاً أن أمها مصابة بمرض القلب، وإن سمعت خبر وفاة ابنتها فلن يقوى قلبها الضعيف على تحمل الصدمة، وبذلك سيفقد زوجته وابنته في أسبوع واحد.

وظل الاستغراب قائماً: كيف استطاعت تلك الأفواه لجم ألسنتها، واخفاء موت تهاني كل هذه السنوات، وهذا الاستغراب هزت خالتي شجرته طوال الطريق المؤدي إلى قرية زوجها، وكلما رددته أثار حنقها، وحملها على وصف زوجها، وأهله باللؤم، والخسة، واخرجتهم من باب المروءة الذي لا يغلق على أناس لهم كل هذا المكر والتخفي.

وصفها ذاك كان وليد حرقة، جعلت الشتائم والأوصاف، تتطاير من غير أن تحمل دلالاتها الحقيقية، فهي لو استعادت حياتها مع زوجها، ستتذكر أنها البادئة بقطع علاقتها بأهل زوجها، وتعمدت معاملتهم

باحتقار، ونفور، وفي أحيان برفض استقبالهم في بيتها، واقتصرت علاقة صالح خيبري بأهله في أضيق الحدود في لقاءات ذكورية عابرة حتى ضمرت صلتهم، ولم يعد هناك اتصال بينهم.

كان مجيء خالتي إلى القرية حدثاً أثار اللغط بين أهالي زوجها، واتهام المدينة بالمرضعة السيئة التي تربي أولادها على التبجح، والتفسخ ضاربين بخالتي المثل الصارخ في التحلل من شرع الله، وإغفال العادات والتقاليد.

فها هي ربيبة المدينة، تترك زوجها الميت غير مكترثة بالعدة، أو بمن جاءها لتقديم العزاء، وتخرج لزيارة قبر ردم منذ عشرين سنة.

وخشيتهم من أن يلحقهم العار، اقتسموا قسمين: قسم بقي في مدينة جدة لتقبل العزاء في فقيدهم، وقسم لحق بخالتي لتقديم واجب الضيافة لامرأة لم تصل ديارهم منذ أن تزوجت بأحد أبناء قريتهم.

كان نساء القرية أكثر سلاطة، وتجريحاً لفعلها المشين، وزاد من هجومهن عليها حين رفضت استقبالهن لتقديم واجب العزاء في موت زوجها.

امتاز حديثها معهن بالصلافة والجفوة، فخرجن من عندها يحملن استغراباً: كيف عُنّ لصالح خيبري الاقتران بامرأة ريقها لا يجف من رشق الكلمات النارية؟

في القرية يطلقون على قبر تهاني (قبر الملعونة)، ولا أحد يعرف سبب التسمية، أو كيف شاع هذا النعت على قبر قذف في أطراف القرية، في فلاة متسعة كثرت بها أشجار الأثل، والمرخ، والسمر،

تحدها كثبان رملية تفرغت لمحاصرة القبر، وبئر معطلة، يقولون: ماؤها جف بعد أن دفنت تهاني في هذا المكان.

أرادت بعض النسوة مرافقة خالتي للوقوف على قبر تهاني، فاعتذرت، وفضلت أن لا يصطحبها أحد. حملت شتلات الرياحين، وجرادل ملئت بالماء البارد، وتحركنا (أنا وأمي في صحبتها) صوب القبر. احتجنا لأن نترجل من مقاعد سيارتنا، لقطع تلين رمليين، لنسقط في مساحة مستوية تناثرت بها الأشجار والأشواك، كان قبر تهاني مرمياً في زاوية شبه منفرجة.

خبت أقدامنا عجلة، وعادت تهاني حية تنبض بوجودها، لا أشك أن كل منا تخيلها، تنهض لتحيته، وملامحها معكرة بعتب الغياب الطويل، فلم نرد عليها إلاّ بالدمع والنحيب. ثلاثتنا سكب الدمع، وارتمى على قبر ذي حدبة صلبة، كانت عارضته الخشبية تحدد وضع مرقدها، تلك العارضة غرست عند رأسها، فتجمعنا (ثلاثتنا) عند قدميها، هبت رياح لتحرك رمال الكثبان المحيطة بنا.

ـ هذه أنفاس تهاني تلعننا.

ناحت خالتي، ولطمت، وهالت التراب على رأسها، وكلما هدأت، هبت الريح، ونثرت أتربتها لتعاود نحيبها:

ـ هذه أنفاس تهاني تلعننا!

حفزتني أن أحضر جرادل الماء، وشتلات الريحان، فانطلقت للسيارة حاملاً الماء والرياحين، صبت الماء، وفرشت الرياحين على القبر كله، ومدت يدها إلى حقيبة صغيرة غرستها في صدرها، لتخرج بذوراً زهرية مختلفة الأشكال، وغرستها على حدبة القبر:

ـ ستنبت هذه البذور من أجلك، يا تهاني!

جالت ببصرها في مكان قفر لا حياة فيه، فاستشعرت ذلك، وانتحبت:

ـ حتى رقدتك الأخيرة جافة يا تهاني.

بزغت عيون المتربصين من أهل القرية من بين التلال، تشاهد، وتسمع بكاءً حاراً على جثة قديمة.

فاستقبلتهم خالتي باللعن، وحثت التراب في وجوههم، وارتفع نحيبها لترتمي على القبر في محاولة لنبشه، فنزعتها نزعاً (بمساعدة أمي)، وقررت أن أعود بها مباشرة لمدينة جدة فقد بدأ عليها انهيار حاد.

جذبني إليه بقوة:

ـ أليست كافية هذه النهاية لتعترف بأنك من سرق حياة تهاني؟

وتناول زجاجة (البلاك)، وارتشف ما تبقى منها دفعة واحدة، ونظر إليّ:

ـ ألا يستحق من عقر حياتها أن يموت؟

وأطلق عدة صرخات متلاحقة خشيت أن تصل لمسامع السيد، فحاولت تكميم فمه ليقضم راحة يدي:

ـ لو ظفرت بذلك اللص سأقطعه بأسناني.

استعرت جمرة الماضي، وهذا الأحمق يواري جذوتها، يوصل شررها لديناميت الآثام المحتزم بها، وإشعاله لسيرة تهاني ستمكن ذلك الديناميت من نسفي حتماً.

ظلال الخدم تتراقص من بعد كظلال تتخطف جلستنا، وأقدام عجلة

تقترب وتبتعد، وسيارات تدخل وأخرى تخرج، ومجلس ينصب على مقربة من الشاطئ، حيث استجاب الخدم لأوامر السيد بتجهيز جلسة شواء بالقرب من المكان الذي نقتعده.

ثقل لسان وحركة أسامة، فأسندته لينهض، فاستجاب، وإن بقيت مسألة تؤرقه كثيراً، أفصح عنها بوضوح:

ـ ألا ترى كم نحن غرباء؟ أنا أبحث عمن فض بكارة تهاني لأقتله، ويوماً أُساهم في فض بكارة فتاة لها أسرة وحبيب، كم نحن سفلة!

تغلغلت الخمرة في دهاليز إدراكه، شف كثيراً، وأخذ يضرب جبهته:

ـ كم من فتاة عقرتها بتصرفاتي، وكم من حبيب يتمنى أن يقطع جسدي بأسنانه؟!

أدخلته إلى سريره، وأسدلت الغطاء عليه متمنياً أن لا يستدعيه سيده، وهو في مثل هذه الحالة، قبل أن أغادره، جذبني من ذراعي:

ـ أسألك بكل غالي لديك ألست اللص الذي أبحث عنه؟

طبطبت على كتفه:

ـ نم، غداً نتحدث.

لم تفارق قبضة يده عضدي:

ـ أفكر جيداً أن أنتقل كي أجاور قبرها، أؤنس وحدتها، لا يمكن لك أن تتصور الوحشة التي تلف قبرها.

ـ . . . .

ـ على الأقل أبقى بجوار قبرها كي أسقي البذور التي بذرتها خالتي،

ألا ترى أن هذا العمل عظيم بدلاً من الخساسة التي أمارسها في هذا القصر اللعين.

ليته لم يتفوه بجملة (هذا القصر اللعين) فقد تذكرت الكاميرات، وأجهزة التصنت التي ترصد كل تحركاتنا وأقوالنا.

أطبقت على فمه، وقبلت رأسه، فتراخت قبضته، وأغمض عينيه وهو لا يزال يستحلفني:

ـ بالله عليك ألست اللص الذي سرق تهاني من الحياة!

«حبيبي كشجرة تفاح

قلت أجلس تحت ظله

وكانت ثمرته حلوة لحلقي»

سفر نشيد الانشاد الغزلي الجنسي

من (الكتاب المقدس)!!

نسيت أمي تماماً.

خلتها سقطت مع أبي، وجاورته في قبره، تذكرتها عندما جاء زوجها مذكراً بها:

ـ أمك ترغب في رؤيتك.

ـ بأي لغة قالت لك هذه الأمنية؟

التقيت «غيث المهند» بهيئته الوقورة، ودعة طباعه. كان ينتظر أن أحدثه بلقب (يا عم) أو احترام كهولته بإزجاء كنية تقديرية، هذا الانتظار تبدد مع خروج كلماتي النابية. أغلظت له القول، رغبت في إذلاله، كان صبره واسعاً، اتسع لكل شتائمي من غير أن تنبس شفتاه بحرف؛ حتى إذا لم تعد ثمة كلمة سافلة قادرة على الخروج من فمي، تنحنح مفتتحاً حديثه بالصلاة والسلام على الرسول، وماسحاً وجهه بمنديل نقش بعناية (أعرف أن أمي هي التي طرزته، فمهارتها في التطريز لا يباريها فيها أي امرأة من نساء حيّنا)، تنبه غيث لتحديقي بمنديله، فقربه من وجهي مبتسماً:

ـ تذكر أن أمك لا تزال حية، واحترامي من احترامها.

ـ منذ أن اقترنت بك، حسبتها من الموتى، وليس ـ في هذه الدنيا ـ من أحد جدير باحترامي!

ـ لا ينفع هذا الكلام الآن، بر بها ما دامت تدب على هذه الأرض.

ذلك المنديل استفزني كثيراً، فقد كانت تطرز لأبي مناديل، وكوافي، وسراويل، وها هي تجلس الآن بنفس الحب الذي كان يظهر على محياها، وهي تطرز منديلاً لأبي. تزامن وده، وحديثه السهل مع مسح جبينه بذلك المنديل، ويبدو أن عدم لياقتي في الحديث معها، استثارته أخيراً، فحرث طبعه الوديع كثور مهمته نطح من هو أمامه، فلم أمهله كي يتشعب في حديثه الودود ـ رغم غضبه ـ، فمع كل كلمة يتفوه بها، أجز ناصيتها، وأعيدها إليه تقطر دماً، أوصدت كل أبواب المشاعر التي تمكنه من الدخول إلي، وصرفته بالشتائم كما استقبلته، ليمضى محولقاً، نافضاً يداً بيد.

نسيت أمي تماماً.

ارتباطها بغيث المهند، لم أغفره لها بتاتاً. كان لهذا الزواج تاريخاً سرياً نكثت عراه عمتي:

ـ بطن سنية لا يخرج نبتة صالحة أبداً. أمك هذه ملساء كالأفعى، كانت على ذمة أبيك، وهي عاشقة لابن خالتها غيث.

ظننت هذا القول تصريفاً لحقدها، فلم أبالي كثيراً بما قالت.

ومع انتقال أمي السريع لبيت غيث المهند، أوغر صدري عليها، كان انتقالاً لم أحسب له حساباً. بدأ التحضير له في الأيام الأولى لرحيل أبي، فقبل أن تسلم خالتها جسدها للمرض الذي أقعدها، جاءت

تتعكز لبيتنا لتقديم واجب العزاء في رحيل أبي، واغتنمت الفرصة، وأمسكت بابنة أختها (أمي) وأسرت إليها بأن ابنها لا زال متعلقاً بها.

لم يجف دم أبي في قبره، وهي تخطب، ولمن؟ لمن أحبته في شبابها.

- النساء كالإسفنج تمتص أي سائل، دماً كان أو ماء!

لا أعرف كيف استطاعت أن تنطق بالموافقة، وكيف عبرت لهذا الغيث عن التياعها حين ضمتهما غرفة واحدة؟ وكيف عبرت له أن شوقها الطويل لفراقه؟ هل نما لسانها المبتور؟

في الليالي التي كانت تجلس لتتدرب على نطق اسم أبي، كنت أرى فيها العاشقة، المرأة التي تنسى كل شيء إلاّ من تعشق.

وبسرعة فائقة نسيت كل شيء، وتذكرت أنها عاشقة، فبمجرد أن ردم أبي تحت التراب، نبتت هي على السطح، لتنمو وتتشجر. نسيت أن أسأله هل لي أخ حضنه رحمها من صلبه.

كنت أراها في تلك الليالي، وهي تتدرب على نطق اسم أبي، هل كان ذلك محض تخيل، لماذا ألغي افتراضية أنها كانت تتدرب على نطق اسم عشيقها كي لا تنساه!

أياً كان الأمر فهي الآن تدرب لسانها على نطق (غيث) بدلاً من (فاضل)، هذا هو عهر النساء، فمن ينام على صدورهن تخفق له قلوبهن.

قلت: الآن تدرب لسانها، وهذا هو إيقاف الزمن حين نظن أننا لم نبرح أحداثنا التي طحنتنا بمرورها، لا بد أنها استطاعت أن تنطق كلمة (غيث) في ليلة زفافها المؤجل، ذلك التأجيل الذي جاء فيه أبي على

هيئة النقطة المتممة للجملة، فقطعت تيار الخدر الذي سرى بين قلبين تشاركا في النبض منذ طفولتهما.

ذاكرتي تحمل أنها تزوجت بأبي عن حب، وأن فارس أحلامها قفز كل الصعاب ليصل إليها، فأيهما أحبت؟

كما تجيد المرأة الطهو ونثر البهارات بمقدار. تجيد نثر الحب بمقدار أيضاً. أظنها لعبت الدورين، لعبت دور العاشقة لعاشقين، ومن يصل إليها ستوهمه أنه الرجل الوحيد الذي هفا له قلبها.

في القصر تكشفت لي حجب أساليب المرأة، وهوائية مزاجها، ورخاوة عشقها، وسعيها للاحتدام، والاحتراق، والانصهار، أوه، كيف لو أن تهاني كانت تلعب الدورين معي ومع أسامة، وإن لم يكن أسامة فهناك ثالث أو رابع، لو كان الأمر كذلك، فكل ما يحدث عبث، وعدم.

كره جدي (لأمي) غيثاً، ولم يشأ تمكينه من الدخول إلى قلبه بالاقتران بابنته، ورفض رفضاً قاطعاً أن يذكر اسمه على مسامعه، ولم يرضخ لتودد زوجته، وهددها بالفراق الأبدي إن هي حاولت تليين قلبه على غيث، فأبعده، وقرب أبي الذي بنا له منزلاً، واختاره زوجاً لابنته من غير استشارتها.

وبقي عشق غيث عالقاً بصدرها، فهل كانت أمي تعطي جسدها لأبي، وقلبها يصلي باتجاه غيث.

يقولون إن اسمي كان غيثاً.

ظللت على هذا الاسم ثلاثة أسابيع، وعندما علم جدي (لأمي) بذلك أيقن أن عشق ابنته لابن خالتها لا يزال متوهجاً، جاء زائراً ومقدماً هديته، وحاثاً أبي على تغيير اسمي.

الآن أحمل لها كرهاً موازياً لكره عمتي.

يبدو أن المرأة تمنحك الجسد للمتعة، وتضن بقلبها عليك، تبقيه نابضاً حياً، لتوفر مشاعرها الفياضة وتسكبها على أبنائها، هذا في المجمل، أما أمي فذكرياتي معها مشوشة، وكلما اكتشفت شيئاً من سيرتها، عدت أنقب في ذلك التشويش عما ينفي أو يثبت المقولات التي تصلني.

هل صدقت العمة خيرية حين دأبت على القول إن رحم سنية لا يخرج إلاّ الثمار الفاسدة!

لو صدقت، يكون اقتصاصي منها حماقة، مجرد عبث مزاجي، أو أنه المضي لإتمام قدر مكتوب.

وهل فعلاً اقتصيت لأمي، أم اقتصيت من النساء مجتمعات في صورة عمتي بتقطيع أجزاء منها، أو في تهاني بهتك عذريتها، أو أمي بنسيانها، أو بإتيان الرجال كاكتفاء وعدم الحاجة للمرأة.

نتساقط الواحد تلو الآخر. لا أحد يختال على جاذبيته، كل منا يسحب رغماً عنه ويسقط، هذا السقوط هو الإحلال،الرحيل من نقطة لأخرى وصولاً إلى القرار.

الدكتور خالد بنان يعرف مواقع الأشياء لكنه ضائع دائماً، هو صاحب فكرة الإحلال. في ليلة حضر مجالستي لـ«جوزيف عصام» وسمع نتفاً من أحاديثنا، وتأوهاتنا على حياة تتسرب من بين أيدينا،ولم يشأ تفويت المناسبة في إظهار معرفته بالمواقع، تحدث كثيراً محللاً حالات تنقلاتنا وأنهى حديثه بجملة طويلة:

هذا هو الإحلال، النفق أو المنفذ النفسي الذي استخدمه الإنسان

عبر التاريخ، حتى فكرة الثالوث هي هروب من تخيل المطلق، فالعقل يستفزه ما لا يستطيع الإحاطة به، ليكون التخيل هي اللعبة التي يقدم عليها لاستحضار المتخيل على أرض الواقع.

انهيارات نفسية تجتاحني، وفي كل مرة أستند إلى الايمان بقدريتها، وذات ليلة طاعنة في الحزن كان جوزيف عصام يسندني، خلته يقوم بدور الطبيب النفسي، فإذا به يحدثني عن أهمية التطهر من خلال الاعترافات، كنت رخواً حيال أفكاره الدينية، فبذر في داخلي كثيراً من المعتقدات المسيحية طمعاً في تنصيري.

أغراه بي إصغائي له، لم أكن معه مباعداً بين الأديان، وعندما وجد الطريق سالكاً احتاج لمن يتطهر بين يديه، كنت له الحافظة التي يضع فيها نواقصه البشرية، ذات حزن، انقلب السحر على الساحر، فأجلسني ليحدثني عن معشوقته التي هرب منها، فتاة صغيرة نسي أن يصف جمالها، وتذكر رقتها وعذوبتها، عشقها خالصة، وأبحر فيها «حبيبي كشجرة تفاح قلت أجلس تحت ظله وكانت ثمرته حلوة لحلقي»، لم يكن بحاجة إلاّ لعذوبتها، يمرر صفاء تلك الروح الحلوة لداخله المر، فأبحر متصوفاً خالطاً ما بين عشقين، جامعاً المحرم والمحلل، فأيقظته جمرة الدين، وحرض نفسه على الهرب منها ومن عشقه، هذا الهروب سببه أن الفتاة كانت ابنة أخته!

كل منا له سقطة عميقة لا يعرف قرارها إلاّ هو، والآن أستشعر أن السقوط درجات زمنية، تمتلك ـ في كل زمنية ـ أحاسيس ضاغطة فتيقن يقيناً مطلقاً أن حكمك على الأشياء صائباً حتى إذا هويت ـ أو صعدت ـ تتغير تلك المشاعر، ويغدو حكمك الصائب حكماً خاطئاً، عندها يكون الفعل، أو الحدث قد رحل في زمنيته فلا تقدر على التصويب.

ها هي أمي تسأل عني بعد كل هذه السنوات. تتذكر أن رحمها سفح كائناً لا زال ينمو بعيداً عنها.

الإنسان يتذكر منتجاته عندما يصبح غير منتج، وهذه هي مكاسب الماضي، تمنحنا الزهو حين لا يقدر أي منا على مواصلة الإنتاج.

يقولون إن الأبناء هم (العكاكيز) التي يستند إليها الآباء في شيخوختهم، أما الطفولة التي لا تجد عكازاً فعليها أن تسقط مراراً، كم هي المرات التي سقطت حين كنت طفلاً، ولم أجد من يسندني في سقوطي؟

فأي عكاز معكوف غاب عني في تلك الطفولة الأولى؟

هل بات جسد أمي غير مشتهى، وغير قادر على استقطاب غيث، فأخذت تبحث عمن يحب ذاتها حتى لو غدت رميماً.

أشعر بأني أبسط الحماقة، وأتنقل فيها، فالحماقة كلون البشرة لها بيئتها الخاصة التي تنتجها، فلماذا أتخبط في الأحكام، والأفعال؟

هل عشت في بيئة لا تلد إلاّ الحمقى، والمعتوهين، والشاذين؟

أحداث متعاكسة نصنعها في أوقات مختلفة، ونجدها أمامنا ـ في زمن آخر ـ نلتقي لقاء الغرباء، أو عابري السبيل، يكون فيه ماضينا كاللوحات الإرشادية المضللة، فلا تستقيم لنا العودة، أو المضي لوجهتنا.

هذا الماضي الذي تخلصت منه، ها أنا أعلق فيه من جديد.

أسر أحد الحراس بتواجد إبراهيم عند البوابة الرئيسة للقصر، وأن له ثلاثة أيام يتردد إلى هناك.

ـ لم أعرف أن السؤال عنك يقود للسجن!

تم احتجازه في الغرف التابعة للبوابة الرئيسة، كان منظره مرتبكاً، وهو يتلقى أسئلة الحراس المتلاحقة.

فر من محاصرة الحراس له عندما رآني مقبلاً:

ـ لن أسأل عنك بعد الآن!

كان فمه مليئاً بالأسئلة، والعتب:

ـ بحثت عنك طويلاً.............. ماهي أخبار عمتي؟

ـ هي بخير، سأخبرك بكل أخبارها لاحقاً.

ـ هكذا، بخير بعد كل هذا الوقت، ألم تقدر جزعنا على غيابها.

ـ لنؤجل لومنا إلى أن أصلك.

لم أكن قادراً على إدخاله للقصر، ولم أكن قادراً على مرافقته، فضربت له موعداً أن أعوده في البيت.

هذا الحوار مضت عليه سنوات طويلة، لم أنفذ فيه وعدي لإبراهيم، وأنكرت نفسي من أي شخص يطلبني، أو يسأل عني، أردت قطع الحبل السري الذي يربطني بأحد، أو مكان، أو زمان.

أسامة كان الصنارة التي تجذبني للماضي، وللحي، وتعيدني لبداية الرحلة الأولى، محاولة القطيعة مع الماضي حولتني إلى مغناطيس تغالبني حالة الجذب، والتنافر.

كان فيها الجذب أقوى، كل الذكريات، والشخصيات التي أهرب منها، تنجذب إلي، أو أنجذب إليها، فنلتصق، ليعتريني الضيق وأبدأ في البحث عن الخلاص.

تهاني التصقت بمخيلتي، ولم تغادرني، عمتي انغرست في حياتي كمسمار صدئ، بقي جرحاً عفناً، ينز بصديده وروائحه النتنة، وسعاد عادت بياسر مفت تبحث من خلالي عن منفذ للحياة، وهي لا تعلم أنها أعادت سيرة انحرافي الأولى من خلال إليتها، وإلية زوجها، ومصطفى القناص الذي كنت سبباً في كسر اعتداده برجولته، وخروجه من القصر ذليلاً ليواصل التسكع في الأزقة، باحثاً عن وسيلة ليبر بقسمه، ويزهق روحي، وأسامة يبحث في داخلي ـ ليل نهار ـ عن دليل يثبت أني اللص الذي سرق حياة تهاني، وأمي، وغيث المهند، وإبراهيم، وعيسى، ااااااااااااااااه من عيسى.

كلهم كلاليب غرست في لحمي وذاكرتي، وكل واحد منهم يخطف قطعة من الروح.

غدوت ممزقاً تماماً. كانت الهاوية سحيقة.

مع التقائي بغيث المهند، أردت الجمع بين عيادة أمي، وزيارة إبراهيم المتأخرة جداً عن الموعد الذي ضربته له، ويومياً أؤجل هذه الزيارة حتى مضت عليها سنة، سنتان، ثلاث سنوات، سبع سنوات، أيام طويلة وأنا أُسوف في مواعيدي.

في ظهيرة السابع من أغسطس الحارقة، كان غيث المهند يستجدي الحراس لإيصاله بي، فأنكروا وجودي بتاتاً، وكان يصيح بهم:

ـ اتقوا الله، أمه ماتت، ولا بدّ أن يحضر دفنها.

كان أحد الحرس قد استدعاني من الداخل لرؤية السائل، فكنت أرقبه من غرفة الملاحظة، وأسمع كل استجدائه وتوسلاته وشكوته من الأمراض المزمنة التي تمنعه من الوقوف الطويل.

ـ أخيراً، ماتت.

ها أنا أتخلص من وعد نسيته من سنوات.

تأثر الحراس بموت أمي تجاوز تأثري بمراحل، كاد أحدهم إخبار غيث المهند بأني أسمع كل كلمة يتفوه بها، ولولا خشيته على وظيفته لجذبني من ياقة ثوبي، وأوقفني أمام غيث المهند ليريحه من استرحامه لهم.

ـ أنا أعاني من أمراض: السكر والضغط والقلب، ولا أقدر على المكوث طويلاً، أخبروه فقط أن أمه ماتت، وسيصلى عليها صلاة العصر في مسجد الخير، هو يعرفه إذا لم ينس بيوت الله كما نسي أمة. وإن لم يلحق بنا في المسجد فسوف ندفنها في مقبرة أمنا حواء.

أنهى يأسه بتلك الجملة الطويلة، ومضى يجاهد انحناءة ضربت عموده الفقري.

كبير الحراس بالغ في تقديم تعزيته لي:

ـ هل تعلم أن وفاة الأم مصيبة وأي مصيبة، فمع موتها يقول الحي القيوم لملائكته: أغلقوا الباب الذي كنا نكرمه من أجلها.

فقطعت وجومه، وحزنه بادعاء أن المتوفية هي أمي بالرضاعة، هذا الإنكار لم يمنعه من دفع جملة وقفت في بلعومه:

ـ هذا لا يمنع من كونها أمك، على أية حال عظم الله أجرك.

غيابي عن حضور دفن أمي ظننته كفيلاً بتيئيس أي شخص يرغب في السؤال عني إلاّ أن مجيء إبراهيم ـ بعد سنتين من وفاة أمي ـ سائلاً عني حاملاً إلحاحاً مضاعفاً، وبنفس الطريقة التي وقف بها غيث المهند،

سمعته ورأيته، ولا أعرف لماذا خرجت له ـ يبدو أن القدر يكتب رغماً عن أنوفنا:

ـ تحملت كل العنت لأقف مرة أخرى سائلاً عنك لأمر خطير.

ـ . . . .

ـ اسمع، لا بدّ أن تعينني.

فسارعت بإخراج دفتر الشيكات متعجرفاً، ومتفحصاً قامته الملاصقة لي:

ـ كم تريد؟

فأطبق على يدي محتقراً عجرفتي:

ـ لا أريد مالك، فالمال الفاسد له رائحة فاسدة، أريدك أن تعين أختك.

ـ أختي، أي أخت هذه؟

ـ أنسيت أيضاً أن لك أختاً؟

ـ لا أعرفها، ولم أرها.

ـ المهم، هي أختك، وهي بحاجة لمساندتك كما ساندت صديقك ياسر مفت.

ـ هل هي مسجونة؟

ـ اتقى الله، مسجونة! أختك في ورطة.

ـ حسنا، أزورك، ونتحدث.

أطلق ضحكة تهكم غلبت على محياه الوقور:

ـ تزورني! أنسيت أنك منذ سبع سنوات، وعدت بهذه الزيارة، ولم توف بها.

ـ الحياة مشاغل يا إبراهيم.

ـ اسمع يا طارق، أختك ليس لها إلاّ أنا وأنت، وهي عرضنا وشرفنا في الأخير، وأنا عاجز عن مساعدتها، فإن كنت لا تستطيع مساعدتها فأخبرني علني أجد من يساعدها.

ـ لا أعرف ما هي قصتها، وكيف أساعدها؟

ـ ألا ترى أن الحراس يستمعون لنا، والبيوت أسرار، إما أن تصطحبني معك، أو تأتي معي.

ـ الآن لا أستطيع، انتظرني مساء اليوم، لا لا، انتظرني غداً.

ومضى هذا الغد أيضاً ساحباً سنتين أخريين.

كنت راغباً أن لا أعلق في الماضي وأوحاله، كانت الكلاليب المغروسة في لحمي تكفيني لأن أهرب من كل شيء، ولم أكن راغباً في معرفة هذه الأخت، التي سمعت بها في ولادتها، خشية من أن تتحول إلى قطعة حديد تنجذب لقطب المغناطيس الذي غدوت هو.

لم أذهب لإبراهيم، ولم يعد ليسأل عني.

** **

في ليلة وفاة والدتي حل غمام شارد في سماء مدينة جدة، فطاردته بروق مدربة استشرت قسوتها، وشقت لها دروباً، ومسالك متعرجة في المدى لمحاصرة كتل الغمام، وإنزالها قسراً.

ومثل تلك البروق تماماً، ومضت شحنات اللوم والتقريع ـ غير المدربة ـ في أعماقي، فتصدعت، وتساقطت أدمعي قسراً.

سنوات طويلة تيبست أدمعي، لم أذرف دمعاً خلال تواجدي داخل القصر، فتصحرت روحي، وألفت انبعاث الأعاصير والزوابع الراكضة بين الرمل والشوك.

وجدت نفسي أحوم حول أسوار مقبرة (أمنا حوء) وبابها الموصد، كل شيء بها موصد، وها هي حواء تجمع أبناءها حولها ليشاركوها الفناء. يتحللون داخل تربة تتغذى على أجسادهم ويزيدون التراب تراباً.

حواء تخرجنا من الجنة، لنتناثر في مناكب الأرض كالبهم الضال، وحين نمل من السير والرغاء، ندلف لجوف الأرض لنجدها قد سبقتنا للفناء، هي لا تنتظرنا تحت الأرض لتضمنا إلى صدرها، هي سبقتنا للموت، كما سبقتنا للجنة وأخرجتنا منها، هي تفعل الفعل الأول، ونحن ننسخ صوغ ذاك الفعل.

وأنا أطوف بأسوار المقبرة والبروق تطاردني كغيمة عصية، تشقق وجهي، فاستسلم لجبروتها، وأنهمر باكياً أشارك المطر الغزير عبثه في أرض سبخة.

هنا لا جدوى من الماء.

الأرض السبخة ابنة عاقة وعاقر أيضاً، فما الذي يمكن أن تفعله الأمطار للموتى؟

هذه أول ليلة تنام أمي في تربتها.

كنت أفكر بقفز أسوار المقبرة، وقذف جسدي لداخلها، أوه لو فعلت هذا هل أجد أمي تنتظرني، وما الذي يمكنها أن تخبرني به، وجزء من لسانها ازدرده قط شارد، كنت أفكر بالقفز، والبحث عن قبر رطب لأجلس بجواره، وأسكب كل لوعتي، وأمضي. كنت أفكر بهذا

الفعل كآخر اعتذار يمكن تقديمه لها عن غيابي الطويل، ذلك التفكير كان مجرد محاولة إيناس ليلتها الأولى، ومع انهمار المطر خبثت الفكرة تماماً، فأين أجدها، والمطر ساوى ببلله بين قبور الأقدمين ومن جاء للتو.

لم أرها منذ أن تزوجت.

نسيت وجهها، يا ترى كيف غدت مع المشيب، هل تساقطت أسنانها؟ واحدودب ظهرها؟ وكيف كانت تشكو من الأمراض؟ أو كيف كانت تنام على أوجاعها في ليالي مرضها الأخيرة؟ وهل استطاع رحمها أن يطلق أبناء آخرين غيري؟ وهل سيكون مصيرهم كمصيري؟ الم تقل العمة خيرية إن رحمها لا يخرج إلاّ الثمار الفاسدة.

طوافي بالمقبرة ولوعتي على فراق أمي، والمطر المنهمر الذي غيب مرقدها جعل أدمعي تتساقط، كنت بحاجة لإنزال ما يمكن إنزاله من صدأ الروح.

ذهبت أمي لقبرها، استشعرت بالوحدة، وبقسوة بقائي كغصن مضى على وجوده زمن طويل، وهو متجرد من الاخضرار والأوراق.

عندما كنت أبكي ـ وهذا نادر ـ كانت العمة خيرية تقشع جلدي بما تجده في يدها:

ـ الرجل لا يبكي! كما أن البكاء لا يعيد شيئاً لأصله، فكن رجلاً.

خلال السنوات الطويلة التي أمضيتها داخل القصر لم تنزل من محاجري دمعة واحدة، كل الكوارث التي حدثت أو أحدثتها كنت أتلفها من ذاكرتي، وأسير في يومي كعقرب ساعة عليه أن يجتاز الدائرة.

وقفت أمام بوابة المقبرة، وأردت أن أدعو لها وللمؤمنين الذين

تشاركهم مرقدهم، فلم أستطع تذكر الدعاء الخاص بزيارة القبور، غمغمت بكلمات مفككة، استشعرت بتواضعها أمام جلال المكان، فقطعت أدعيتي، ومسحت بقايا أدمع لم يعد لها معنى.

وجهت سيارتي صوب (الفيلا) تلك الخرابة التي شيدتها بيدي، ووضعت فيها بومة تنعق ليل نهار.

كلما اتجهت شمالاً قلّ تساقط المطر، وخفت لمعان البروق، وعادت أدمعي لتحجر، وعاد القلب صلداً كما كان.

أدرت المفتاح في البوابة الخارجية لـ(الفيلا) فارتفع أزيز الصدأ منبهاً ليلاً مضت خطواته الأولى متمهلة، وفزعت أشجار المدخل لهذه الزيارة المفاجئة، فلم تلحق لتغطية شحوبها، وذبول أوراقها.

أضأت مصباح الصالة الداخلية، وصعدت من السلم الداخلي مخترقاً ممرات تقود لغرفة عمتي.

ربما مضى شهر أو شهران على آخر زيارة قمت بها لها حين زودتها بأنواع الأغذية المعلبة، هذه المرة لم أجلب لها شيئاً.

وفاة أمي أحال يومي إلى يوم غائم، يوم غير معتاد في سماء جدة، ويوم لم يعتد مزاجي على انبعاث مشاعره بهذه الصورة.

ماتت مكتفية بمحاولة وحيدة لجذبي إليها. لم تحاول مرة أخرى استدعائي لرؤيتها.

كنت كالطفل محتاجاً لبعض الإلحاح لأستجيب لرجائها، أو ندائها، أو تكرار المحاولة، كنت محتاجاً لجزء يسير من الإلحاح أو الإصرار، إلاّ أن ذلك العجوز الرث لم يعد لإبلاغي بأن أمي لا تزال حية، جاء ـ بعد سنوات ـ حاملاً أمراضه ليقول إنها ماتت.

هكذا رحلت دون أن تمكنني من تعليق اللوم على جيدها، أو تمكيني من احتقار أمومتها الزائفة، أو معاتبتها لتخليها عني، وانتقالها لصدر عاشق لم يتزوج، كان ينتظرها لسنوات طويلة، وربما قطع تلك السنوات داعياً أن يموت أبي ليعيدها لصدره.

بقيت عمتي المرأة التي كرهتها على الدوام، بقيت جرساً ينبه كرهي كلما غفي.

ـ ما الذي جاء بي الآن إليها؟

منذ أن دلفت لداخل (الفيلا) ورائحة نتنة تجوس في المكان، ومع ممشاي صوب غرفتها تتكثف تلك الرائحة:

ـ علها ماتت.

ستكون مهمتي زيارة المقبرة ليومين متتالين، وسأتمكن من جعلهما متجاورتين؛ ليكملا خصامهما وعداوتهما إلى أن تقوم الساعة.

كلتاهما مبتورة اللسان. اقتصصت لأمي في ساعة رجحان كرهي لعمتي، فعلت هذا عدلاً بينهما حين أجلس لتوزيع كرهي عليهما. هل أجد لعمتي قبراً مجاوراً لقبر أمي؟

ولو جاورتهما ـ في قبرين متجاورين ـ هل سيمضي خصامهما الطويل بالتأتأة؟

ـ التأتأة لا تمكن الروح من إخراج فضلاتها.

التأتأة لا تشترط أن تكون اللسان مبتورة، فكلنا نتأتئ أمام السيد حتى غدت صدورنا حاوية لجمع القاذورات. الروح الحرة هي من تخرج فضلاتها.

حامت رائحة خانقة بين الممرات المؤدية لغرفة عمتي، خليط من الروائح: رائحة براز، وبول، وعفن، وصنة، ومذر، وزناخة.

موتها وسط هذه الروائح سيكون جالباً للريبة. لا ضير من التريث، وعدم إعلان موتها فلا أحد سيتشقق قلبه لوعة على فراقها، ووسط هذه الروائح لن تتمكن امرأة من غسلها، التريث سيمكنني من تهوية المكان كي تتطاير رائحتها الأخيرة مع بقايا وشل تحدر على الجدران الخارجية.

كل ما أخشاه أن تكون قد تحللت جثتها، وانتفخت، وانبثت.

أغلقت منافذ تنفسي تماماً، وأدرت مفتاح باب غرفتها.

كان رعباً حقيقياً.

غرفة غارقة في ظلمتها، تجوفت لابتلاع ظلام دامس، وتجشؤ رائحة كريهة.

بحثت يدي عن مفتاح الإضاءة، وحافظت اليد الأخرى على إغلاق منافذ التنفس، ومع انقشاع النور هالني ما رأيت، لم تكن غرفة بل مرمى للقمائم، تكومت وتناثرت الأشياء بعضها فوق بعض:

أكوام الملابس، وغيارات، وكراتين، وعلب، وزجاجات، وأغطية معلبات، وبقايا أغذية، وسرير مقلوب، وفرش، وألحفة، وخزانة ثياب منكوثة، وبراز وبقع دم متيبسة.

حالة فوضى عارمة تسكن الغرفة. جلت ببصري بحثاً عن جثتها بين هذا الركام، كان بصري يجري على أسطح الأشياء فلا ألمح لها أثراً.

مددت كلتا يداي لإزاحة الأشياء عن بعضها، (متحاملاً استنشاق تلك الروائح الكريهة)، ومع كل إزاحة تنبعث رائحة العفن من تراكم أغذية فاسدة، أو براز لم يجف.

ـ هل تحللت جثتها أسفل هذه القمائم المتراكمة؟ وما هذه الرائحة النتنة إلاّ بقايا منها.

تنقلت بقدمي فوق تلك القمائم المكدسة والمتناثرة بعشوائية، وخشية أن أدوس على جثتها تتفاقم في داخلي، فأتنقل بحذر متخيلاً انغراس قدميَّ في أحشائها، ومرة أتخيل سحق جمجمتها، وأخرى تكسير عظام قفصها الصدري.

شعرت بالصدمة، وتسارعت نبضات قلبي حين أخذت على حين غرة، فلم يكن في الحسبان أن تقفز من بين مجموعة كراتين بتلك الصورة الوحشية.

ارتمت فوقي تحمحم، وبيدها مجموعة علاقات حديدية برمتها على شكل سهم حاد ومدبب، وأخذت تغرسها في ما تصل إليه من جسدي.

دفعتها من على صدري بكل قوة، فارتطمت بجدار الغرفة تئن بصوت ثقيل له هيبة الوحوش الكاسرة العاجزة.

كان منظرها بائساً: هيكل عظمي، تخففت من ملابسها كثيراً، فبرزت عظامها، وجرت تجاعيد جلدها في خطوط طويلة ومتداخلة كبيت الأرضة، وتكسرت مقدمة أسنانها، واستطالت أظافرها بسواد القاذورات الساكنة بها، شعرها الأبيض المنكوش قرب هيئتها من الجنون، بقيت عيناها غائرتين مع احتفاظهما بحدتهما.

حاولت النهوض فلم تستطع، يبدو أنها استنفذت كل قوتها التي شحنتها لمهاجمتي، بادلتني النظرات القاسية، وهي تمسك سهماً، وتستجمع قواها لمعاودة الكرة، بتثاقل شديد استطاعت النهوض، وتحركت صوب مفتاح الإضاءة، وضغطت عليه لينتشر الظلام الدامس مبقياً إضاءة شحيحة شعت من فرجة باب الغرفة الموارب.

اكتسبت قدرة على التحرك في هذه الظلمة، أحسست بها تحيط بي، وتختار صدري لتصوب طعنتها قبل أن يعود النور لهزيمتها. أخذت في التراجع رويداً رويداً، أتلمس الوصول لباب الغرفة الموارب، كانت حركتي أسرع من تصويباتها، وصولي إلى الباب، كان أسرع من ضربتها التي وصلت متأخرة، أغلقت عليها باب غرفتها، وأسرعت بمغادرة (الفيلا).

كانت هي أيضاً تسن حقدها.

في خرابتها تلك، جلست تصنع أداة لتغرسها في صدري، وتنهي ما سفكه رحم سنية من نسل فاسد.

وأنا أنطلق هارباً من (الفيلا) كان ثمة سؤال يلوب في مخيلتي:

ـ هل كانت كاميرات السيد تصور ما حدث داخل تلك الغرفة المظلمة؟

أدرت محرك سيارتي في الاتجاه المعاكس لمخرج الحي، لينتابني وسواس قهري:

ـ هل أغلقت الباب عليها. أم لم أتمكن من ذلك.

تأرجحت بين اليقين والشك، وكنت راغباً في تأكيد أيهما الأصح لكن خشيتي من نهوضها من خرابتها كوحش كاسر فاق أي رغبة في تأكيد أي الأمرين قد حدث.

نصبت جلسة على اللسان الأسمنتي الممتد لعمق البحر (السقالة)، واقتصرت على قلة من الخاصة، انشغلوا بالمداولات عن سوق الأسهم، والخطط الكفيلة بتجفيف السوق من بعض الأسهم للسيطرة عليها فيما بعد، وجني أرباحها كما حدث هذا اليوم.

انهمك الخدم بتقديم المقبلات الحاذقة والسلطات المتنوعة، لتهيئة البطون في استقبال الوجبة الرئيسة التي أعدت احتفالاً بمناسبة حصد كل تلك المكاسب العظيمة.

خصصت الدعوة للشخصيات المسيطرة على توجيه سوق الأسهم، شخصيات اختلفت مواقعها ومسؤولياتها، وكانت توصية السيد جذب مزيد من الأموال للسوق من خلال تسهيل القروض الفردية، وتحفيز «عبدالرزاق ميمني» على إقناع مسؤولي مؤسسة النقد بالتدخل، وتمرر قراراً للبنوك بإقراض المواطنين أضعاف أضعاف رواتبهم، مع تنشيط دعاية البنوك في هذا الجانب، وتسهيل إجراءات هذه الطلبات.

ناقشوا خططاً عديدة لخلق وفرة مالية ضخمة تدفع بالسوق إلى استقطاب كل الأموال المدخرة، والأموال المستثمرة في قنوات أخرى، لتصب جميعها في أوردة السوق.

هذا الجو المالي لم يرق للفتيات الحاضرات ومنهن: مرام، ورحاب اللتان بقيتا تتململان في جلستيهما راغبتين في إعادة ترتيب أعضائهما من الجلسة الطويلة، فنهضت رحاب، وأسندت جذعها على سارية الجسر

تنظر للسفن البعيدة المتجهة صوب الميناء، والمغادرة منه، واضعة سماعة الجوال على مسامعها لاستقبال أغاني المطربة شيرين، وانضمت إليهما هدب، ونوف لمناقشة فكرة السفر لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في باريس.

غروب الشمس ينعكس على مياه البحر العميقة فيكسبها جواً شاعرياً يبتذل تلك المماحكات المالية التي انشغل بها سيد القصر مع أعوانه في سوق الأسهم، فرحتهم بتحقيق انتصار مالي مهول أنساهم وجود الفتيات المشبوكات أناملهن بأكف بعضهن، كان وجود الفتيات مكملاً للصورة، فلم يثر وجودهن نوازع اللوعة لدى المجتمعين.

كنت أقف مباشرة أمام مرام متفحصاً فستانها الأسود المتخفف من الأكمام كاشفاً نحرها، وكتفيها، ومحاصراً نهديها المشاغبين غير المستقرين في مكانهما، كما لو أنهما يبحثان عن فرصة لاكتساب مساحة من الظهور.

اعتقلت عيناي مراراً، وهما تجولان في صدرها، وتدعوان سراً أن تحين الفرصة لينتصر نهداها على اجتياح تلك المحاصرة المحكمة من فستانها.

اشتهيتها منذ أن رأيتها.

امتازت عن سواها بمقدرتها على إثارة دوائر الإغواء في المحيط الذي تتواجد فيه، بحركات مدروسة، فقد تمكنت من حرفتها بالرغم من صغر سنها. أخبرتني فيما بعد أنها أحست بحرارة عينيّ تقفان بين نهديها، فتعمدت في كل مرة تراني فيها أن تفتح نوافذ جسدها كي تبدد حرارة شغفي بها، وتسربها إلى مناطق أخرى من جسدها.

تتشارك مع صاحب القصر في غموضها، فلا أحد يعرف من أين

جاءت، أو من أتى بها لداخل الجنة، يقولون إن زوجها قدمها هدية لسيد القصر في صفقة تجارية، قفزت به لمصاف الأثرياء، وبعضهم يمرر حكاية أن السيد سرقها من زوجها عنوة وبمباركة قضائية، وحكاية أخرى تقول إنها ابنة تاجر كبير قدمها للسيد كرهينة مقابل قرض مالي ضخم حصل عليه، لينهض من عثرته التجارية. وآخرون يقولون هي إحدى فرائس أسامة، أقاويل كثيرة تحاك عنها، ولم يصل أحد لتأكيد صحة أي منها.

وظلت تلك الحكايات تلاحق مرام لمعرفة من أين جاءت وكيف وصلت إلى ما وصلت إليه. وحسب معرفتي أن السيد رآها في صحن القصر، ووقعت نفسه عليها.

في تلك الليلة أجريت عملية الاقتراع فجاءت مرام من نصيب المليونير «صبري الطائر». كانت فكرة الاستيهام على بنات السهرة من تدبير «جوزيف عصام»، فاستحسنها السيد لما لها من إثارة وتحفز، ففي نهاية السهرة، يملأ إناء فضي مجوف بخليط من المشروبات الكحولية، ويغمر المقترعون مفاتيح سياراتهم داخل ذلك الاناء، ويدار به بين فتيات السهرة، لتلتقط كل واحدة منهن مفتاحاً من المفاتيح المغمورة، ويكون صاحب المفتاح الملتقط من نصيبها.

داوموا على هذا الاقتراع لزمن طويل، وفي تلك الليلة ألغى السيد نتيجة ذلك الاقتراع، واستأثر بمرام لنفسه، ولم تعد تدخل في أي اقتراع، إذ بقيت الأثيرة القريبة من قلب السيد.

هي المشتهاة دوماً، فحينما تسير تجدها قد استقرت في عين كل من تبع ممشاها، إلاّ أن الراغب في احتوائها يسارع بردم رغبته قبل أن

يكتشفها سيد القصر كي لا يُردم حياً، أو يقذف خارج أسوار القصر ميتاً.

نساء عديدات مشتهيات يعبرن ممرات القصر لكنهن محرمات علينا، فمهمتنا إيصالهن للمخادع، وانتظار الأوامر التالية من سيد القصر.

في كل يوم ثمة سائق تكون مهمته جلب نساء المتعة لداخل القصر، والاكتفاء بهذا الدور من غير أن يجرؤ على إظهار رغبته المتأججة، والتي يسكب ماؤها غالباً في أحواض الخادمات متعددات الأعراق، والمنتشرات في ردهات وغرف القصر باذلاً مساومات لأقربهن إذعاناً مع استحضار الفتاة التي أججت شهوته أثناء تصبب عرقه، وهو ينهل من تلك الأحواض الواسعة في عملية سريعة، ومتعسرة كعمليات استبدال فاقد لا أصول له.

وكم هي المرات التي استحضرتها في مخيلتي، في كل مرة أراها، أشبع نظري منها، أتفحص وجهها، ضحكتها، تموجات شعرها، قدها، استدارة حوضها، جيدها، أسرقها كاملة، وقبل أن يغشاني النوم تكون بين أحضاني أناغيها بكلمات الشوق الطويل.

ها هي تجلس مشرعة نوافذ جسدها لعينيّ، فأتسلل بهما إلى أعمق مما يظهر منها، أنتظر أي حركة تؤديها، ليبين منها ما هو مستور.

في جلستها هذه، نما الضجر على شفتيها، فأخذت تذبه عنها بترديد مقاطع لأغنيات لا تكمل مذاهبها.

حين تعقد الجلسات لمداولة الطرق لتسيير سوق الأسهم، يغرق السيد في التفاصيل مع أعوانه (مستشارون، ومحللون، وموزعو الإشاعات، ومضاربون، وملاك محافظ، ومشغلو الصناديق

الاستثمارية، واعلاميون، والعالمون بخفايا القرارات التي ستصدر من مجالس الشركات) جيش كامل مهمته حفر الحفر العميقة للمتداولين، ولا يتركون إلاّ غرقى في بحيرة الحيرة والجشع.

داء القمار لصق به منذ شبابه، هذا الداء جعله عضواً دائماً في صالات القمار في العواصم الأوروبية، متميزاً على أبناء جلدته بالتساهل مع خسائره حين يتعلق الأمر بالسمعة.

لم يشف من هذا الداء بتاتاً، فحياته مراهنة متواصلة، كل أمر يمارسه يراهن فيه أصحابه من باب إبقاء تلبسه بحالة الإثارة التي تعطيه معنى لما يفعله.

يراهن في سباق الخيل، وفي رحلات الصيد، وفي لعبة البلوت، وعلى جلب مطربة، أو الزواج من ممثلة، وفي أحيان تكون المراهنة رمزية، كأن يحصل على عقال أحد أصدقائه إن كسب الرهان، أو أن يصدر الخاسر صوت نباح، أو مواء، لحظات من المراهنات المتواصلة يكسب بها متعته.

وجد في سوق الأسهم بديلاً عن صالات القمار، هذا السوق جعل نومه الثقيل خفيفاً، فلم تكن من عادته الاستيقاظ صباحاً، إلاّ أن افتتاح السوق المبكر (وعلى فترتين) خفف من ولعه بالسهر إلى شروق الشمس.

تركزت متعته في تسيير السوق إلى الاتجاهات الدراماتيكية، ناهلاً مما يحدث نشوته أو ما سوف يحدث.

كنت أتمنى ان يطول زمن متعته بالسوق، كي أنجو من تأديب خصومه حيث استبدل تأديبي لهم، بتأديبهم داخل السوق، كنت أخشى

أن يصاب بملله السريع ـ كعادته ـ ليبحث عن متعة جديدة تجلب له الانتشاء، وأكون حصانه في تلك المتعة.

انشغاله الزائد بالخطط القادمة لتجفيف، أو إغراق السوق؛ مكّن عيني من التهام مرام كما أشاء، حاصرتها وهي تردد مقاطع الأغنيات بتركيز بصري بين مفاتنها، وكلما مالت، أو انحرفت حركتها تجد عينيَّ تقفان لها بالمرصاد، سجنتها داخل عينيّ، فمالت إلى السيد، وهمست في أذنه، فاستقبل همسها باهتزازات من رأسه محولاً عينيه في الاتجاه الذي كانت تشير إليه، اختارتني من دون موظفي القصر (المحيطين بجلسة السيد لتنفيذ أوامره، وطلباته)، اختياراً فجاً، أشارت صوبي رافعة صوتها:

ـ أنت يا حقير.

أصبعها مغروسة باتجاهي، فأصابني الذعر، لتجفل عيناي المغروستان في صحن صدرها من الارتواء، وتكفان عن بحثهما للحظة التقاء مع عينيها، كان السيد يبحث عن الشخص الذي استقرت إشارة مرام صوبه (هل أخبرته بمتابعة عينيّ لثمارها الطافحة). تعمدت إهمال إشارتها، وافتعلت النظر إلى من هو خلفي، أو يجاورني، وكأن الإشارة لا تقصدني بها، أعادت جملتها:

ـ ألا تسمع يا حقير. (وهي مثبتة أصبعها في اتجاهي).

ـ أنا!

ـ نعم أنت.

وأشارت لي بالاقتراب منها، فتقدمت نحوها مرتبكاً، وخاطر أن يمسح السيد بكرامتي الأرض حاضر، اهتز ضاحكاً:

ـ صدقتي فعلاً، هو شخص حقير.

فتوقف حديث المجتمعين متفحصين أي حقير قصدته مرام، ومنتظرين التهمة التي ستصدر من فمها، رعب حقيقي انتابني، فتثاقلت خطواتي وأنا أسير نحوها:

ـ سمّ.

أناب السيد نفسه لتوجيه الكلام:

ـ احضر لعمّتك السيارة البنتلي السوداء.

خفّ ارتباكي وجزعي، وكنت بحاجة لأن أستعيد انتظام وجيب قلبي لحالته الطبيعية، وبقيت متخشباً في مكاني، فصاح بي:

ـ تحرك يا حمار، واحضر لعمتك السيارة.

لم أفهم مقصد التحضير، هل يعني إخبار أحد السائقين بإنجاز المهمة، فهذا العمل ليس من اختصاصي:

ـ كل السائقين أمام سياراتهم.

ـ يا أحمق، أنت الذي عليك أن تصطحبني (قالتها بصرامة، وهي تتهيأ لتناول حقيبتها اليدوية بعد أن أمرت إحدى الخادمات بجلب عباءتها من داخل البهو).

ـ عفواً، أنا لست بسائق.

انفعل السيد، وأطلق شتيمة في الهواء:

ـ أنت هنا تنفذ ما يطلب منك من غير اعتراض، فهمت يا حيوان!

هززت رأسي، معتذراً للسيد، ومحاولاً شرح ردي الذي لم يرق له.

ـ خلاص، انتهى، اذهب بعمتك للكوافير، وانتظرها حتى تنتهي.

تقدمتها حامداً الله أن الأمر انتهى عند هذا الحد.

** **

جلست خلف المقود أترقب حضورها، لم تعد كما كانت، هذه التي كنت أبخس حقها أثناء توزيع النقود على الفتيات اللاتي يحضرن لإحياء الحفلات هي الآن السيدة، لا أحد يستطيع النظر إليها، أو رد أوامرها.

أوامرها لا تقبل الميوعة، فعلى من يتلقى تلك الأوامر تنفيذها حرفياً من غير تباطؤ، أو تخاذل، أما اشتهاؤها فيذكرك بشهوة إبليس في دخول الجنة، غدت النظرة إليها من المحرمات التي توجب الطرد والابعاد. غضب السيد غضباً عظيماً من «حاتم طرابي» لكونه تغزل بها، وكانت نتيجة ذلك الغزل العابر قطع صداقة قديمة، وإمعان في تثبيت حالة غضبه، عمل السيد على إفلاس «حاتم طرابي» بأن قاده في صفقة خاسرة ببيعه ثلاث مخططات سكنية تمتلكها العين العزيزية، وتركه عالقاً في حبائل المحاكم مع تحريك الدائنين لمطالبته بأموالهم في الشركة التموينية التي أثبتت مختبرات الجودة أن سلعها الغذائية فاسدة.

الاقتراب من مرام كالإمساك بتيار كهربائي صاعق، فالسيد لا يسمح لأي كائن بالنظر إليها، والويل لمن رآه يتربص بها أثناء جلوسها معه، أو أثناء نزولها لحلبة الرقص.

جاء قدومها متأخراً بعض الشيء، فتح لها أحد الخدم بوابة السيارة الخلفية، فدست جسدها، ناثرة شعرها المتموج، ومخلخلة تموجاته بأناملها، لتثبت غرتها بطوق ذهبي:

ـ انظر للأمام يا حيوان!

ـ . . . .

ـ في البدء أريد أن توصلني لسوق البساتين لشراء بعض الحاجيات . .

ـ لكن السيد أمرني أن أوصلك للكوافير وليس للسوق.

ـ يا حيوان، الذي أود شراءه له علاقة بما أنا ذاهبة له، ثم لو علم السيد بأنك ترد علي بهذه الجلافة لعلق رأسك في حبل لينهي علة غبائك.

ـ ولكن. . . . . .

ـ هل تريدني إنهاء خدمتك بالقصر؟

ـ عذراً فقط أردت. . . . .

ـ اخرس، وواصل قيادتك، وأنت صامت.

انطلقت بالسيارة عبر طريق المدينة النازل لأنحرف إلى شارع التحلية، وصمت مهيب يشاركنا وجودنا معاً، ورائحة عطرها تجوس مقصورة السيارة، وتلتصق بتجويفات حواسي الشمية.

جلست في المؤخرة، بانزواء حاد يبعدها عن عينيَّ الباحثتين عنها حين افتعل النظر من خلال المرآة للسيارات القادمة من الخلف.

هل يعقل أن تتحول إلى لبوءة تتمتع بكل هذه الشراسة، أربكني هذا الصمت، كنت أفكر، لماذا اختارتني لإيصالها بالرغم من وجود سائقها ضمن السائقين المنتظرين لعماتهم، كنت أظن أنها أرادت تحذيري من

جرأة عينيّ الباحثة عنها، والمتفحصة لكل حركاتها، وسكناتها لكنها ظلت مفضلة الصمت حتى أنها أمرتني بإغلاق المذياع، وظننتها راغبة في سماع أغنية من خلال اسطوانة الـ cd، كانت حازمة في أمرها:

ـ قلت لك لا أريد أن أسمع شيئاً حتى صوتك!

بلغنا سوق البساتين، وأوقفت السيارة، وانتظرت خروجها إلاّ أنها ظلت في مكانها من غير أن تتحرك، فأردت تحفيزها للنزول:

ـ وصلنا للسوق.

انفجرت غاضبة:

ـ أعلم يا حمار أننا وصلنا، لكن الذي لا تعلمه يا زق أن عليك أن تبادر بفتح الباب لي كي أخرج.

ـ لم أقم بتأمين الباب، تستطيعين النزول.

عاودت صرف شتائمها المقذعة مع نفاد صبر قصير حملته:

ـ يا حيوان، تحرك، وافتح لي الباب.

ترجلت من أمام مقود السيارة، ورغبة ملحة أن أشدها من شعرها، وأسحبها على امتداد الشارع، كظمت غيظي، ومددت يدي فاتحاً لها الباب الخلفي لتتزحزح من مكانها يسبقها أريجها وفتنتها.

ـ سر معي.

تبعت خطواتها، وهي تمخر مدخل السوق بفتنة جذبت إليها عيون الشباب المتجمع عند مدخل السوق، والذين تسابقوا في إرسال كلمات الغزل المبتذلة، والراقية معاً.

تأخرت قليلاً حتى وازتني تماماً، اقتربت بكتفها من كتفي، ومالت إليّ:

ـ أعتذر عن كل الشتائم التي أسمعتك إياها، كنت خائفة من وجود أجهزة تصنت في السيارة.

لم استوعب تماماً ارتدادها العكسي، قبل لحظات كنت أتمنى قصف رقبتها فإذا بها تغدو أرق من نسمة في نهار قائظ:

ـ تعرف ما الذي أعجبني فيك، استمرار تحديقك بي من غير أن تخاف من السيد..

صمتت للحظات، وهي تفتعل الوقوف أمام الفترينات لمشاهدة عروض المجوهرات، أو الملبوسات:

ـ لم يعد أحد ينظر إليّ، لم أعد أشعر بالنشوة، فكل العيون ترتد عندما أحاول مبادلتهم النظر، أنت الوحيد الذي بقي يشعرني أني مرغوبة. نظراتك الحارقة تجعل روحي ترقص من الداخل!

ـ ....

ـ ألم أعدك ـ ذات يوم ـ ؟ آن لك تحديد الوقت، والمكان وسأكون معك.

كل شيء في داخلي أخذ يتراقص، لأول مرة أشعر بحرارة جسدها، وهي واقفة تتنقل بين المتاجر، وفي كل وقفة تلصق كتفها بصدري، دخلت إلى متجر لبيع (الكلف)، وأخذت مجموعة من التيجان وربطات الشعر المختلفة الأشكال والألوان، وخرجت بينما عيون من تواجد في طريقها تغرس بوجهها.

ـ تعرف، غدوت أحب الأسواق، فبها أجد تلك العيون التي كانت تطاردني.

سيري بجوارها خفف من جرأة الشباب الذين حاموا في طريقها

لتوصيل أرقام جولاتهم إليها، سمعت أحدهم يحذر صديقه من مغبة الإقدام:

ـ انتبه، ألا ترى أن أباها يسير بجوارها.

هل كبرت إلى هذا الحد؟ تسرق أعمارنا بالتعداد الزمني، بينما نظل في أعماقنا نشعر أننا لم نفترق بعيداً عن كوننا لا نزال شباباً.

اقتربنا من السيارة، فمالت نحوي موصية:

ـ إياك أن تتحدث في السيارة إلزم الصمت تماماً.

تقدمتها، وفتحت لها الباب لتلصق خدها بفمي، صاعقة كهربائية سرت في جسدي، وتمنيت أن تخرج مائة مرة، وتعود لأفتح لها الباب، أدرت محرك السيارة، وقبل أن أغادر الموقف المخصص لكبار الزوار عادت حدتها:

ـ والآن يا حيوان اتجه إلى كوافير الواحة.

ـ حاضر يا عمتي!

سمعت ضحكة مكتومة أتبعتها بنحنحة وسعال مفتعل.

عتبة ثانية

العاشرة والنصف صباحاً ـ الاثنين ٨ أغسطس ٢٠٠٦

وقف عيسى الرديني أمام عدنان حسون (مدير البنك) يتطاير غضبه عندما سمع خبر تلاشي رصيده تماماً، وحينما لم يجد صراخه فاجأ الجميع بحركته غير المتوقعة.

في البدء ظن عدنان أن محدثه يهم بخلع عقاله ليذيقه طعم الغضب الذي نضج في عروقه، فتحاشاه بالانزواء خلف رجل الأمن المتأهب للانقضاض، كما لو كان كلب حراسة اجتاز تدريبه للتو، ورغب في إثبات إجادته لكل التمارين التي تدرب عليها، وقف متوثباً للتدخل عند أول إشارة تصله، وعندما استمرت يدا عيسى الرديني في الوصول إلى بقية ملابسه، وخلعها قطعة قطعة لم يفطن أحد لما نوى عليه.

فعله المباغت لم يسعف الحضور في تدارك خروجه على الهيئة الفاضحة التي كان عليها.

خرج عارياً تماماً، ولم يستجب لكل المحاولات التي بذلها الموظفون، والعملاء لستر عريه الفاضح.

اختلط كل شيء في داخله، وفاض على هيئة جنون مفاجئ قاده لأن

يركض في كل الشوارع متخلياً عن ملابسه وحياته، وأخذ يزرع كلمات غير مركبة في الشوارع التي يذرعها.

بعد شهر من تلك الحادثة، وجدته مقذوفاً على أرصفة سوق حراء مجاوراً لمطعم ماكدونالدز في هيئة مزرية، وظل جسده عارياً بالرغم من وجود عدد من الاشمغة قذف بها المتسوقون نحوه لستر عورته، فلم يتناول أياً منها، ولم يجرؤ أحد من الاقتراب منه، بقيت يداه تنددان بحركات متوترة، ولسانه تصرف شتائم مقذعة لكل أعيان البلد.

** **

كل الأوقات من شهر اغسطس وبقية الشهور لعام ٢٠٠٦

بجوار البنوك، والفنادق الفخمة يتخذ مجلساً في هيئته العارية الرثة، ممسكاً بمسدس أطفال مصوباً طلقاته في كل الاتجاهات، ويتمتم بمقولات متناثرة يمكن لمن عرفه أن يجمعها في سياق يشي بما يعترك في داخله من حرقة.

يتجنبه النزلاء، والعملاء، وينشغل به رجال أمن البنوك، والفنادق لزحزحته، وإبعاده عن مقعده الذي يختاره بالتناوب، وفي كل مرة يشهر لعبته في وجوه الحرس، يكون نزيلاً في إحدى غرف التوقيف، وقبل أن يمضي الوقت تكون غرف الزنازين قد لفظت جثته للشوارع الواسعة، ويكون قد استعاد عريه، وهيئته الرثة.

غدا قصة معروفة لرجال الأمن، ونزيلاً دائماً لغرف التوقيف، وكل عابر يحاول ستر عورته، يجد في لسان عيسى زفارة وشتائم تخيف

سامعها، فيتخلى عن مساعدته سريعاً، ومل الحرس من دفعه للجلوس بعيداً عن عيون العملاء، وتعددت تنقلاته: مرة بإيداعه المصحة النفسية، ومرة بقذفه أسفل الكباري البعيدة، ومرة بتنحيته من أمام البوابات الرئيسة، ومع كل إبعاد يتغلب على معوقاته، ويعاود الجلوس أمام بوابات البنوك، والفنادق.

لم يرغب أحد الاقتراب من وساوسه التي ارتفعت رويداً رويداً:

ـ سأقتله يوماً ما، محاولاتي الأولى كان نصيبها الفشل لكن المحاولة القادمة ستكون ناجحة من غير ريب.

ولم أكن على علم بمحاولاته الأولى تلك.

** **

هواجس يومية بدأت تخامرني مع مغادرة عيسى للقصر.

لم يخطر ببالي بتاتاً أن أقدم على ما أقدمت عليه كرهاً.

أعلم إني فقدت حرية الاختيار منذ أن وطأت قدماي ذاك البهو اللعين، ولم أكن أتصور أن يسوء بي الحال، وتتوالى سقطاتي لأصل لهذا القرار السحيق.

ليتني وضعت يدي بيد عيسى حين عرض علي قتله.

لم يكن عيسى هو الشخص الوحيد الذي فكر في قتله، ثلة ممن يدورون في فلكه يتمنون نفس الأمنية، يتمنون أن يقطفوا أنفاسه بأيديهم، ولن يشفيهم أن يروه يموت ميتة طبيعية مع أن الموت تأخر

عن المجيء في مواسم كثيرة، ولم يقطفه، فتيبس، واستعصى على القطف. أخذت كثير من النفوس تقلب خواطرها في نزع جذوره المثبتة، والمتشعبة في الحياة.

خامرني خاطر إزهاق روحه، لكن سطوته، ونفوذه أخّر رغبتي في نيل شرف أول من دل الموت عليه! غدا موته أمنيتي الوحيدة في هذا الوجود.

وأنا أسير لتحقيق هذه الأمنية، كانت أولوياتي منصبة في المحافظة على عقلي كي لا (يطيش)، وأصل إلى اللحظة التي أفقد فيها التمييز بين الانتقام والإذعان. كل خشيتي أن أخرج من هذا القصر عارياً من كل شيء كما حدث لعيسى.

خمسون عاماً أحملها على كتفي، كان له منها ثلاثة وثلاثون عاماً، قرضها على نواجذه من غير أن يتنبه أنه يأكل لحماً ميتاً.

منذ تلك الليلة ـ الغائرة في الزمن ـ سلب عمري، كنت طرياً فتم تجفيفي في تلك الليلة العمياء.

وكلما عدت لترتيب أحداث حياتي، وجدت نفسي عاجزاً عن فعل ذلك، حياتي بقع من الأحداث تومض في ذاكرتي، فأخلط أزمانها ومواقعها. كل الذي أذكره أني غدوت عبداً حينما فتحت لي بوابة القصر، لأدلف منها إلى حياة متبخرة.

في بداية تواجدي داخل القصر لم أشأ أن أصغي للنصائح التي يقدمها الخدم أولئك الذين تلوثت حياتهم منذ أمد، كنت أرى جحودهم يخرج من خلال تأوهاتهم بينما هم يعيشون في رغد من العيش، محمد الركابي أقدم مستخدم داخل القصر، يعرف كل التفاصيل التي تحدث،

ويعرف نهاية القادمين الجدد، أمسكني ذات ليلة، وأنا أتهيأ لإنجاز مهمتي:

ـ الأثرياء أشبه بالصبايا الصغيرات حين يعبثن بدمى لا تقدر على الشكوى، أمزجتهم تستسلم للعبث الطارئ ليس كقدر ثاقب بل نوع من الاستسلام لموجة مزاج عابر، هم لا يقدرون آثار عبثهم، ولا يعنيهم إلى أي مدى يصل الدمار الذي يحدثونه، في عالمهم يغدو كل جالب للمتعة مستباحاً للعبث، أو الاستنزاف، أو التفاخر.

هذه النصيحة الممتدة لم تكن خبرة عمري القصير متسعة لاستيعابها، كما أنه لم يطبق حكمه على نفسه، فارتمى داخل غرفته منتظراً الموت حينما لم يقدر على إزهاق روحه.

زمن العبودية لن ينتهي، هو زمن زئبقي، يتخفى في ملابس وهيئات مختلفة، آآآآآآآآآآه كم اشتقت لامتلاك مقومات السيادة: المال، والسلطة. هاتان الصفتان ظلتا طوال الأزمان هما الوسيلتين لصوغ التصنيف، تصنيف السادة، والعبيد، ومن لا يمتلكها فهو عبد، حتى وإن لم يشعر بعبوديته!

لايكفي أن تكون سيداً أعزل، لا يحيط بك العبيد، والمتملقين، والمنتفعين واللصوص، هذه الخامة من البشر هي التي تنسج منها حلة السادة، ومن غير أن تحاط بالعبيد، والمنافقين تكون كلمتك فيهم هي الحق المطلق، لا يمكن لك أن تكون سيداً، فليس هناك أخلاق يمكن أن يحتزم بها السيد في داخله، فالقوة لا تضع لشهوتها سقفاً محدداً، تغدو شهوات السادة جسورة مترامية الأطراف، شعارها: اسحق لتبق سيداً.

ومن خسائر الحياة الفادحة أن تتعلم متأخراً حين تكون، وطدت علاقتك بالعبودية، وألفتها كما ألفت جلدك.

أعلم أنه لم يعد في زجاجة العمر عطر فواح، يواصل انتشاره، غدوت رائحة مبتذلة، أنا نفسي آنف من استنشاقها، كانت تلك الليلة صياغة رديئة لقدر أسود.

فمن ذا الذي يستطيع تنقية قدره من السوس؟

حين جاء عيسى الرديني، ليقودنا لداخل القصر لم يكن يتصور أننا سنشهد سقوطه الذريع، ولم يكن يتوقع أن تنتهي حياته عارياً، ومقذوفاً في الشوارع يغض المارة أبصارهم من رؤية عورته المكشوفة على الدوام، عورته بدت لي ضامرة متغضنة كالأدوات التي تستخدم لمرة واحدة، وتقذف مع بواقي الأطعمة، والمناديل.

رأيت عورته ثلاث مرات، ودققت فيها مرتين.

وضعت وجهي أمام بصره مباشرة، فنظر لعورته ضاحكاً:

ـ ها أنا عار على الدوام.

ـ . . . .

ـ ساعدني على قتله.

أخال أن زمناً قادماً سيتخفف الناس من عقولهم، ويقدمون على كل فعل عار بنفس ضحكة عيسى.

هذا الخاطر أطبب به قلقي النابت حديثاً، غدوت أشعر أني سأقذف قريباً للشوارع المتسعة، ولن أجد شيئاً أفعله سوى حياكة الضغائن، وتسريب الشتائم بسعة تدفق قنوات الصرف الصحي!

كنت قد تخلصت من كل أصدقائي الحميمين، ولم يكن أمامي أحد منهم لأروي له عن عمق هذا الرعب الداخلي الذي اعتراني حينما نظر إلي السيد من خلف الشرفة المطلة على البحر الغارق في زرقته، أحسست بعينيه تخترقان مخيلتي، وتبعثر محتوياتها بحثاً عما يدينني. عاد للتو من رحلة قنص قضاها في غينيا، واصطحب معه فريقاً كاملاً من الطهاة، والقناصة، ومبتكري النكت، وصانعي الكيف، والمراهنين، والعاطلين عن كل شيء إلاّ تمجيده.

أفكر جدياً في تنفيذ ما عجز عن فعله عيسى الرديني، مشكلة عيسى أنه زار الأسد في وقت استيقاظه، فأصبح تحت النواجذ، وحين جف طحن كلقمة قاسية. نعم علي أن أريق دمه الفاسد نقطة نقطة، ليرى في تخثر دمه كم من الناس غرقوا مع فورة الغضب التي تجتاح أطرافه كل حين، أصبح سريع التبول والغضب، لم أر زبد شدقيه إلاّ في تلك الليلة، ليلة طويلة، كنا، أنا وعيسى الضحيتان اللتان يتلذذ بتعذيبهما، بعدها أيقنت أنه سيقذف بي للشوارع المقفرة:

ـ سأقتله قبل أن يموت!

كل ما أخشاه أن يفتضح أمري، فقد غدوت أكرر جملة قديمة، متمثلاً دور المتربصين بفرائسهم، فاركاً راحتي يدي، ومردداً بصوت مسموع:

ـ لا نجوت إن نجا.

غدت حركة لا شعورية أحدثها، وفي أماكن مختلفة، وأغلب تلك الأماكن يكون حاضراً فيها بكل صلفه.

داخل القصر لا أثر لما تموج به القنوات من اقتتال في العراق أو في

لبنان أو في فلسطين، أو اخبار الارهابيين في البلد، أو جولات هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكل من يأتي هنا يكون متحفزاً للخروج بصفقة، أو وعد بصفقة، ولا مكان لتذكر الدم، أو الشرف.

غدا سفك دم العذارى المتعة التي توصل زوار قصره إلى قمة النشوة. خيط دم يسيل على الفخوذ، فيحرك الفرح الراكد في تلك النفوس بينما الدم المسفوك على الخارطة العالمية هو دم فاسد جالب للكرب.

غدوت وحيداً.

استيقظت على خبر هروب أسامة من داخل القصر لم يكن هروبه مفاجئاً تماماً، فقد طلب مني مرافقته، ووضعت طلبه في خانتي الحمق والرعونة اللتين تودیان بصاحبهما للهلاك:

ـ أهلك خير من أن أموت هنا.

كان متأثراً بما حدث لعيسى ورؤيته له عارياً مقذوفاً على رصيف سوق جدة الدولي جعله يشفق على حالنا، ويتوقع لنا نفس المصير، استغرب استقبالي لما حدث بهذه السلبية، وحرضني على الاقتصاص لعيسى:

ـ اهدأ فنحن خيوط في يده.

كانت تهاني تناديه في أحلامه، فقرر الهرب، لم أستطع ثني عزيمته بما نوى عليه، ولم ينس بحثه العبثي عمن سرق تهاني من الحياة:

ـ ربما أجد قاتلها في مكان ما؟

ـ قاتل من؟

ـ ليتني أمتلك ضميرك الذي يمحو كل شيء، ولا يتذكر أي شيء، أنسيت قاتل تهاني، أو أنك القاتل، وتوهمني دائماً بنسيانها.

ـ ألا تكف عن هذه الاتهامات.

ـ جئت لإخبارك بقرار مغادرتي لهذه المحرقة.

ـ أنسيت أننا خيوط بيده، يجذبنا إليه متى شاء.

ـ سأجد مكاناً لا يصل إليه.

لم يعلم أسامة بأحداث كثيرة اقترفتها، ولو علم بآخر فعل قمت به، أظنه لن يتوانى عن العودة، وغرس سكين حادة في أحشائي، وإخراج هذه المضغة المتعفنة النابضة بين ضلوعي.

وقبل أن أقدم على كارثتي الأخيرة كان أسامة قد سجل غياباً، أو هروباً جعل سيده «نادر» يبحث عنه متوعداً إياه بأبشع العقوبات إن تمكن منه.

كان «نادر» يخفي سراً لم يشأ البوح به، وهو يلح بالسؤال عن أسامة، وضاعف اهتمامه بهذا الغياب بوضع جائزة مالية لمن يخبر عن أي خبر يوصله لأسامة، وفي كل مرة تتضاعف الجائزة إلى أن وصلت لمليون ريال. استدعاني، فوقفت أمامه مجيباً على أسئلته، وأدركت سبب لوعة نادر على غياب أسامة، فقد اصطبغ بصبغة التخنث متأخراً، ويبدو أن خبرة أسامة جعلت هذه الصبغة متعة حقيقية لهذا الكهل المخنث.

أجزم أن أسامة اختار مجاورة قبر تهاني، والتفرغ لسقي البذور التي يبذرها على حدبة قبرها، وانتظار نمو الأشجار في تلك البقعة النائية، وهناك لن يصل إليه أحد.

غاب عيسى كما غاب أسامة، ولم أعد آنس بأحد بعد أن طردت من قبل العم محمد الركابي الذي كنت أجالسه في أوقات محددة لا تخلو من تصويب سهام نقمته على أفعالي، ولم تكن لسعاته تغضبني، فقد تعود أن يقدم حبه بأسلوب قاس لا يماري في إبداء تلك المشاعر التي تتشابك في داخله، وتخرج ملتهبة، وكأنها قادمة من تنور يوقد كل حين، ويبدو أنه اكتسب حدته من مداومته على متابعة الأخبار التي غرم بها منذ نعومة أظافره (كما يقول)، وادعى أنه نبتة أصيلة من جيل لا يرضى بالهوان، وأن المقادير وحدها قادته لهذا المكان ليرى تفسخ روحه كما تفسخ كل شيء، فبعد أن نهره السيد، وقذفه بالحذاء، انزوى في غرفته جامعاً قنوات الأخبار في مجموعة واحدة متسلسلة يتنقل بينها مدققاً، وفي متابعاته يكون متهيجاً، ومسرفاً في إطلاق شتائمه على الأمريكان:

ـ الكلاب شعارهم النهش، هم فصيلة ذئبية ترتد لفطرتها.

في تلك الليلة عندما رأى عيسى رديني مجندلاً ذرفت عيناه، وانسحب لداخل غرفته، ولم يغادرها لشهر كامل، وبعد هروب أسامة جئته في منتصف الليل طارقاً باب غرفته، وراجياً منه أن يفتح لي، مضيت أكرر رجائي لوقت طويل، وعندما فتح الباب كان متخففاً من ملابسه فبدا كهيكل تخفف من كل شيء إلاّ حركته، يقتعد ركناً منزوياً في غرفة مظلمة بالرغم من اتساعها، يبدد ظلمتها ضوء شاشة التلفاز، وهي تومض بقصف أمريكي على بغداد في برنامج وثائقي تبثه قناة الجزيرة، سمح لي بإضاءة مصابيح الغرفة، وانشغل بارتداء ملابسه غامزاً:

ـ على المرء أن يحترس من مجالستك شبه عار، فأنت شخص خطر يخاف منك!

لم يشأ أن يستدرجني للحديث عن عيسى الرديني وأخبار ارتمائه على بوابات الفنادق والبنوك عارياً، ولم يكن يعلم بهروب أسامة، فجلس صامتاً يتابع الفيلم الوثائقي، وبين الحين والأخر يطلق شتيمة في الهواء، فجأة ضغط على زر كاتم الصوت والتفت إلي:

ـ القتل لا يقتصر على المعارك الحربية، هناك قتل يومي يحدث بصور مختلفة، وفي أماكن تنتشر بها الورود، والابتسامات، قتل متكرر يميت النفس، ويبقي منها الحركة فقط، حركة تشبه انتقال الجثث بين أدراج ثلاجة الموتى، وأشار صوب صدره:

ـ ألا ترى أني جثة متحركة؟

ووضع يده على فمي كي لا يسمع ما أريد قوله، ونقل عينيه بين شاشة التلفاز ووجهي في تردد واضح:

ـ متى تكف عن قذارتك؟

لم ينتظر أن أرد عليه فقد رفع صوت التلفاز عالياً، فاختلط صوته بصوت المعلق، وأشار بيده لأن أخرج، أحسبه قال:

ـ لا أريد أن أرى وجهك بعد الآن.

انسللت من غرفته صامتاً، هل علم بما حدث؟ كيف لو علم؟، أظنه سيمزقني بأسنانه الصناعية.

أشعر بالاحتقار في كل مكان انتقل إليه داخل القصر، حينما كان

عيسى حاضراً لم أكن أحتاج لأن أتحدث مع أحد، كان يسندني كلما استشعرت بهذا الاحتقار. في مجيئه الأخير كنت أظن أن طلقات مسدسه ستغور داخل صدري، ولم يكن هناك متسع من الوقت لأتيقن من ذلك.

كل شيء حدث بسرعة متناهية لم يتمكن أحد من استرجاع كيف بدأت وانتهت الحكاية، حتى ولو عرفنا لم نكن لنفعل شيئاً في حضرة سيد القصر فكل أمر يسير على هواه.

أشعر أنه ازداد طغياناً، وتوجساً، وغدا موقد نار يشتعل غضباً لأتفه أمر يراه، أو يسمعه، وفي كل حين تنازعني نفسي لبقر بطنه، وقبل أن أنجز مهمتي كنت أحفز النفس بجملتي الأثيرة:

ـ لا نجوت إن نجا.

غدوت أمقت حضوره. ذات ليلة حينما سمع جملتي غرس نظره في وجهي متجهماً:

ـ من هذا الذي لن ينجو منك؟

وحين سمع الجواب قهقه بثقل مبالغ فيه، وغادر الجلسة متبختراً بصحبة مرام التي تسرق الفؤاد على حين غرة، فيما كان الحضور يتلصصون على مؤخرتها النافرة بتلذذ.

* **

التاريخ السري لعيسى الرديني

١٩٥٧ ـ ٢٠٠٧

جسد مرتوٍ يعلو ويهبط بين الأمواج في محاولة أخيرة للإمساك بالحياة، هذا الجسد هو الذي استقبلنا جميعاً داخل القصر، ولو رسب لنجونا من هذا القدر الأسود.

معظم أهل الحي دخل إلى الجنة، ومن هناك بدأ من لم يسقط في السقوط.

لم يصدق أحد منا قسم عيسى المتكرر معرفته بسيد القصر، وأنه سيدخلنا جميعاً إلى هناك.

وعندما رأيناه داخل القصر عرفنا أنه يتبوأ مكاناً متقدماً، وأنه يخالط الدم في قلب السيد.

يدين سيد القصر بحياته لعيسى.

في تلك الأيام التي اختبأ فيها عيسى داخل الجزر البعيدة عن متناول السباحين المبتدئين، كان يخرج بحثاً عن شيء يأكله، حينها كانت هياكل القصر تشيد تاركة ظلالها تعبث بمياه البحر، وقد امتد جسر خرساني من جوف القصر إلى أن وصل للمياه العميقة (كان أيضاً في طور التشييد)، حدث شيء ما، فانزلق جسد من أعلى الجسر، وسقط في عمق البحر، كان يعلو ويهبط في حالة غرق لم تسعفه أصوات

استغاثة انطلقت من أفواه من كان يقف معه على الجسر في جلب الانتباه، أصوات استغاثة حاولت الاستعانة بالعمال المنهمكين في أعمالهم لنجدة جسد علا وهبط مراراً، واقترب من الغرق.

ظهر عيسى من وسط البحر كملاك بعث خصيصاً لإنقاذ ذلك الجسد من أن يتحول إلى لقمة سائغة لعمق يبحث عمن يقيس مداه.

كان يسمع صفقات، وتهليل، وحثّ على سحب الجسد باتجاه الشاطئ. كاد يغرق مرتين متتاليتين في كلاهما تسبب هلع الغريق في جذبه من عنقه للقاع، فدفعه في المرة الثانية بعيداً عنه، وغاص أسفل منه، وانتشله بوضع يده اليسرى أسفل ذقن الغريق جاعلاً بينهما مسافة تمكنه من السباحة من غير إعاقة.

ومع تجديفه نحو الشاطئ، تهافتت أجساد من على الجسر، وآخرون بزغوا من أماكن متفرقة، وكل واحد منهم يسابق الآخر للوصول إلى شرف إنقاذ ذلك الجسد. أعداد كبيرة شقّت المياه سابحة، وأصواتهم تتواصى باللحاق لإنعاش الغريق، وتجمعوا جميعهم حول عيسى الساحب لذلك الجسد، وتخاطفته أيديهم بسرعة فائقة، وتفانوا في إجراء الإسعافات الأولية، وتراكضت قامات، وأصوات لاستدعاء الهلال الأحمر.

أُصيب عيسى بالذعر من كثرة المسعفين، فأخذ يسبح في الاتجاه المعاكس عائداً صوب الجزيرة التي يختبئ بها، وقبل أن يبتعد كانت أصوات المنقذين تصيح به كي يعود.

استجاب مكرهاً، فقد لحق به اثنان، وأجبراه على السباحة باتجاه القصر.

وقف مرتبكاً مشتتاً أمام السيد الكبير، وهو يثني على بطولته في إنقاذ ابنه البكر، واستخلص رزمة مالية من فئة المائة ريال، وناولها لعيسى شاكراً له صنيعه، كانت ثمة فتاة لم تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها، تقف بجوار السيد الكبير، تتأمل ردة فعله بابتسامة مشجعة تحثه على استلام ما قدم له، رفض أن يمد يده، وظل صامتاً ينقل وجهه بين الصبية وأبيها، وكلما استحثه على أخذ النقود، يتراجع للخلف حتى استشعر أنه قادر على إطلاق قدميه، ليركض على امتداد اللسان الخرساني، ويقذف بنفسه في المياه العميقة، وصوت السيد الكبير يصيح به:

ـ عد إلى هنا متى شئت.

هذا الغريق هو السيد نفسه الذي عبث بحياتنا، وليت عيسى تركه يغرق لربما نجونا من هذا القدر الذي كتبناه.

** **

عيسى ابن صياد عتيق، يعرف أسرار البحر الخافية، ويعرف متى تكون السمكة قد ابتلعت الطعم حتى وإن لم يظهر ثقلها في الصنارة. هذه المعرفة جعلته موقناً أنه ابتلع طعم عينيّ تلك الصبية الممتلئة بالحياة، فأخذت تسحبه رويداً رويداً. كان منقاداً لجذبها، فوجد نفسه يومياً يسبح بجوار ذلك الجسر الخرساني الممتد إلى عمق البحر، يظل مغموراً في تلك المياه منتظراً أن تأتي، أو أن تجذب صنارتها إليها، وتلقي به للشاطئ زاهدة من صيدها، داوم على السباحة هناك، وفي كل يوم يجد أحداً يزجره، ويأمره بالابتعاد، فلا يستجيب.

يومياً يكون سابحاً في تلك الناحية، يزيح الأمواج بذراعين

متوترتين، وعيناه معلقتان ترقبان أي قدم تدب على ذلك الجسر. سبح (في نفس المكان) لأيام طويلة، وفي أوقات مختلفة، طافياً كطحلب بحري عجز الموج عن دفعه إلى جهة مغايرة، تلوّح جسده من أشعة الشمس الحارقة، وانتشرت بثور مدببة على ظهره، ومع الغروب ينزلق مجدفاً باتجاه الشاطئ ليعود إلى البيت ويريق الماء العذب على تلك البثور علها تتراجع عن ثورتها.

تكامل بناء القصر، وتناقصت أعداد العمال، فتجرأ قافزاً لداخل ردهات القصر الفارغ متنقلاً من جهة لأخرى، كان يجوب المكان متخلياً عن حذره، ومندهشاً من سعة القصر، والأعمال الضخمة المنتشرة في كل مكان منه، يسير متفقداً الغرف، والردهات ذات المستويات المتفاوتة، لها أرضية رخامية، تتناسب مع طلاء الجدران ذات الألوان المتداخلة، ومتطلعاً للأسقف الجبسية المنقوشة بحرفية عالية، وملتفاً حول الحدائق المنتشرة خلف ووسط المباني. كانت دهشته تتسع كلما وقف على بنيان لم ير له مثيلاً في حياته، فاستغرق في مشاهداته، ولم يتنبه للأقدام التي تسير نحوه بتربص، وقبل أن يفيق، وجد نفسه في قبضة الحرس بتهمة التبرز والتبول، ففي زوايا القاعات الداخلية تناثر براز بشري متيبس، وآثار تبول قديم، مما أثار غضب السيد الكبير الذي استنكر ذلك، وأغلظ القول للحراس المكلفين بمراقبة أدوات البناء، والتشطيب في إهمالهم، وتقصيرهم في منع مثل هذه الأفعال المستقذرة.

كان عيسى ضحية سهلة قدمت للسيد الكبير على أنه الفاعل لكل تلك القذارات التي تناثرت في أماكن متفرقة من القصر، وقف عيسى أمام عين تلك الصبيّة بخزي هذه المرة.

ـ هل أنت من قام بهذا الفعل؟

كان منكساً رأسه نافياً علاقته بالتهمة المنسوبة إليه، وازداد خجله، وارتباكه مع سماعه لضحكات الصبية، استرد اعتداده مع قدوم المشرف الذي برأه من تلك التهمة، وألصقها بالعمّال الذين لجأوا إلى التبرز، والتبول لعدم انتهاء تجهيزات دورات المياه، إلاّ أن هذه التبرئة لم تمنع الصبية من التوقف عن الضحك.

وكما فعل في السابق، أخذت قدماه تتراجع للخلف حتى وجد مكاناً يطل على البحر، وقفز من هناك، كانت قفزته غير موفقة (هذه المرة) حيث وقع على بقايا أنقاض لم تكن المياه عميقة لتبتلعها، فارتفعت صراخات التوجع من فمه وبقية جسده، ليتم سحبه، واستدعاء الإسعاف لتضميد جراحه، وبينما المسعفون يقلبون جسده لمح نظرات تشجيع للصمود أمام الألم تصله من نفس العينين اللتين كانتا تضحكان عليه قبل قليل، فقرر أن يبقى أسيرها بقية عمره.

** **

جلب له السيد الكبير طبيباً يعالج جروحه عقب سقوطه على الأنقاض حيث أكلت الأسياخ الحديد ـ النافرة من أساسات بناء الجسر الممتد لعمق البحر ـ أماكن متفرقة من جسده، فلم يكتف السيد بالإجراءات الإسعافية التي قام بها فريق الإسعاف بل طلب طبيباً خاصاً لمعاينة جراحه.

ومع انتهاء الكشف، والتضميد، أبقاه لعدة ساعات بحسب نصيحة الطبيب كي يطمئن على عدم معاودة نزف تلك الجراح. تناول خلالها المرطبات، واسترخى على أريكة منصتاً لحديث السيد الكبير بينما عيناه

تسترقان النظر صوب الصبية التي تعمدت أن تقف محاذية لأبيها في مواجهته تماماً، انزوى أخواها في الجهة اليمنى، وانشغلا بلعبة الشطرنج ـ التي أحضرها السائق الخاص ـ كتزجية للوقت، وضيق صامت يحوم في صدريهما من هذا الحادث الطارئ ـ الذي استجاب له أبوهما بهذه الرقة ـ مما أخّر عودتهما من الزيارة التفقدية للقصر التي كان مقرراً لها جزءاً يسيراً من الوقت، كان الأب يقرأ كتاباً بتمعن، وكلما عنّ له رفع نظارته، مطمئنا على حالة عيسى فيما كانت الصبية ترمق تحركات المصاب، وتزوده بالابتسامات، وإذا رغبت في التحرك، وقفت على لعبة أخويها، أو ملاحظة أنواع الأشجار والأزهار المرصوصة داخل أصيصات مختلفة يعد لها مكاناً لتزرع في هذه الناحية كحديقة معلقة تطل على جهتين متقابلتين، سائلة أباها عن أنواع الزهور وأسمائها، وفي أحيان تنتقل للسير على الجسر بصحبة مربيتها، من غير أن تنفك من مراقبة عين أبيها، وتحذيراته:

ـ تنبهي الجسر لم تركب له وسائل السلامة بعد. لا تبتعدي.

فإذا مضت خطواتها بعيداً، استدعاها، فتعود لجواره، أغلق كتابه، وتحدث مع عيسى متلطفاً عن خطورة السباحة في هذه الناحية عقب ردم المياه الضحلة، وتراجع عن هذه النصيحة عندما تذكر أن وجود عيسى في هذه البقعة العميقة تسبب في إنقاذ ابنه البكر من موت محقق، وأخذ يجذبه للحديث جذباً، وعيسى يرد باقتضاب شديد.

أنهى الأخوان لعبتهما بفوز نادر على أخيه الأكبر، الذي انضم إلى أبيه، وهو لا يزال يحمل آثار هزيمة اللعبة السريعة الخاطفة، وتفكه أخيه عليها، مع استبطاء الوقت الذي قضياه في زيارتهما التفقدية، ووجه حديثه لعيسى:

ـ إلى متى ستبقى على هذا الدلال؟ هيا انهض، واذهب لحال سبيلك، أو أنك تريد. . . .

أوقف أبوه بقية جملته:

ـ من أعطاك الحياة عليك أن تهبه حياة مماثلة، وهذا الشاب كان سبباً في بقائك، واعلم أنه أخوك من ساعة اختطافه لك من براثن الموت.

وتطلع إلى عيسى:

ـ ما هو اسمك أيها الشاب؟

ـ عيسى.

أعاد نظره إلى ابنه البكر بلهجة صارمة:

ـ عيسى أخوك من الآن، وأنا عقدت هذه الأخوة، فإن نقضتها نقضت برك لي. . فهمت. . .

هز الابن رأسه مرحّباً بقول أبيه، فنهض عيسى من رقدته، مبدياً مقدرته على السير، وقبل أن يغادر أمر السيد الكبير ابنيه:

ـ عانقا أخاكما.

فتعانقوا، وانعطف عيسى ليد السيد يقبلها (قال لي لم أستوعب كيف فعلت هذه الحركة، وانا الذي لم أقبل يد أبي بتاتاً، وأرجع ذلك لرقة السيد المتناهية)، ومد يده للسلام على الصبية، فوضعت يدها بيده باسترخاء تام.

وقبل أن يغادر الجلسة ـ التي تهيأ لإقامة الحديقة المعلقة كحديقة

داخلية ملحقة ببهو كبير يفتح على الجسر مباشرة ـ قبل أن يغادر همس السيد الكبير لأحد مرافقيه، ليسارع المرافق بإخراج رزمة نقود تناولها منه السيد ووضعها في يد عيسى، فتمنع من أخذها، ومع الإصرار الملح قبل بها، وعاد لتقبيل يد السيد الذي ربت على كتفه:

ـ هذا بيتك متى شئت فأبوابه مفتوحة أمامك.

** **

موضي، هذا هو اسمها.

لا أذكر أن عيسى تعلق بفتاة من فتيات الحارة، المرأة الوحيدة التي أحبها كانت خالته (سلوى) المشاركة له في حليب أمه، فكانت خالته، وأخته، ومودع أسراره، ولا يغضبه شيء إلاّ أن تجرح، أو ينالها أذى، كانت سلوى روحه الموضوعة في صدر آخر.

حياته متفرعة الاهتمامات، لعب كرة القدم مع فريق الحي، وسعى لأن يكون أحد فتوات الحارة من خلال نجدته لأي مقارعة بين فتوات حيّنا، والأحياء المجاورة، وعجز أن يمتلك الصدارة فكره أن يكون تابعاً، وسلك طريقاً آخر بالمشاركة في ليالي الطرب المقامة في قصور الأفراح، ليعزف (سمسمية)، ويغني مع فرقة «أبو ليلى» أغاني البحارة المبللة بالشجن والحرقة، يهوى الصيد، وله رحلتان أسبوعية إحداهما لصيد الأسماك، والأخرى لصيد الأرانب في الأودية المتشعبة شرق جدة، ويربي الحمام، وفي الليل يذرع الأزقة بحثاً عمن يشاركهم لعبة (البلوت).

لم تكن سيرة حياته الأولى تشي بأنه سيكون شيئاً مذكوراً، مثله مثل

العشرات من أبناء حي الحفرة، حياة رتيبة يقف حلمها عند وظيفة تؤسس لصاحبها المقدرة على إعالة أسرة.

انحرفت سيرة عيسى مبكراً، فقد اكتسب رذيلتين من خلال مسايرته لمن هم أكبر منه: متابعة الغلمان والسرقة، وتعددت سرقاته: سرقة دكاكين الحارة، أو غلاّت الباعة المتجولين، أو سرقة الحمام الذي يتآلف مع حمامه، أو سرقة الدراجات النارية، والسرقة التي ثبتته لصاً في عيون والديه، وانتشرت بعد ذلك لبقية أفواه ساكني الحي، هي سطوه على نقود جدته، تلك السرقة غيرت مسار حياته، فمن هناك عرف طريقه للقصر، وتعلق بموضي.

منذ أن وعدنا بدخول القصر، اعترى سلوكه تغير واضح، فترفع عن مسايرتنا، شاعراً بتميزه عنا، انقلب حاله فجأة، لم يعد محتاجاً لأن يشاركنا لصوصيتنا وتربصنا بالبقالات المنتشرة بين أزقة الحي، أو ابتكار الطرق للحصول على غلات الباعة المتجولين، أو الجلوس لمدارسة كيف يمكن سرقة الدراجات النارية، وتصريفها على بائعي العجلات، أظهر ترفعاً عن هذه السرقات التي قادها مراراً، لتوفير مبالغ نقدية ضئيلة ننفقها على أمزجتنا.

ظهر التغير الطارئ على سلوكه حينما أولم لنا وليمة بمطعم «أبو شعيب»، وجعل طلباتنا مفتوحة، ولم يسلم من ظنوننا الخبيثة التي حاصرته لمعرفة أي جهة سطا عليها، فتضاحك في وجوهنا، مبدياً استخفافاً زائداً بأقوالنا.

ومن أحسن الظن به أرجع سعة إنفاقه لبيعه الحمام الذي رباه لسنوات طويلة، ومن أساء، أو أحسن الظن به، لم يصل إلى سر وجود مبالغ مالية بحوزته، راح ينفقها يميناً وشمالاً من غير تدبر.

كان ينفق من سعة، فتبرع لفريق الحي بشراء قمصان وكرة جديدة، ودفع تكاليف تنظيف خرابة «أم جبريل» لتصبح ملعباً، وجلب قوائم حديد وشباك، ودفع تكاليف تخطيط الملعب، وتجهيز مياه ومرطبات ليتناولها أفراد الفريق عقب المباريات أو أثناء الاستراحة ما بين الشوطين، هذا السخاء تحرك له أبناء الحي لتنصيبه رئيساً لفريقهم لكنه رفض عرضهم، واكتفى بالجلوس على مفترق الطرق الذي ألفنا جلوسه به متأنقاً زاهداً من مشاركة فريق الحي مبارياتهم التي يخوضونها.

جلسته الطويلة تلك لا يقطعها إلاّ مقدم سيارة فخمة يندس بها، ويمضي إلى حيث لا نعلم، تكرر مرور سيارات متنوعة، تقله في أوقات مختلفة من ساعات النهار، جذبت إليه تهمة بيع المخدرات، وتيقن أمر متاجرته بها حين جاءه أبو جمال المجنون قاذفاً في وجهه رزمة نقود من فئة المائة ريال:

ـ أنا لا آكل، ولا أوكل أولادي حراماً.

في الليلة السابقة ـ من هذا الموقف ـ اصطحبني عيسى معه، وقرع منزل جمال المجنون قرعاً متوالياً، صائحاً بأبي جمال المجنون، وناوله رزمة نقود قائلاً:

ـ هذه مرسلة من فاعل خير لجمال.

فاحت عطيته لجمال، ومعها فاحت إشاعة أنه يتاجر في المخدرات، فاستدعى أبوه رجال مكافحة المخدرات ومع مداهمتهم، وتفتيش ممتلكات عيسى الخاصة هرب في نفس الليلة، ولم يعد إلى البيت إلاّ لحمل أمه.

كانت خالته سلوى هي الوحيدة العارفة بوجهة هروبه، ولم تخبر أحداً عن تلك الجهة.

** **

دخل عيسى القصر قبل وفاة السيد الكبير.

ومن هناك استطاع أن يصفه لنا بدقة حينما كان رجالات الحي يخرجون لرؤية السيد الكبير.

انقطع عن ممارسة هواياته، لم تعد رحلة صيد الأرانب في وادي الكراع تشغل تفكيره، أو مصاحبة فرقة (أبو ليلى) في ترديد الأغاني البحرية، أو العزف على آلة السمسمية، وتحلل من لبس الفتوات، واستبدله بلبس الثياب الأنيقة الفاخرة، يقتعد مجلسه القديم بكامل قيافته، في حالة انتظار، وقبل الغروب، يدس جسده داخل سيارة (تتغير أشكالها، وأنواعها إلاّ أن جميعها تشترك في الفخامة)، ويمضي إلى حيث لا يعلم أحد. هذا المظهر المتأنق، والسيارات المختلفة التي تأخذه يومياً أكد إشاعة انتقاله من السرقات الصغيرة إلى المتاجرة في المخدرات.

لم تكن تصله تلك الشائعات، فالأفواه التي ملأها بالهبات، والعطايا تفرغت لقضم ما يقدم لها، ومع مداهمة رجال المخدرات لبيتهم، خرج مغاضباً، ولم نعد نراه يقتعد مكانه انتظاراً للسيارات التي تقله إلى حيث لا نعلم.

** **

هكذا جرت الأموال في يد عيسى.

ظلت حادثة دهس «جمال المجنون» بقعة سوداء في ضمير السيد

الكبير، ومع مجيء عيسى تخلص منها بأن نقده خمسين ألفاً، وأوصاه أن يدفع بها لأبي جمال (قال لي عيسى إنها خمسون ألفاً، وأظن أنها أكثر من ذلك بكثير).

عندما أظلمت أنوار القصر لثلاثة أيام، كان عيسى حزيناً، ولم تمر به سيارة لتقله كما كان يحدث. لمحته في اليوم الثاني ينتقل بخطواته صوب الجنة، ويسير بمحاذاة أسوار القصر حتى إذ بلغ البوابة الرئيسة دلف للداخل، ومكث هناك زمناً طويلاً.

من فمه خرج خبر موت السيد الكبير، لتتناقله بقية الحارة من غير أن تعرف من الذي أطلق ذلك الخبر.

** **

عرض عليه السيد الانتقال للقصر.

وكانت خصومته مع أبيه سبباً لأن يهجر الحارة، وينسلخ من ماضيه دفعة واحدة.

لم تكن الخصومة السبب الرئيس لهجرة بيته بل كان راغباً لأن يكون تحت أهداب موضي دوماً، فمنذ ذلك اليوم الذي أنقذ فيه أخاها من الغرق، وهو يشعر بأن لا مكان يحتويه سوى عينيها.

ولد العشق بينهما طفولياً. لم يخضع لحسابات الفوارق المهولة بينهما، تسلل إلى دواخلهما كما لو كان سماداً جلب لمعاونة نبتة صغيرة لأن تشق الأرض والسماء معاً.

علقا ببعضهما من خلال النظرات، لم يغرق السيد في ذلك اليوم، كان انتشاله من غرق حتمي هو غرق لعيسى ذاته، فوجد محيطي عينيها

يتسعان لسباحته، ويغريانه بالتعمق صوب الدوامات التي تجذب إلى الأعمق.

هو من غرق بها أولاً، ولم يجرؤ على البوح، فمنحته مساحات واسعة لأن يتغلغل بها، فكان الغواص الذي وصل إلى عمقها، فاختارته من دون سواه.

أخيراً برت مرام بوعدها.

من خلال المرآة المواجهة لسرير النوم، استرقت نظرة لجسدها الباذخ الثراء المستتر بأغطية رقيقة ناعمة، عجزت عن تغطية وركيها النافرين، ورفعت سماعة الهاتف طالبةً من نادل الفندق إحضار إفطار يكفي لشخصين.

سكونها يشي بانزلاقها في نوم عميق دخلت إليه مجهدة فأسلمت له أنفاسها الهادئة لتذب به هدوءاً مستفزاً، ليل شعرها ظل فوضوياً ينحدر على جيدها، وترائبها من غير أن تكبح عنفوانه كعادتها.

تمتلك السحر كله. جاءت إلى القصر كبقية صويحباتها، ولم تكن تتوقع أن تكون محل تنافس الجميع في مضمار تكثر فيه المراهنات على الفرس الأصيلة، بعد أن يضع عينيه عليها، انتظرتها طويلاً، وحين أتت كانت أرضها متعطشة لكل مياه السماء.

أردت أن أقطف ثمارها مباشرة، فتخلصت من بين يدي متغنجة:

ـ تمهل!

وانزلقت لداخل الحمام لتغير ملابسها، وصلني صوتها متموجاً:

ـ ألم يكن من الأفضل أن نقضي اليومين القادمين في الشاليه!

لم أشأ التعليق على سؤالها، خشية أن تعرف أني أُضرس تحت

نواجذه، في كل مكان أجده، وكلما حاولت الابتعاد عنه اقترب أكثر، تركت كل الأمكنة التي يمكن له أن يعثر علي فيها، وتنقلت بين الفنادق المنتشرة على شاطئ البحر، وفي كل مرة أجد صوته يلاحقني:

ـ يا كلب، أين أنت؟

أفيق كل مرة من مغامرتي التي أظنّها الأخيرة، فأتلمس عنقي جيداً، ها أنا ذا أتنفس الحياة أخيراً. أتجاسر على الموت بخطوات مرتعشة، وأختار ما أريد بعد سجن استمر لربع قرن أو أكثر.

تصرفاتي تشي أنني لا زلت خائفاً، ارتبكت أمام موظف الاستقبال حينما ابتسم في وجهي:

ـ غرفة أم (سويت) كالعادة سيدي.

ضغط على كلمة (كالعادة) هذا الخبث الذي يمارسه صغار الموظفين هو الطعن للعنجهية التي يمارسها القادرون ضدهم، كم من مرة استرق موظفو الاستقبال لطول وحجم المرأة التي أصطحبها، وفي كل مرة يعمقون زوايا خبثهم.

ـ هل ستباتين داخل الحمام؟

بزغت من فرجة الباب مستندة على وركيها في وقفة مثيرة، ومالت بنصف جذعها الأعلى مطلقة ضحكة متقطعة:

ـ سأقارن بين غزلك المحموم، وفحولتك، فلا تخذل شياكة غزلك!

أرعبتني بهذا التهديد، تيقنت من بقاء فائض من الحبوب المنشطة في محفظتي بعد تحسس جيبي مراراً.

ليلة سيئة أمضيتها معالجاً شبقها الطاغي.

وكنت بحاجة ماسة لأن أترك جسدي يتبلل بماء فاتر يعيد ترتيب مفاصلي المتخلخلة كما شعرت، بقيت مغموراً داخل الماء، ألوك لباناً لطرد رائحة شراب نافذ ركد بين أنفاسي.

ألم يتم اكتشاف ماسح لهذه الذاكرة بعد!

تتقافز الوجوه من مخيلتي كلها: تصرخ بي تهاني وهي تضم فخذيها مسترحمة، وترفع يدها في وجهي، تريني دماً زهرياً كان دليلاً لانشقاق شرفها وحياتها، وتلاحقني صرخات هستيرية لعمتي بشعرها المبيض المنكوش وقد تقصفت عظامها، وخارت قواها. تُتأتئ بكلمات لا يستقيم معناها، ويفيق عمرها المديد على عذاب، وليال مظلمة، تقطعهما بإحصاء آهاتها من غير أمل في اجتياز واقعها. وبزغ مصطفى القناص هادراً كمكنة ماطور ضخم عطبت تروسه، متوعداً بسحق عظامي، وإزهاق روحي أسفل قامته، مقسماً على سحلي داخل الحارة بعد تجريدي من ملابسي، وإتياني أمام عيون الجميع حتى ألفظ أنفاسي تحته، ويأتي أسامة حاملاً كفناً ليلفه حولي صائحاً:

ـ أخيراً قبضت عليك أيها اللص!

وجه السيد ينز وينساب مغطياً على كل الوجوه، وجهه الممتلئ المحمر افترش مخيلتي متمدداً كما لو كان بقعة زيت خبيثة انتشرت على سطح بحر في حالة مد، وجه غني بالمكر والقسوة وسوء النية، استطاع بمهارة أن يخلط بين هذه الصفات مشكلاً ملامح مخاتلة، فمن لا يعرفه يفتن بابتسامته، ويجزم أن هذه التقاسيم لا يمكن لها أن تحقر أو تؤذي أي كائن كان، أما من ارتبط به، فيستطيع اختراق غشاء الملامح الوديعة، لينفذ إلى صلادة الروح المختبئة خلف تلك الملامح، كلما حاولت الابتعاد عنه باغتني متغلغلاً جوفي وثاقباً جمجمتي:

ـ سأشق لك مكاناً ضيقاً في أبأس مقبرة بجدة!

مشوار طويل عبرته في أكثر من ربع قرن، لأصل إلى مستوى مادي، يرضي غروري، ويُمكنني من نسيان تلك الخطوات السريعة القذرة.

لم يكن ممكناً الوصول إلى هذا الوضع من غير مصافحة الشيطان، وعقد لقاءات، ومشاورات عديدة أكون فيها المطيع، والمنفذ لكثير من الأوامر سيئة الذكر.

آه كم هي الأشياء سيئة الذكر التي أحاول الاحتجاب عنها، تلقيت تربية متواضعة من أب يعود للبيت نصف يقظ ونصف جثة.

لم يكن يقدر على مجابهة أخبار شقاوة طفولتي إلاّ بتهديد بارد يخرج من بين شفتيه المطبقتين دوماً على سيجارته، ومع كل تهديد فاشل أكسب مساحة إضافية من التحلل من تلك التحذيرات السابقة التي لم ألتزم فيها بما أمر.

لعبة كسب المساحات خلقت في داخلي روح المغامرة. لم يكن الخوف من السقوط ضمن حساباتي عندما أهيئ منفذاً للخروج من التسللات التي أحدثها.

تدربت على التملص منذ صغري حين كانت عمتي خيرية تضعني طعماً لشهواتها العدوانية. عمتي هي الداء الذي تسلل إلى داخلي، وأصابني بمرض الكره المزمن، فغدت ضحية تلك التغذية المستمرة.

ـ سأجعلك تعود للشارع كما جئت منه!

هل علم أني على علاقة بمرام؟ آوه لو علم لن يعيدني إلى الشارع بل سيسحق عظامي سحقاً.

عندما رأيت يديه تحوطان خصرها اشتهيتها، رمقني بنصف التفاتة، وأنا أحييها بإيماءة إجلال مبالغاً في رسم ابتسامتي، وترحيبي بها. فهل تنبه لسيلان رغبتي، وقبض على عينيّ المتابعتين لجريان نهر صدرها الذي يتسع من الأعلى، ويضيق بين هضبتين رخوتين. عرفت مرام إستراتيجية جغرافية جسدها فوضعته رهينة لكل صفقاتها، واتفاقاتها المعقودة والمتوقع ابرامها في غفلة من السيد.

تعشق الفساتين ذات الألوان المتدرجة، والفتحات الواسعة لتعرض كنوزها في واجهة العيون المحدقة بفتنتها، الفساتين ذات الألوان الغامقة تظهر فضية بشرتها، وتهيء جبليها للفوران في أي لحظة.

شهوة القنص التي تعلمتها في الحواري، والأزقة، والجزر المتناثرة بين مضمار سباحتنا، حفزت كل حواسي لأن أمارس تلك العادة مع فتاته، لم يكن سهلاً انتزاعها من بين براثنه.

ـ كيف استطعت أن أظفر بهزيمته هذه المرة؟

ليلة صاخبة عشتها مئات المرات إلاّ أن هذه الفتاة الصغيرة اللعوب، استطاعت جعل تلك الليلة مغايرة لكل الليالي.

يبدو أنها تدربت على يد عاهرة محترفة لكي تبدي الصّد، والإقبال معاً، تشعرك حيناً أنك تقف في عينيها، وحيناً أنك سقط متاع قذفته بتأفف في برميل نفاية.

في قصره الممتد على مساحة واسعة، والواقف بأساساته على البحر تماماً، تقام الحفلات الليلية ليتبارى النساء في إظهار جمالهن المخبوء. نساء يتم استقطابهن من كل جهة، وكل واحدة منهن تبحث عن قطار، تركبه لتبقى مسافرة داخل هذا القصر الواسع.

كثير منهن عقدت معهن اتفاقات لإيصالهن لبعض الشخصيات المداومة على حضور الحفلات. كان شرطهن الوحيد أن تكون الصفقة مع شخصية ذات وفرة مالية، ومستحسنات أن تكون الشخصية ذات همة باردة، كي لا يطحن جسدها تحت ثور يحرث بقرنيه!

ومن لا تجد في نفسها مؤهلات الأنثى الحارقة، لتهدم أنوثتها بفعل الزمن، تحافظ على البقاء ضمن الكوكبة الأثيرة لضيوف القصر بجلب بنات صديقاتها، أو تعمد لاستقطاب فتيات أخريات من حفلات الزواج، أو من المنتزهات، أو الأسواق. الواحدة منهن تقوم بأي فعل فقط لتبقى داخل الإطار.

قرع نادل الفندق على باب (الجناح) قرعاً متواصلاً، جعلني أسارع بلملمة أعضائي كيفما اتفق بـ(مريول) قطني تدلى من مشبك رخامي حلزوني الشكل انثنى داخل الحمام، كنت أخشى من تحامق النادل، وفتح الباب، والولوج إلى وسط الجناح عنوة، ساعتها لن أستطيع منع عينه من سرقة مفاتن تلك الفتنة النائمة.

جعلت الباب مواربًا، وأنا أتناول عربة الإفطار المدفوعة لداخل الصالة، ويبدو أن أعضائي التناسلية تكشفت أثناء تلك الحركة المرتبكة مما جعل النادل يغمغم باعتذارات حارة مرتبكة، ويغلق الباب عوضاً عني.

دفعت بعربة الإفطار لركن منزوٍ من الغرفة، وتحركت لإيقاظها. التصقت بها مقبلاً جذع رقبتها، فجذبتني نحو نهديها في محاولة لإغواء جديد.

ألهذا الشبق ارتضت بمثل هذه المخاطرة، بحثاً عمن يغرق فجوات أرضها العطشى.

تململت في رقدتها راجية منحها بعض الوقت لتنعم برقدتها، تخليت عن هزها، واقتعدت مجلساً أمام رائحة الإفطار المنبعثة من صحون نسقت بعناية، كانت جريدة عكاظ قد استقرت على عربة الإفطار، فلمحت صورته تحت عنوان ضخم كضخامة وجنتيه، لم أعر الخبر التفاتاً، ركزت بصري في صورته، فشعرت به ينظر نحوي بتوعد مرير، فتراجع بصري سريعاً، لينبت خاطر التحريض في داخلي: (هذه مجرد صورة، هل بلغ بك الفزع أن تخاف حتى من صورته؟!).

أعدت التحديق في عينه بصلف، وقبل أن أطيل النظر، اهتز جوالي منبئاً عن وصول رسالة تطلعت إليها، وقرأتها لتشعل في داخلي الخشية والارتباك:

ـ يا كلب، جوالك مغلق، أين أنت!

قفزت للبلكون خشية من ارتفاع صوتها فجأة، واتصلت به مباشرة، فتزاحمت الاعتذارات على فمي، فلم يمهلني في ترتيبها، وأنهى مكالمتي القصيرة له بأمر صارم:

ـ أريدك الآن.

أيقظتها على عجل:

ـ تهيئي للخروج.

ـ ألم تقل إننا سنمضي يومين معاً؟

ـ سنعوض ذلك لاحقاً.

لم تخب خرجات أسامة الليلية بتاتاً.

يمتلك الجرأة والوسامة، ويبدو أن الجرأة اكتسبها كونه محمياً بسلطة، ونفوذ سيد القصر، وهاتان الصفتان مكنته من إنجاز مهامه بيسر وسهولة، يكفيه أن يجوب الأسواق، أو الملاهي مترصداً أي فتاة جميلة ليبادر بجذبها بكلمات غزل مكشوفة، ومن لا تستجيب لغزله، يتجرأ ويدس رقم جواله في حقيبتها، أو مناولتها يداً بيد، كان جسوراً في مهامه.

كنت أخشى أن يراني برفقة مرام في الأماكن التي أصطحبها إليها، فمنذ فترة وجيزة غدونا نسرق الوقت لمثل هذه اللقاءات الخاطفة، ونسلك طرق التخفي والتنقل، تواجدنا معاً جعلها تكشف بعض أسرارها فما سجلته في دفتري الخاص من معلومات عنها كان مغلوطاً.

ـ هل تحبين أسامة؟

قرظت شفتها السفلى في محاولة لتذكر الاسم:

ـ أسامة! مِنْ أسامة؟

ـ ألم يقودك أسامة للقصر؟

ضحكت حتى ارتوت مفاصلها حينما سمعتني أمرر لها هذه المعلومة، ووعدتني أن تسرد حكايتها عندما تشعر برغبة في ذلك.

اكتفيت بهذا الوعد، فهو يحمل ضمنياً بقاءها معي.

مرت شهور، ونحن نجول بين فنادق ومطاعم وشاليهات جدة، في

كل شهر نسترق لقاءين، أو لقاءً واحداً، يكسونا الرضا بهذه السرقة غير المكشوفة، وفي القصر تفتح منافذ جسدها لتنعم بتواصلي معها من غير أن تضع عينيها بعينيَّ:

ـ يداهمني الفرح، وأنت قريب مني، فكل نقطة في جسدي تخبرني عنك، تخبرني بأنك تقف عليها، أحس بلوعتك من غير أن أراك.

تصغرني بعشرين عاماً أو أكثر قليلاً، ذلك الجبروت الذي تبديه داخل القصر، يتضعضع في الفراش، وتغدو فتاة عذبة، متلهفة للكلمات، عطشى لأن تسمع أي كلمة تحمل حرارة الروح، تعشق أن أغرس فمي في أذنها، وأهمس لها بكلمات العشق واللهفة، ويزداد تهيجها كلما مررت لساني على نحرها، وأنا أهمهم بكلمات الغرام المحموم.

في إحدى المرات نهضت من جوار السيد لتملأ كأسها. عبرت بمحاذاتي، فهمست لها: (وحشتيني). كادت أن ترتمي في حضني، تبعثرت، وترددت في مجيئها وذهابها علني أعيد الكلمة على مسامعها، كانت تملأ كأسها وتعود حتى إذ استقرت بجوار السيد أسقطته، أو ادعت أنها ملأت كأسها بشراب لا تستسيغه، أو انها نسيت وضع مكعبات الثلج. أحسست أنها ستفضحنا، بذهابها وإيابها، فتواريت عن عينيها اللتين لم تستقرا، ظلتا زائغتين تبحثان عن موقعي وسط الحفل أو في زواياه.

ـ أشعر بالأمان معك.

قالت جملتها، وهي ترتعش في أحضاني، فاحتويتها متشمماً جيدها، وأخذت ألثم نحرها صاعداً لرأسها، غارساً فمي في تجويف

عينها اليمنى، وأطلت تقبيل عينيها، تناشجت، فاحتويتها داخل صدري:

ـ طوال حياتي لم أشعر بحنو هكذا.

وحوطت رقبتي بيديها، غارسة عينيها بعيني:

ـ هل ترغب في سماع حكايتي؟

جذبت رأسها إلى صدري، وتركت أصابعي تتخلل خصلات شعرها الكثيف، استوت في جلستها ـ بعد تقبيلي ـ، وتناولت كأس (شيفاز)، أخذت رشفة كبيرة منه، ومعمقة بصرها في الفراغ، وانطلقت لسرد حكايتها:

** **

صوت مرام

شوف يا سيدي، أنا ابنة لرجل مات قبل أن أراه.

يعني كنت شؤماً على أمي، فلم يمض على زواجها سوى عام ونصف ظنت أنها ستكون في خير، فإذا بها تسقط في الهواء بموت زوجها، كانت تحلم بأن تطلق الفقر بواسطة رجل يصرف عليها، ويبعدها عن مذلة إخوتها الذين تقاذفوها، كل واحد منهم يستقبلها لأسبوع ثم يسلمها لأخيه الآخر، كانت مثل الكرة مرة هنا، ومرة هناك، لا تستقر في بيت واحد، قبلت بطلب أبي كزوجة ثالثة وربما رابعة، والذي يكبرها سناً، كانت تبحث عن مخلص، وتبحث أن تستقر في مكان واحد.

لم يدم استقرارها كثيراً، فقد مات أبي، ولم تعلم بموته إلاّ بعد مضي ثلاثة أشهر، فلم تكن تعرف له بيتاً، أو أهلاً، ولم يكن ذلك مهماً طالما أنه جهز لها بيتاً، ويأتي متفقداً احتياجاتها، تقول إن أخوتي (من أبي) لم يسألوا عنا، ولم يعطوها قسمتها في الإرث، وبدل أن تكون كرة واحدة أصبحت كرتين، ولم تشأ أن تعود للركل بين أقدام إخوتها هي وابنتها، فباعت ذهبها (مهرها)، واشترت مكنة خياطة، وفتحت بابها لاستقبال الجارات، لتخيط لهن الفساتين، والأرواب، والعباءات بأي ثمن من غير أي اشتراط.

مرت أيام سود (وحشة بالمرة)، كنت خلال تلك الأيام أدرس رغبة في التسلح بشهادة تمكنني من العمل، ومساعدة أمي، ومع بلوغي السادسة عشرة تهافت الخطاب على بابنا، وكانت أمي ترفض تزويجي بأي شخص ما لم يكن مقتدراً، ولها اشتراطات مالية لتأمين حياتي.

المهم، جاءتها إحدى الخاطبات تزف لها بشرى عثورها على زوج مثالي، يمتلك الأموال، والعقارات مبدياً رغبته بالاقتران بي مقابل فيلا وسيارة، ورصيد في البنك، استبشرت أمي خيراً بهذا العريس، وتم الزواج من غير أن يكون لي رأي فيه، كان زوجاً عنيداً، مراوغاً، محتالاً، كل الصفات السيئة يمكن أن تقولها عنه، عندما تقدم لخطبتي أخبر أمي إنه غير متزوج، وأن زوجته ماتت قبل سنة، فسعت أمي لمعرفة إخوتي لاجراء عقد النكاح، فجاء أحد إخوتي وتم تزويجي بشروط أملتها أمي، كان أهمها أن يكون مهري مبلغاً مجزياً لتأمين حياتي، وبيتاً أمتلك صكه، ولم يكن الزوج بخيلاً، فقد كتب شيكاً بمبلغ مائتي ألف، ووعد أن يكون صك البيت التمليك في يدي بمجرد

الانتقال إليه، كان موقفه هذا محل تقدير أخي، ورضا أمي بالرغم من تعليق صرف الشيك إلى تاريخ متأخر سارع بإلغاء صرفه بعد الزواج مباشرة، واستحلني من غير مهر.

في ليلة زواجي دخل بي في أحد الفنادق المتواضعة الواقعة في شارع باخشب، وأبقاني هناك، يغيب يوماً، ويأتي ظهر اليوم التالي، يهرسني أسفله، ويمضي من غير أن أجرؤ على سؤاله.

هي مرة وحيدة سألته عن سبب تواجدنا داخل ذلك الفندق، فتلقفني بصفعة على وجهي منعتني أن أكرر محاولة أي سؤال.

كنت مومساً بالنسبة له، يأتي، ليضاجعني، ويخرج بعد أن يدس تحت وسادتي الخمسين ريالاً، أو المائة ريال، كي أطلب بها وجبات الطعام حيث لم يكن بالفندق مطعم ملحق به.

بقيت على هذا الحال ما يقارب الستة الأشهر من غير أن أرى أمي، ومن باب أولى لم أكن قادرة على الوصول لأخي ـ الذي لم أره إلاّ ليلة عقد القران ـ فكنت أشعر أني وحيدة، فاقنعت نفسي بتحمل الوضع الذي وجدت نفسي متورطة به.

بعد الستة الأشهر ظهرت علي أعراض الوحم، وعندما عرف أشبعني ضرباً وركلاً واتهمني بالتخطيط الماكر لإرثه، وفي فورة غضبه تلك، قرع الباب بعنف، فتحرك لفتحه لاعناً الفندق، ومن يعمل به، وسمعت صرخة مفاجئة منه:

ـ سلوى، ما الذي جاء بك؟

ـ كنت أتبعك يا خائن.

وتوسطت ـ تلك السلوى ـ الغرفة، وأمسكت بشعري، وأخذت تسحبني، وهي تصيح: تخونني مع هذه العاهرة يا وليد.

ذلك الهر كان يتمسح بها طالباً منها العفو والغفران، وهي تصيح، وتقسم أنها لن تسامحه، وستعلمه درساً لن ينساه، كانت غاضبة جداً، وأنا معلقة من شعري بيديها، وظلت تدور بي داخل الغرفة خلصني من يدها أخوها، (وأخوها هو الذي دفعني للمجيء للقصر).

أتعرف من هو أخوها؟

هززت رأسي نافياً، فارتشفت رشفة من كأسها:

أخوها يا سيدي عيسى، وعيسى هذا قريب جداً من سيد القصر، أكيد تعرفه.

ـ عيسى الرديني.

ـ نعم عيسى الرديني

ـ وهل كنت متزوجة وليد خنبشي، زوج سلوى خالة عيسى؟

ـ أخته وليست خالته، هل تعرفه؟

ـ هي خالته، واخته بالرضاعة.

ـ يبدو أنك تعرفهم جيداً.

ـ نعم، أعرفهم جيداً.

ضحكت، وهي تتطلع نحوي: صحيح الدنيا صغيرة، كنت أرغب في الاقتصاص منه من خلال السيد. دفعه لي للمجيء إلى هنا، ربّى داخلي الاصرار على الانتقام. كنت أنتظر الوقت لأنتقم لنفسي منه، ومن خالته أو أخته الحرباء. لكن منزلته عالية عند السيد، وأتطلع لليوم

الذي أقتص منه لنفسي ولولدي، ولدي الذي لن يفاخر بي حينما يكبر، كل ما حدث لي كان بسبب هذا العيسى.

صمتت قليلاً وتطلعت نحوي:

ـ هل يضايقك ما أقوله عن عيسى.

ـ لا، أبداً.

ـ مضى وقت لم أره هل هو مسافر؟

ـ لا، خدمته مقتصرة على عائلة السيد، فهو المسؤول الوحيد عن احتياجاتهم، ومعظم الوقت يكون في القصر الخلفي المخصص للعائلة.

كنت متحفزاً لأن تكمل حكايتها، وتمنيت لو أني نفيت معرفتي بزوجها، أو بعيسى خشية أن تتوقف عن إكمال حكايتها، وما خشيت منه حدث، فتسرعي في الإجابة، أوقف شهوة الحديث لديها، فصمتت تماماً بعد أن أطلقت جملة واحدة:

ـ من يمتلك المال يحول الزواج إلى زنا، كل يوم يتزوج، ويطلق!

جملتها لم يكن لها رابط فيما كنا نتحدث فيه، هل كانت تقصد زوجها، أم السيد أم قصدت نادر أخ السيد، وانتظرت أن تكمل لكنها ظلت جامدة في مكانها زارعة عينيها في الجدار المقابل، ودمعها لا يرقأ.

أطّل عليّ عيسى على غير عادة، وأمسك بكتفي منشرحاً:

- أريدك شاهداً.

كان مزحوماً بحلمه.

فاتحني بهذا حين كان صدري يضيق بسجن عمّتي، ويُؤرقني البحث عن وسيلة للتخلص منها نهائياً.

- اخترتك أنت، وأسامة لتكونا شاهدين على عقد قراني.

آآآه، كم مضى من العمر، ونحن الثلاثة بلا أسر، أو أبناء يتشجرون من جذورنا.

أمضيت عمري دالقاً ماء الحياة، ولأني رويت به أراضي جدباء سال في تلك الأراضي من غير أن يثمر.

في فترة مبكرة تمنيت التخلص من هذا المارد الذي يشعل جسدي، ويحيلني إلى حيوان مهمته في هذه الحياة منافحة أي شيء لإخراج ذلك الماء الساخن اللزج. وعندما غدا إخراج هذا الماء عملاً ورزقاً، أذعنت لانصبابه كما يذعن الأعمى لظلمة الدروب المضيئة!

الحياة تتناقص فينا، وتنمو في جهة أخرى دائماً والخير كل الخير أن لا نخرج نسخاً منا كي لا تتعذب بأقدارها، أو لا تتعذب بمهمة نقل فسوقنا إلى الضفة الأخرى.

الزمن أداة قرض جيدة. ستكمل الأيام مضغنا سريعاً، لنصبح تراباً نجساً يعفّ عنه المتيمم.

لكن، ما بال عيسى؟ هل رغب في إبقاء نسخة منه قبل أن يغدو تراباً، ألم يخش على أبنائه من مورثاته الجينية؟

أم أراد نسف ماضيه تماماً، والبدء من هنا: بيت وزوجة وأولاد وحياة هانئة. كم بقي من العمر لتحقيق ذلك؟

الطريق الضيق، لا يتسع إلاّ بالهدم، ونحن الثلاثة سلكنا طريقاً ضيقاً، كلما أوغلنا فيه ضاقت جنباته، تاركاً جزءاً ضيقاً منه لممشانا، الطرق الضيقة تحت الأجساد والأرواح. ولم يبق من الجسد أو الروح ما هو قادر على حياة كان من المفترض أن تبدأ مبكراً، عما وصلت إليه أعمارنا.

حين وقفت أنا وأسامة شهوداً على زواجه، عرفنا المعضلة العصية التي يعيشها عيسى، وانزوى بنا لينقل لصدرينا سرّه الذي نخر صدره عبر سنوات طويلة.

ذلك السر الذي سربه إلينا حدث حينما استشعر أن حياته لن تتسع أكثر من ذلك، واختارنا شهوداً على حياته كما نحن شهود على زواجه.

** **

أحجم المأذون عن كتابة عقد النكاح.

وأغلق دفتره، وهب واقفاً معتذراً عن إكمال العقد. اسم موضي كاملاً جفف الحبر من قلمه، وخشية من إيصال خبر هذا الزواج لأبعد من الصالة التي كنا بها، تحركت لسان عيسى المحنكة من حبك حكاية ـ مقنعة للغاية على حد زعمه ـ جعلت المأذون يعده أن يكون سعيداً بكتابة هذا العقد لو صحّت حكايته، وعلى أمل التثبت من تلك الحكاية غادرنا منتظراً مهاتفة عيسى له.

لم نسمع الحكاية التي صاغها عيسى، حيث جذب المأذون لخارج الصالون، ونفث على مسامعه ما أراد به أن يخرس لسانه عن نقل الخبر.

توقفت الزغاريد على لسان أمه، وخالته سلوى ريثما يحضر مأذوناً غيره لإكمال ما لم يستكمل. بقيت أنا، وعيسى نتجاذب الحديث بينما خرج أسامة لإحضار المأذون الآخر.

كنت أجذبه للحديث عن خالته سلوى بحديث مبطن، سائلاً عن حالها مع وليد خنبشي، فأغلظ الشتم لوليد، ووصفه بالبيارة التي تستقبل المياه القذرة على الدوام، وفي المقابل وصف خالته بأنها كالماء العذب الذي ما كان عليها أن تصب في تلك البيارة.

وأنه عديم الوفاء لتنكره لكل ما قامت به خالته من أجله، وجزم أن هذه الخصلة قادته لمنزلق لن يخرج منه إلاّ إلى القبر.

كنت أستزيده، فيقبض عن الكلام. لم يكن حديثاً متواصلاً، فقد كان ينهض ليلبّي دعوة أمه، وربما لتلبية دعوة موضي، وتثبيط قلقها المتصاعد.

كانت موضي تريد استكمال العقد في هذه الليلة، وبأي صورة كانت.

لم يطل غياب أسامة، وظهر وبصحبته عاقد أنكحة، يحمل وجهاً عكراً، جافاً، بلّله بابتسامة مصطنعة كشفت سوء انتظام أسنانه.

أبدى انزعاجاً من غياب المدعويين، واقتصار الحضور على شخصين فقط، فاستقبله عيسى هاشاً باشاً، وشارحاً أن حفلاً ضخماً سيقام في مدينة مكة عقب الانتهاء من مراسم عقد النكاح، قبل المأذون هذا التبرير على مضض، وشرع في تدوين أسماء الزوجين والشهود،

وحرصت على تنبيه عيسى بذكر الاسم الثلاثي لموضي من غير لقبها، كانت خبرة زواجي الصوري لا تزال ماثلة كتجربة يمكن الاستفادة منها، انتهى المأذون من تسجيل البيانات، وطلب بطاقة أحوال الولي ليكمل بقية البيانات، تكدر كثيراً عندما سمع أن العروس راشدة، وهي من ستزوج نفسها، فسفه مقولة عيسى حين حاجه:

ـ ليس للثيب ولي، وهي مؤهلة لتزويج نفسها.

واتهمه بقلّة المعرفة الشرعية القاضية بضرورة موافقة الولي حتى وإن كانت عجوزاً شمطاء، وأن أي عقد يعتبر لاغياً ما لم يوافق عليه الولي موافقة حضورية ولفظية، مما حمل عيسى على الاحتداد ليرتفع صوته عالياً:

ـ في دين من هذا.

ـ لا تتطاول على الدين.

ونهض رافضاً رفضاً باتاً استكمال العقد، وحرص قبل مغادرته على استلام مبلغ مالي مقابل مجيئه، وتضييع وقته مقدراً أن ما سوف يأخذه يوازي إجراء العقد من غير إبخاس.

وتطايرت كلماته الغاضبة في فضاء الصالون عندما عرض عليه عيسى مبلغ عشرين ألف ريال مقابل إتمام العقد، ومع كل غضبه يجزل عيسى في العطاء إلى أن بلغ المائة ألف، ومع ازدياد المبلغ هاج المأذون غضباً على الأنظمة الضيقة التي لا تعطي الإنسان حرية الاختيار.

ـ كنت أتمنى، ولكن ليس بوسعي إتمام هذا العقد، فاعذرني!

كان اعتذاره هذه المرة أقل حدّة، وأكثر جشعاً في طلب أجرته نظير تعطله، وضياع وقته.

يبدو أن موضي، وعيسى اتفقا على تذليل الخطوة الأخيرة لزواجهما بأي صورة كانت.

هبط عيسى، وأحضر سائق أمه الأندونيسي، وأجلسني في وسط المجلس:

ـ داومت فترة لا بأس بها في المسجد عندما كنا في الحي.

ـ . . . .

ـ تحفظ سور من القرآن وأدعية، أليس كذلك؟

ـ لا زال بعضها عالقاً.

ـ حسناً، أنت من سيقوم بعقد القران!

وفي عجلة كانت موضي تجلس في مواجهة عيسى، وهو يطلب مني ترديد ما يقال في مثل هذه المناسبات، وعندما عجزت عن الإتيان بصيغ القول كما ينبغي، رددت الآيات التي أحفظها، وأشهدت أسامة، والسائق الأندونيسي، وطلبت من عيسى وموضي إعلان القبول بعضهما، وهببت مهنئاً بإتمام زواجهما.

لترتفع زغاريد خالته سلوى وأمه الذي جاء صوتها نشازاً كديك يذبح.

فيما كنت أسأل موضي عن قبولها بعيسى زوجاً، كان نقابها متساهلاً ـ كما رأيتها أول مرة ـ نفس العينين الحارقتين المعبأتين بسحرهما الفتاك، هي نفس العينين اللتين أبحرت فيهما حين استوقفتني صاحبتهما ـ ذات يوم ـ وهي تسألني:

ـ ألم يعد عيسى من السفر؟

** **

كانت تبنيه لبنة لبنة.

وقبل أن تزيح عنه الستار معلنة عن وجوده، انهار، وتساقطت لبناته، ولم يعد باقياً منه إلاّ الغبار.

من أجلها سلك الطرق المؤدية للثراء والوجاهة كي يليق بها.

أكمل دراسته الجامعية من بوابة خالد بنان الذي فتح له مغاليق كثيرة، فوجد نفسه يسلك أقصر الطرق لقلوب الأساتذة بتقديم الخدمات، وتسهيل الحصول على الطلبات السهلة وبعيدة المنال، وأنفق من سعة على الهدايا، وتذاكر السفر، وتكاليف الإقامة في الفنادق العالمية، وإقامة السهرات الصاخبة، ودعوة كل من يقدمه خطوة للأمام.

اجتاز البكالوريوس بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى، وكذا الماجستير، والدكتوراه التي حصل عليهما من جامعة القاهرة بحضوره لمرتين متباعدتين، مرة لمناقشة رسالة الماجستير، وأخرى لمناقشة أطروحة الدكتوراه، وكلا المناقشتين كانتا صوريتين، بدأت بالترحيب، واستعراض فصول الرسالة، من غير أي مناقشة أو توجيه أسئلة، وانتهت بمنحه الإجازة في القانون الدولي بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى وتوصية بطباعة الرسالة!

مع إعلان حصوله على شهادة الدكتوراه، انشغل عن المهنئين بتعليق الجوال على مسامعه، وإعادته مرة أخرى، تكررت هذه الحركة عشرات المرات، وكلما حاول الوصول بمهاتفته لموضي عاد طلبها حاملاً الاعتذار بأن الرقم الذي يطلبه خارج الخدمة.

لم يهنأ بكل صيغ التبريك التي انصبت عليه، كان يريد سماع صوتها هي وحدها من العالمين.

خرج من جامعة القاهرة حاملاً لقباً أكاديمياً، وكان يضيق بمن لا يناديه بلقب (يا دكتور).

وبلغ من الثراء درجة رفيعة مكنته من دخول مشاريع عديدة تحت جناح السيد، وأحياناً متخذاً من اسم السيد جواز عبور لا ترده الأبواب الموصدة.

** **

انهار فجأة.

لم يكن متوقعاً أن يعلم السيد بما أقدم عليه عيسى بهذه السرعة. فهل أسهمت في كشف سره سريعاً؟

أخطأت في إحدى الليالي التي كنت فيها برفقة مرام خطأً يسيراً.

يعذبني صمتها، فاخترقها بالحكايات، ونثر الطرف التي أجمعها لتحريك ركودها، يهزمها إحساس الفقد، فتوجم، وتبحر في صمت محير، يجمد حيويتها، ويحيلها لتمثال فاتن تصلب، وظل شاخصاً في الفراغ.

نهرب لدواخلنا حين لا نقوى على مجابهة واقعنا، نختبئ هناك حيث نستطيع احتقار من لا نحب، وإذلال من يستعصي على قدرتنا الحقيقية. في دواخلنا نسحق كل الأشياء التي تهزمنا، وحين تهرب مرام لداخلها، أحاول استعادتها بادعاء مقدرتي على نصرتها فيما أكون هارباً من كل هزائمي، وممن هزمني.

تستغل الأيام التي ينشغل فيها السيد، وتمنح نفسها حرية الحركة مع التزامها بالحيطة والحذر:

ـ ما هي أخبار صديقك؟

حينما تقول: (صديقك) فهي تعني عيسى تحديداً. في إحدى جلساتنا أردت استجلاب ضحكاتها، فتبرعتُ بإخبارها عن زواج عيسى، وكيف جعلني أقوم بدور المأذون في عقد زواجه.

انتقال الأسرار كانتقال الأمراض الفتّاكة.

ـ هل أدمنت صحبتي لتستخرج الفيروس الذي يقضي على عيسى؟

قامت بتدبير لقاءاتنا، مخترعة وسائل التخفي المركبة، وبدلاً من أن يكون وجودي المتكرر في الفنادق والشاليهات ملفتاً، أخذت تتنقل بي بين بيوت صديقاتها المقربات، تذهب لإحداهن بزي ولبس معين، وتنزل من عندها بزي مغاير، وتهمل سائقها الذي أوصلها، لتركب مع سائق صديقتها، لإيصالها إلى صديقة ثانية، وتهاتفني لتزويدي بالعنوان الذي هي فيه، ومع انتهاء نشوتنا، تعود بعكس العملية التي خرجت بها. وفي أحيان تقوم بحجز أجنحة في فنادق مختلفة بأسماء أزواج صديقاتها، ويكفي أن تهاتفني لأهرع إليها متخلياً عن أي شيء يعيق لقائي بها.

وبمجرد أن أقف أمامها، تمنحني خلاصة أنوثتها، فأحرث حقلها متصبباً من جيدها لأخمص قدميها.

اطمأنيت لهيامها بي.

وفي كل لقاء تستل خيطاً من بكرة خيوط أسرار عيسى.

** **

وجدت عيسى عارياً مقذوفاً بجوار ماكدونالدز بشارع حراء، تناثرت حوله عمائم كثيرة، قذف بها المارة باتجاهه لستر عورته.

لم أكن أعلم بما حدث لولا مخاطرة موضي بإخباري.

قالت إنها خرجت تبحث عني لأيام علها تراني أسير بين ممرات القصر، أطلت بسيارتها من مقصورة النساء الداخلية، وأمرت سائقها أن يسير متمهلاً، وأحياناً يتوقف في جنبات مختلفة من القصر، وهي تتلفت يمنة ويسرة، ومع رؤيتي، هبط سائقها على عجل لمناداتي، وقفت أمام عينيها ككل مرة حدثت:

ـ هل تعلم ما حدث لعيسى؟

ـ لا.

ـ علم أخي بزواجي منه، ولا أعرف ماذا صنع به، بالله عليك أن تبحث عنه، وتخبرني.

وسحبت عنقها لداخل السيارة، تقلب حقيبتها اليدوية، وناولتني جهاز جوال:

ـ به شريحة محمية من التنصت، سأتصل بك لتخبرني.

وأمرت سائقها بالتحرك، وقبل أن يبتعد، أعاد السيارة لموقعها، لتطل منها موضي مرة أخرى:

ـ كانت هذه هي الفرصة الأخيرة لرؤيتك، سأنتقل للقصر الواقع بشرم أبحر. أخبر عيسى بذلك إن وجدته!

قالت جملتها، وهي تغالب حشرجة صوتها، ودموع تتهيأ للانسكاب.

ـ هل كانت تتوقع ما سوف يحدث؟

تردت حالة أسامة، فلم يعد يفيق من سكرته، وإذا أفاق أسعف نفسه بالعودة مجدداً لحالة عدم الاتزان بارتشاف ما يجده أمامه من مسكر. ساهم تخنث نادر في تدهور حالته، فلم يعد يطيق يقظته.

في سكرته يستحضر تهاني ـ وكأنها تسمعه، فيذرف كلمات الشوق الرصينة والمبتذلة معاً، ويخلطهما بقصائد العشق التي داوم على حفظها، ويدندن بالأغنيات، وينام في المكان الذي هزمته فيه سكرته.

كان أسامه أسبق مني بمعرفة عشق عيسى لموضي.

ولم يكن مع عيسى أحد لتضميد حزنه على فراق موضي سوى أسامة، ففي حين كان عيسى يصعد السلم الاجتماعي بالمال والشهادات، كانت موضي في موقع أعلى من كل ما جمعه عيسى في حياته، أو ما سوف يجمعه.

زفت موضي لابن عمها كرهاً. ولولا وجود أسامة بجواره لمات من تلك الليلة.

جاء من القاهرة حاملاً لقب دكتور، ظاناً أن هذه الشهادة ستنسف فوارق الطبقات، وستمكنه من التجرؤ على طلب الاقتران بموضي من أخيها.

مع وصوله كان القصر في حالة مغايرة، يضج بتفاصيل الفرح، أضاءت الأنوار كل جنباته، وتزاحم المدعوون بين باحاته وردهاته وحدائقه، وتوزع الخدم لتقديم المرطبات، وانتشرت الموائد، وتوافدت فرق المغنين، وتسابق المهنئون للوصول إلى العريس.

ليلة فرح لم يشأ وجهاء وأثرياء البلد تفويت فرصة الظهور فيها، ومبادلة السيد مشاعر الاحتفاء، والتهنئة.

لم ينشغل أحد بمجيء عيسى الذي ما زالت يده ترتفع، وتهبط حاملة جوالاً مل من تكرار طلب رقم واحد لا يجيب منذ أسبوع كامل.

أراد الدخول إلى مقصورة النساء إلاّ أن توافد المدعوات، وتحللهن من الأغطية، وإظهار زينتهن المخبأة حال بينه وبين الوصول للداخل.

استذكر نساء القصر اللاتي يعشن به: شهلا (أم السيد)، وموضي (شقيقة السيد)، وافتخار (زوجة السيد)، وهيام (زوجة أخيه نادر)، وعمتيهما (جواهر، وقماشة)، وبنات السيد، وبنات أخيه، فليس في كل هؤلاء النسوة امرأة تقف على عتبة الزواج سوى موضي.

ـ هل خطفت؟

لم يعد هناك من معنى لذلك السباق المحموم الذي انطلق فيه عيسى طمعاً في أن يغدو صرحاً مهيباً ليملأ عيون أخويها، لم يعد له قيمة، ولم تعد الفوارق الاجتماعية متباعدة كثيراً، فلا فرق أن يكون دكتوراً أو زبالاً، ثرياً أو متسولاً.

كان بحاجة ليقين يثبت به حدسه من كونها تخلت عنه بعدما واصل عدوه إلى خط النهاية.

لم يكن نشطاً كسابق عهده بالوصول إلى الشخصيات المهمة لتقبيل يدها، أو المزاحمة للسلام عليها، والدعاء لكل واحدة منها بطول العمر.

الوحيد الذي احتضنه أسامة، مباركاً له حصوله على درجة الدكتوراه، ومستشعراً أن صديقه يتوجع من تلقي قبضة قاضية أخلت بتوازنه.

أقبل عليهما عمر القرش يتكبب ذارفاً الدمع، وباحثاً في قلبيهما عن

سلوى لما تلقاه من خبر صدمه، وجعله يتلمس عمن يخفف عنه فجيعته، فلم يسأله أحد منهما عن سبب انهمار دموعه بالرغم من محاولته استثارتهما بالهنهنة والتباكي، فألقى خبره من تلقاء نفسه:

ـ مات عثمان كباشي!

لم يكن اسماً جديراً بتحريضهما على التأسف على رحيله، أو سؤاله عن سبب وفاته، فظل يتناشج، ويمسح وجهه بكلتا يديه مردداً:

ـ آه متى يحين دوري، أنا الوحيد الذي بقيت كذيل الكلب!

كان الفرح طاغياً جرف دموع عمر القرش، وفجيعة عيسى كما يجرف السيل غصنين يابسين ألقيا في مجراه.

وعندما قارب الليل مغادرة القصر، أخذ معه موضي التي دست جسدها داخل سيارة فارهة تدفعها ـ بحنو ـ يد زوجها، ويجاورها مقبلاً عليها بنثر ابتسامته في وجهها الذي أخذ يتطلع في مودعيها لترى أن عيسى كان يقف أمام بصرها. فلم تملك إلاّ أن تلوح له بيدها.

** **

تلك الليلة قضاها عيسى مع أسامة باكياً.

وكان على أسامة أن يرد الدين الذي عليه حين جلس عيسى (قبل سنوات طويلة) يخفف عنه لوعة فقده لتهاني.

لم تعد في حياة عيسى سوى خالته سلوى وأمه التي تعاني من أمراض مجتمعة، كان آخرها إصابتها بداء الربو فجند خدماً وممرضات للقيام بالدور الذي يعجز عن أدائه حينما يكون منشغلاً مع سيدة القصر وبقية نساء السيد هناك.

فشطر اهتماماته إلى ثلاثة أشطر: تنمية أمواله، مراعاة أمه وخالته سلوى، والتفاني في خدمة سيدات القصر.

سير حياته بدقة ساعة سويسرية، ولم يغفل بتاتاً عن عمته شهلا التي قاربت محبتها محبته لخالته سلوى.

الحب الفاشل يحولك إلى بلدوزر مهمته الهد. خلق أنقاض مقابل هدير، وضجيج مكنته الضخمة.

اكتشفت سلوى زواج وليد خنبشي، فطار صوابها، ولم تجد من تلوذ به سوى ابن أختها (عيسى) لينتقم لها من جحود زوجها الذي رفعته من الأرض، وأجلسته على تل الأموال التي أخذ ينفقها على متعه.

مع بلوغ وليد الخنبشي سن الخامسة والخمسين كانت سلوى تجاوره في العمر، وقد انفرط عقد جسمها، وتهدلت فتنتها، واتسعت رغبة وليد في العب من المتع مع وفرة المال الجارية في أرصدته، ولم يعد جسد سلوى يثير حماسته للوصول إلى النشوة، ولم يكن راغباً في إتيان الحرام، ووجد في زواج المسيار منفذاً لأن ينام كل ليلة على فراش.

لا يطيل البقاء مع امرأة. يتخلص منها مع أول فرصة زواج أخرى، مضى على هذا المنوال سنتان أو أكثر، كانت مرام هي المربط الذي ندم على الاقتران به، ندم مخلوط برغبة إبقائها على ذمته، وعدم التفريط بها، عندما تقدم خاطباً لها، هاله جمالها، فقبل بكل شروطها وأولها رفضها لزواج المسيار، أقام لها ليلة حفل ضخم لم يحضره إلاّ القلة القليلة، لكنه لم يندم على الصرف الباذخ الذي دفعت مرام مقابله ليلة من أمتع الليالي التي مرت عليه طوال عمره.

ولم يعد يطيق البعد عنها، وخشية من اكتشاف أمره، استأجر غرفة

في فندق متواضع، وظل يتردد عليها في كل حين، يأخذ نشوته منها ويعود إلى منزله زاهداً من زوجته، ومتبرماً من أسئلتها المتلاحقة.

سنتان إلاّ ثلاثة أشهر، وكانت سلوى ـ وبمعيتها عيسى ـ يقفان في الغرفة نفسها التي تقف فيها مرام متهمة إياها بالعاهرة، وعندما أراد وليد تنظيف سيرته من الحرام بإبلاغ سلوى بأن مرام زوجته، فقدت صوابها، وأقسمت أن تلقنهما ـ هو وتلك العاهرة ـ درساً لن ينسياه حينما رفض وليد تطليق مرام.

هذا الدرس قام به عيسى على أكمل وجه بدلاً عنها.

وأراد أن يكون درسه لوليد درساً بليغاً، فسعى لتجريده من أمواله، ووجد أن الحجر عليه سبيلاً سهلاً لو أثبت جنونه إلاّ أنه لم يقدر في أول الأمر، فسعى لمضايقته في تجارته، وكف يده عنه بعد وعده أن يطلق مرام، هذا الوعد لم يكن مجرد قول بل اقترن بأن تقوم سلوى بإسكانها في مكان لا يعرفه وليد كي يكون الطلاق ماضياً.

كانت خشيته على أمواله تفوق رغبته بجسد مرام، فوافق على الفور.

خاضت مرام أياماً أكثر سواداً من ماضيها. أخضعها عيسى لجوع هالك. كانت خلال محاصرتها لا تجد لقمة تضعها في فمها، أو فم أمها وابنها، ثم أجبرها عيسى على دخول القصر كعاهرة تمنح اللذة لمن يطلبها[1].

---

(١) في هذه القصة فراغات كثيرة، لم أستطع ردمها خلال تنقيبي في حياة مرام، فلم تكن الأحداث منسجمة مع بعضها البعض، وكانت بداية التداخل تعدد المرويات عن كيفية =

ومع تعلق السيد بها، جاءت عيسى فكرة استكمال خطته بتجريد وليد من كل أمواله، أخذ من السيد الموافقة بتدبر أمر زوج مرام، وإجباره على تطليقها، لم يكن السيد على علم بعلاقة عيسى بزوج مرام، فمنحه الضوء الأخضر للتصرف، واختيار الوسيلة الناجعة لتطليقها من غير إحداث (شوشرة) تذكر وقد وعده وعداً قاطعاً بأن لا يثير أي ريبة.

خلال يومين فقط كان وليد خنبشي نزيلاً لمصحة الأمراض النفسية مع توصية طبية بعدم الاقتراب منه لخطورته، في اليوم الثالث كان تقريراً طبياً مرفوعاً بيد عيسى في القضاء يطالب فيه بالحجر على أموال صهره (وليد الخنبشي) لصالح خالته سلوى، وأعطى صورة من التقرير لأحد أعوانه لرفع طلب طلاق موكلته (مرام) لنفس السبب.

هذه الأفعال هللت لها سلوى وأخذت عيسى في حضنها داعية أن لا يحرمها الله منه بتاتاً.

** **

كاد عيسى أن يُجن.

ليس جديداً عليه (طفقة) العقل، فقبل أن أراه عارياً مرمياً في شوارع جدة، سبق له الدخول إلى الجنون مرات كثيرة بسبب تقلده مهام دقيقة تخص السيد نفسه، وأي خطأ يحدثه ينهي حياته، فظل مضغوطاً، متأزماً، قلقاً حيال أي موقف يمكن له أن يثير زوابع غضب السيد.

= مجيء مرام إلى القصر، وفي كل مناسبة تجمعني بعيسى أو أسامة أحاول أخذ نتف من حكايتها، أفواههما كانت ضنينة، فلم أعرف التفاصيل الدقيقة، هي أحداث كانت شبيهة ببقع ألوان لمكنة ضخ معطلة.
عرفت لاحقاً سبب تكتمهما على حكايتها.

وفي إحدى مهماته داخل القصر كاد يُجن.

كانت هي ليلة وحيدة التي بكى فيها موضي، ومسح حزنه سريعاً كمن تلقى دورات تدريب على التبدل وفق الظرف المعاش، وحول كل اهتماماته في تنمية مدخراته بوسائل مختلفة مع المحافظة التامة على تلبية احتياجات سيدات القصر من غير إخلال أو تقصير.

بقي أسيراً لدى عمته شهلا التي لا ترضى أن يضام، أو يبخس حقه في أي شيء، وازدادت محبتها له مع دخولها في عراك مع أمراض الشيخوخة حين كانت تجده في أي لحظة وهن يصيبها (كان أكثر اهتماماً بها من ابنيها)، يُحضر الأطباء، ويناولها الأدوية بانتظام، ويقوم باختيار الممرضات اللاتي يصطحبنها في سكنها الخاص، ويتنقل بها إلى مكة لأداء العمرة، أو لزيارة المسجد النبوي، وهو الوحيد المؤتمن على توزيع صدقاتها على المساكين، وذوي الحاجة، والإشراف على المشاريع الخيرية التي تمولها.

كاد يجن في إحدى المرات عندما لم يجدها أمام بوابة الطبيب.

في أحيان ينتقل بها إلى المستشفى التخصصي لإجراء الفحوصات، والتحليلات التي تعجز معدات القصر المخصصة لها عن استكمالها.

ومع مجيئها ينقلب المستشفى رأساً على عقب، الكل يتبارى في خدمتها، ذات زيارة اختفت من أمام غرفة الأشعة فقد تحرك عيسى لإجراء مهاتفة، وعندما عاد لم يجدها، ولم يعثر لها على أثر داخل المستشفى، وكاد الأمر يصل إلى سيد القصر لإخباره أن أمه فقدت من داخل المستشفى، لولا أن عيسى تمهل في الإبلاغ قبل أن يجازف بإخبار سيده بخبر كهذا.

نفى العاملون، والممرضات، والأطباء، والاداريون أن يكونوا على علم بموقعها، مما أثار حنق مدير المستشفى التنفيذي الذي ترك مكتبه، ونزل ـ بنفسه ـ يبحث عنها بين غرف الأشعة، والمختبرات، والتحاليل الطبية، وفي الطوارئ، وبالغ في بحثه بتفتيش غرف المرضى، ومع رؤية دوران المدير التنفيذي داخل أروقة وممرات المستشفى، تحرك بقية العاملون ـ بجميع مستوياتهم ـ الكل يبحث عنها.

في تلك الأثناء تعطل المستشفى، ولم يعد أحد في مكانه، فليس للموظفين أو العمال من عمل سوى العثور على السيدة شهلا، هذا الارتباك تنبه له المراجعون، والمرضى، والمرافقون وتناقلوه فيما بينهم، لينشط نفر منهم عارضاً مد يد العون، وطالباً أوصاف المفقودة، انتشار الخبر بهذه الصورة أزعج عيسى كثيراً، وخشي تناقله على مستوى واسع، ولم يكن الوضع يسمح له بلوم وتقريع المتسبب في انتشار الخبر بتلك الصورة.

مضت ساعتان ولا أحد يعرف أين ذهبت. ومع إسقاط إمكانية نهوضها من العربة المتحركة، بقت جملة احتمالات أنعشت أمل العثور عليها: كأن تكون ممرضة ما، دفعتها لإحدى غرف التنويم كخطأ في احتسابها كإحدى نزيلات المستشفى، أو أن عاملاً قاد عربتها لخارج المستشفى كخدمة لإيصالها إلى سيارتها، أو أن السيدة نفسها طلبت الذهاب إلى دورة المياه، والاحتمال الأخير أحيا أمل العثور عليها قبل وصول الخبر للقصر.

فانطلق الجميع صوب دورات المياه، وتبرعت طبيبات، وممرضات للدخول، والتفتيش عنها بين عدد كبير من المراحيض.

مع خروجهن كانت الوجوه تحمل خيبة الأمل الحادة، كاد ساعتها أن (يطق) عقل عيسى، وهو يصيح لاعناً كل من هم داخل المستشفى، واعترت عيسى حالة من الهستيريا المتقدمة ليصحبه طبيبان نفسيان للتدخل عند الحاجة، وتحرك معه المدير التنفيذي لإجراء مكالمة لإخبار السيد بما حدث.

في ممشاهم المستعجل لمح عيسى عربة عمته شهلا تقف في مكانها، ورجل عجوز يحاول رفع قدميها، وتثبيتها على سنادة العربة المتحركة وهو في نصف انحناءة، طارقاً بوابة غرفة الأشعة، مستعجلاً دوره الذي طال، فركض عيسى صوبها، ليجدها تقتعد عربتها بابتسامة مشرقة، وهي تعاتبه:

ـ كل هذا الوقت، ولم يأت أخصائي الأشعة!

بينما كان لسانها يلهج بالشكر لذلك العجوز الذي أصلح جلستها على العربة.

ولم يجرؤ أحد أن يسألها:

ـ أين كنت؟

** **

ـ تسلم عليك موضي.

تلقى هذه التحية من فم عمته شهلا، وهي تسعل بعدما ناولها قرص دواء لتنظيم ضربات القلب.

كان قد مضى على زواج موضي سنتان. لم يرها خلالها، فمع مجيئها يغادر المكان، ويحرص تماماً على عدم رؤيتها.

كانت عمته شهلا تنتظر أن يرد على التحية التي نقلته إليه، وعندما وجدته يغير الحديث، طلبت منه أن يهاتف موضي لرغبتها في محادثتها.

كانت باستطاعتها إجراء تلك المحادثة من غير مساعدة، ناولته جوالها:

ـ ستجد اسمها مدوناً.

هل كانت تستشعر بوجود علاقة ما بينه وبين ابنتها، أم أنها تعرف تلك العلاقة، وكانت تراقبهما عن كثب.

أجرى الاتصال، وناولها الجوال، وانزلق من داخل الغرفة للخارج.

بعد شهر أعادت إليه خبر التحية.

ـ هل تعلم أن موضي تعاني من مشاكل مع زوجها؟

ـ . . . .

ـ هي غير سعيدة معه، ولم تكن تريده زوجاً.

ـ . . . .

ـ أخوها أجبرها.

ـ . . . .

ـ هل تعلم بذلك؟

ـ . . . .

ـ هل تعرف قصة الشاطر حسن، وقصة السندباد، وقصة العاشق المسكين؟

ـ . . . .

ـ الحكايات هي التي تزوج الأميرة بالشاطر حسن لكن في الواقع ليس لهذا الزواج من سبيل.

ـ ....

ـ يا ابني هذا مصيرك عليك احتمال منغصاته، لقد أوصيت موضي بهذا أيضاً.

شهلا امرأة تزوجت بالسيد الكبير رغماً عنها، وزفت إليه في ليلة صاخبة لم تسمح لرفضها أن يرتفع عالياً، ولم يكن لها من خيار سوى تسليم جسدها لزوجها، والتحليق بخيالاتها صوب الحبيب الذي تركته من غير أن تقدر على رؤيته حتى من بعيد.

هي الآن تشاهد ابنتها تعيد تاريخها حرفياً، ولا تقدر على شيء سوى التخفيف عن الحبيبين بكلمات مواربة.

شهلا هي التي أبقت القلبين مرتبطين، فحين علمت أن ابنتها تعيش حياة كدرة كانت تهرب إليها الهدايا، والتحايا باسم عيسى، وتقوم بالدور المعكوس مع عيسى.

** **

مضت سبع سنوات على زواج موضي أثمرت عن طفل وطفلة.

غزت الأمراض الكبيرة جسد السيدة شهلا، وأخذت حالتها تسوء كثيراً، ومع كل أنة يكون عيسى قريباً منها، أمسكت بيده:

ـ العمر يمضي يا ولدي، لماذا لا تتزوج؟

أطلق ضحكته التي تحبها في وجهها مداعباً:

ـ لا زلت صغيراً على الزواج يا عمة!

ـ هل تنتظرها؟

ـ . . . .

ـ لو ظللت عمرك كله منتظراً، لن تصل إليها، ابحث لك عن امرأة سواها تسكن بها، وتسكن بك.

ـ . . . .

ـ سأخبرك بحكاية لا يعرفها أحد. هل تذكر اختفائي داخل المستشفى قبل خمس سنوات، وذلك العجوز الذي كان يثبت قدمي على سنادة العربة، هل تذكر؟

ـ نعم

ـ وجدت هذا الرجل فجأة ينثني ويقبل يدي، لوهلة حسبته من مخدومينا، طالت قبلته، واستلم يدي بين راحتيه، هممت بسحبها، فاستشعرت بدموعه، وهنهنته، قلت له وهو لا يزال منثنياً على يدي: ما حاجتك، لا داعي للبكاء.

رفع رأسه دامعاً، فجرت صاعقة في بدني، وهو يردد:

ـ أنت حاجتي ومرادي يا شهلا.

كان هو، شاب كثيراً، وأصابه الهزال، بقيت عيناه، وكثافة حاجبيه تظللني، سحب عربتي، وهرع إلى غرفة انتظار داخلية، جلس أمامي، سنوات البعد كلها، جرفها، بمسك يدي، وتأمل تجاعيدها، وأمسك بالخنصر من أصابعي:

ـ هذه الأصبع كنت أحلم أن أضع فيها خاتم عرسنا. كل هذا العمر، وأنا أنتظر هذه اللحظة لأقول لك، لم أنقطع عن حبك يوماً.

وروى أنه حقق كل شيء. العلم، الثراء، والوجاهة، لكنه بقي ينتظر أن يمر الزمن لنجتمع، لم يقترن بامرأة، كنت قاسية عليه، وكان الوقت قصيراً، فلم أبح له عن عذاباتي، وأنه لم يمض يوم من غير أن أحلم برؤيته، مجرد رؤيته. وعندما وجدني صامتة لا أقول شيئاً، دفع عربتي، وأعادها إلى مكانها، وانسحب، ومع تجمعكم حولي والسؤال عني، غاب عن عيني، كنت أُمنّي نفسي أن أخبره أني مثله تماماً: لم أنقطع يوماً عن حبه.

وعندما دخلت إلى غرفة الأشعة سألت عنه الممرضة التي كانت تحدثه ـ مع مجيئكم ـ وعرفت أنه يأتي بشكل دوري لتناول جرعة كيماوي بسبب داء السرطان الذي سكن عموده الفقري.

فحرصت على متابعة حالته من بعيد، فلم يعد في العمر فرصة لاقتراف نزوة، أو مغامرة، أو لقاء، وقبل أسبوع تماماً جاءني خبر رحيله!! رحل المسكين، أجزم أن آخر أنفاسه لم يكن أحد يحصيها، ولو وجد شخص لسمعه يهذي باسم شهلا.

كان وجهها جامداً، وكأنها تروي قصة امرأة أخرى لا تربطها بها أي صلة، وأمسكت يد عيسى تربت عليها:

ـ ليس لك من شيء سوى رؤيتها من بعيد إن رضيت أن تكون عاشقاً، وعاشقاً فقط.

** **

أقامت موضي حفلة كبيرة بمناسبة طلاقها.

واختارت ـ فيما بينها وبين نفسها ـ الاقتران بعيسى أو الموت، هذا الاختيار أقنعت به عيسى كي يسير في دروبه من غير رهبة.

وعيسى لم يحفظ وصية عمته شهلا:

- ليس لك من شيء سوى رؤيتها من بعيد إن رضيت أن تكون عاشقاً، وعاشقاً فقط.

إصرارهما على قفز الحواجز بالزواج، لم يوصلهما لنهاية المضمار، كان في انتظارهما غضب السيد، كان غضباً مواربا، لم يشأ أن ينهيه وخصمه يتمتع بكل الرفاهية التي اقتاتها داخل القصر.

حمل لعيسى الامتنان لأنه خلق إثارة جديدة في حياته، أعاد إليه حواس القط الذي يتلهى بفريسته حين يضعها تحت قدم واحدة، وينبش بأظافره أحشاءها، فرغب في ممارسة هذه الإثارة وفق خطوات يجرب فيها أن جبروته لم يذو.

كانت أمام عيسى فرصة القفز لمصاف المليارديرات، فاستغل السيد هذه الشهوة، وقدم له - من غير أن يعلم - الإغراءات.

سوق الأسهم هي المطحنة التي اختارها السيد لسحق عظام، وأعصاب عيسى، فأوكل لعدنان حسون مهمة تمرير الطعم لجوف عيسى، وأخذ يرقبه، وهو يندفع لداخل المصيدة بصبر وتؤدة.

وكالأفعى التي مررت إبليس لداخل الجنة، دخل عدنان في حياة عيسى عبر تعارف مهد له السيد، وأكمل عدنان توثيق العلاقة بالهدايا، وإظهار المحبة، والخشية عليه من غائلة السوق، مقترحاً عليه إدارة محفظته المالية في سوق الأسهم مقابل نسبة لكل عملية رابحة، إلاّ أن عيسى رفض في البدء تسليمه إدارة المحفظة، واكتفى بتتبع نصائحه، فقدم له عدة توصيات في شراء أسهم لبعض الشركات الرابحة، قفزت برصيده لمائة مليون.

وثق عيسى بعدنان، فتبع نصائحه حرفياً لا يحيد عنها قيد أنملة، وجاءه بمقترح اقتراض مائة مليون مماثلة لرصيده يمنحها البنك لعملائه المتميزين ليواصلوا مضاربتهم في سوق الأسهم، وفوت عليه قراءة بنود الاتفاقية الخاصة بأحقية البنك في استرجاع مديونيته في حالة خسارة محفظة العميل بما نسبته ٥٠ في المئة.

حضر عيسى للبنك لإكمال عملية القرض، وهاله تزاحم العملاء داخل صالات البنك، وكل منهم يسعى لإنهاء توقيع اتفاقية القرض. أعداد لم يعد لها من عمل سوى بيع وشراء الأسهم. كسدت كل الأعمال، وانصب أصحابها للاستثمار في سوق الاسهم، متناقلين أخباراً عائمة شعارها: من لا يغتني هذه الايام لن يغتني أبد الدهر.

ضاقت صالات البنك بتزاحم المقترضين، والمكتتبين، والمتابعين لشاشات الأسهم. حالة من الفزع من فوات قطار الثراء. غرس عيسى جسده بين كتلة تلك الأجساد المتحاشرة، مخترقاً تجمعاتهم، وصخبهم صوب مكتب عدنان مباشرة متحاشياً إغضاب أي منهم بالاعتذارات المتكررة، والرجاءات بافساح المجال له كي ينفذ صوب مكتب مدير البنك:

ـ أو تظن أنك الوحيد من يريد المدير؟

ـ إنه إجراءاتك أولاً، ثم طالب برؤية المدير.

وتخاطفته الألسن، وقبل أن يدخل معهم في مماحكات رأى عدنان يخرج إليه من مكتبه، يستقبله ضاحكاً:

ـ كما ترى، الكل يريد قرضاً.

ـ وهل لدى البنك أموالاً تكفي كل هؤلاء المقترضين؟

ـ البنك مثل النافورة يا صديقي، المال المخصص للقرض ثابت، ولكن يخضع للتوزيع هنا وهناك، وفي الأخير كله عائد للبنك، ولا يغادر الخزينة قرش واحد، وما تراه مجرد امتلاك أوراق ممهورة فقط!

ـ ولكنها في النهاية أموال تدخل أرصدة هؤلاء.

ـ نعم، ولكنها على الشاشة، ثم هي فرصة ثراء لكل المواطنين ولن تتكرر أبداً، فنحن نعيش زمن الطفرة الكبرى، وعليك أن تأخذ قدر ما تستطيع، هذا هو السباق الماراثوني الذي يحتاج إلى رئتين قويتين.

ـ الكل يقول هذا.

ـ لأنها الحقيقة التي تكشفت للناس، ألا ترى، كل موظفي الدولة هنا، إما لقرض أو للاكتتاب، أو بيع، وشراء، فالتوقعات أن يصل المؤشر إلى ثلاثين ألف نقطة، هذا يعني أن أموال المساهمين سوف تتضاعف إلى خمسة وعشرة أضعاف قيمتها.

كان عيسى قد أرخى جسده داخل مكتب عدنان الذي سخر له موظفين لإكمال إجراءات الاقتراض، وفي أثناء توقيع معاملة القرض، أخذ عدنان يتحدث عن الأرباح الأكيدة التي ستجنيها محفظة عيسى، ولم ينس أن يوصيه بسرعة التخلص من قرض البنك بمجرد (تدبيل) المحفظة.

ـ السيد يتحكم في أسهم عشرات الشركات، وإذا أردت أن تقفز عالياً، فاجعل مضاربتك منصبة على الشركات التي يتحكم بها السيد، فأينما يضع أمواله إرم بأموالك وأنت مغمض العينين.

هذه التوصية أثمرت عن ربحية سريعة إذا قفز رصيده إلى مائتين وخمسين مليوناً، ربحية مهولة حصدها خلال أربعة أيام فاطمأن عيسى،

وأيقن أن عدنان الناصح الأمين، فسلمه إدارة المحفظة، واكتفى بتلقي أخبار الأرباح التي تتصاعد يوماً بعد يوم.

كانت أحلامه تتسع لبلع البلد كلها وفي سبيل إشباع هذه الرغبة تواطأ كثيراً وفي اماكن مختلفة كان مؤمناً أن المال يستوجب الركوع ومن لا يركع لا يحصد إلاّ الصفعات.

وعيسى بلغ مرحلة السجود من أجل عينيها ونسي أن السجود مرحلة عبودية لا فكاك منها البتة.

ومع اتخاذه هيئة الساجد جاءت الخطوة الأخيرة بمتابعة لصيقة من السيد الذي سجنه داخل السوق، ومع الانهيار العظيم للأسهم، سارع البنك بتسييل محفظة عيسى واسترجاع قرضه، ماحياً رصيده تماماً مثل ممحاة أمسك بها طفل، ومحا البسملة، بعدها كان عيسى يسير في الطرقات عارياً يوزع الشتائم على كل رجالات البلد(١).

---

(١) وفي رميته تلك لم يسمع عيسى بمقولات ترددت بين الناس في مجالسهم، وتجمعاتهم، وحلمهم ويقظتهم، الكل كان يبحث عن سبب لذلك السقوط فكثرت الأقاويل، ومن تلك الأقاويل:

* انهيار سوق الاسهم، كان مخططاً له وجرى استنساخه على الكثيرين ممن يحلمون بالجلوس على تلال الأموال التي لا تنضب، فإذا بهم يوزعون صرخاتهم، واستغاثاتهم في كل الاتجاهات من غير أن يرأف بهم أحد.

* لقد سُرقت البلد في وضح النهار من غير ان يركض أحد صائحاً: امسك حرامي!

* سيتم سجن كل المواطنين داخل قروض طويلة المدى لن يخرجوا منها قبل عشر سنوات من الديون المرهقة.

* انهيار سوق الاسهم قضى تماماً على الطبقة المتوسطة.

انثالت المقولات كالماء المدلوق الذي يجري بعشوائية، هذه المقولات كانت تصل إلى مجلس السيد، وكانت محل تندره وتندر رجاله الذين غنموا مغانم وفيرة لم تكن في الحسبان، وأخذوا يخططون لإعادة اللعبة مرات عديدة.

بعد أن بلغ الثامنة والخمسين من عمره استطاع حمدان الغبيني أن يقف حارساً أمام بوابة القصر الرئيسة. كان الفرح الغامر ينخر فؤاده، وهو يركز بندقيته مستنداً إليها، ومتطلعاً لبوابة الجنة التي تقافز مئات المرات ليوازيها من بعيد.

لم يبطل فرحته تلك إلاّ موت عمه (أبو زوجته)، كان يتمنى أن يراه في هذا المنصب. ويبدل سخريته منه بالتفاخر به، فلطالما استهزأ به،وقلل من قيمته أمام ابنته محرضاً إياها على هجرانه، كان يتمنى لو أن عمه أخّر موته قليلاً، ليرد له الإهانات المتوالية التي حملته لأن ينتقص من قدره بكلام لا يليق أمام زوجته حتى عفت منه.

حصل على الشهادة الابتدائية في اثني عشر عاماً متواصلة، بذل خلالها كل طاقاته الذهنية مع مثابرة ملحة، كادت تطفئ جذوتها بسبب الرسوب المتكرر، ولولا رؤيته لعمه في ذهابه وإيابه لتوقف ورضي بما وصل إليه، كل عام يمضي يقترب عمه من القبر، ومع مماته وصفه الغبيني بالنذل الذي رحل قبل أن يرى نجاحاته، ففي السنة التي مات فيها عمه، حصل حمدان الغبيني على شهادة الابتدائية بتقدير مقبول، حملها لزوجه مفاخراً، ومدعياً أن أباها أراد إغاظته بموته في مثل هذا التوقيت!

وقف أمام بوابة القصر مزهواً، لا يشغله سوى التطلع للأسوار العالية، أو مد بصره لداخل القصر عل مثابرة يسيرة تمكنه من الدخول لداخل الجنة.

تلقى الحراس ـ جميعاً ـ بلاغاً بمنع عيسى من دخول القصر بأي صورة كانت، هذا البلاغ لم يستوعبه حمدان الغبيني بتاتاً، واعتراه هاجس قرع مخيلته بتواصل حتى أخرج صوته بنبرة مسموعة:

ـ عيسى الذي أدخل كل البلد من هذه البوابة، يمنع الآن من دخولها، كيف هذا؟

لم يكن أحد يعرف سبب الانقلاب المفاجئ على عيسى، ولم يكن أحد يتوقع ما حدث، وكان عيسى حريصاً أن لا يصل أحد لسره الذي استبطنه وغافل الجميع من أجل تنفيذه.

** **

تغلغل شارع الملك في جوف مدينة جدة عميقاً مخترقاً أحياء نبتت على خاصرتي المدينة حديثاً، وتقاطع مع شوارع عديدة كلها تسلم سياراتها باتجاهه، فيزداد الاختناق، وتعيث الرطوبة فساداً بالأجساد، كنت محتاجاً لنصف ساعة لاختراق جزء من هذا الشارع، والوصول لقصره الآخر المحاط بمياه شرم أبحر.

ـ ماذا يريد في مثل هذه الساعة؟

لم أعد جواداً مهمته الركض في مضمار السبق متى ما طلب منه ذلك.

ـ أكان لا بد أن أستجيب لطلبه؟

وقفت أمام الصراف الآلي للتأكد من بقاء رصيدي على ما هو عليه. أعدت بطاقة الصراف لمحفظتي بعد أن اطمأنيت لملامسة رصيدي العشرين مليوناً.

كنت أخشى عليه أن يتبخر يوماً ما كما حدث لعيسى، لم يعد مزاج السيد قابلاً للجدل، أو التسامح، ولم أعد قابلاً لكل هذه السخرة.

أعيش الآن في خريف العمر، ولم يعد يسندني سوى هذا الرصيد

الذي جمع بالذل والمهانة، وكدت أتحامق وأدخل لعبة سوق الأسهم ولولا تأخري لكنت الآن صفر اليدين.

تباطأت روحي كثيراً، ولم أعد أنشط لأي شيء، وبسبب هذا التقاعس، كنت أؤجل المتاجرة في الأسهم إلى أن بدأت علامات الخشية والحذر ترف في سماء المتداولين.

ولم يكن هذا هو السبب الرئيس، فـ«جوزيف عصام» نصحني بأن لا ألقي أمعائي لقارعة الطريق لاستنباتها:

ـ دائماً يجهز اللحم النيء للشواء، أو الطهو!

وعندما لم أفهم تجاويف كلماته، اختصر نصيحته:

ـ ليس لديك ولد، فلماذا تذبح نفسك بجمع المال، يكفيك ما عندك.

نبهني حديثه ـ أيضاً ـ أنني أبعثر ما تبقى من أيام حياتي في سخرة وإذعان ليس لهما معنى، هذا التنبيه ـ تحديداً ـ حاولت تناسيه على عجل، وبقيت متمسكاً بإيماني القديم، فالقمائم المقذوفة على رأسك لا تفرق بين الأيام العادية، والأعياد.

هناك حياة مستقذرة، تجد نفسك مغموراً في دنسها حتى ولو نازعتك نفسك التخلص من قذارتها، ستبقى راسباً بين لزبها ونتنها.

لم أتعود على عصيان أوامره مهما شقت علي، كان (ولا زال) قادراً على سحقي متى شاء. فما الذي أخّر استبداده بي؟ خلال السنوات الطوال التي قضيتها معه، تكشفت لي عادة قميئة يمارسها مع كل من يدخل إلى حياته، هذه العادة الإبقاء على مخدوميه بجواره، أو أسفل

حذائه، وكل من طاف به، أو كان في يوم ما لصيقاً به سيأتي عليه يوم يكون بساطاً لممشاه.

له صور عديدة، لكنه يحرص على تثبيت صورة واحدة في المحافل، وفي وسائل الإعلام، وأول القواعد التي يجب أن يلتزم بها مخدوموه أن يتحولوا إلى خرس، ومن تجرأ، وسرب حدثاً فعله أو قاله يكون قد كتب على نفسه الخرس الفعلي.

فقد ثلاثة من مخدوميه ألسنتهم، في حوادث مختلفة قادهم لهذا الخرس الإجباري خروج حكايات من داخل القصر لم يكن يعرفها إلاّ هم. هذا التأديب الذي مارسه مع هؤلاء المخدومين أحيا فكرة جز لسان عمتي خيرية. عرفت تفاصيل كيف بتر ألسنتهم، وقمت بتطبيق العقاب بحذافيره.

على المرء أن لا يغتر بقربه منه فهو كالدابة الجرداء تقلبك من على ظهرها متى ما شعرت بثقلك، كدت أفقد لساني من الليلة الأولى لدخولي عليه، حينما خرجت راغباً في إخبار عيسى بما حدث، فقبض على فمي محذراً أن تخرج أي كلمة.

أذكر أول لقاء لي به، في تلك الليلة المشؤومة، وبعد أن أنجزت المهمة التي طلبني من أجلها، استدعاني مرة أخرى وقد أخضعت نفسي لغسيل متكرر في محاولة لتخليص جسدي من دم تهاني، ونجاسة الضحية التي امتطيت ظهرها، جئته ذليلاً، وهو يتوسط مجلسه، أوقفني أمامه تماماً:

ـ قمت بالمهمة على خير قيام انس ما حدث، وتذكره فقط حينما أطلبك لذلك..

وأشار لي بالانصراف، وقبل أن أستدير، استوقفني مرة أخرى:

ـ لن تغادر القصر ستكون بالقرب مني.

رافقني عيسى، ودس ألف ريال في جيبي متضاحكاً:

ـ لقد غدوت من سكان القصر، فإياك أن تحرم نفسك من هذه النعمة.

الحياة تتوالد بأفعالنا، ولو أننا أقلعنا عن تزويدها بأفعال جديدة لتيبست في مكانها، في كل لحظة أصيغ حدثاً عابراً فإذا به يتحول خيوط شبكة عنكبوت من الأحداث أحتاج إلى زمن مضاعف للتخلص من خيوطها، محاولة التخلص هذه تدفعني للتورط في فعل آخر، وهكذا تتناسل الأفعال وتتشابك.

لا زال صوته ثقيلاً وأمره نافذاً. كنت أراهن على الزمن، أراهن أن يغرس في تربة قاسية تختم على أفعاله القبيحة، وإن طال وقوفه سيتحول إلى جذع متيبس منخور ملت منه الشوارع والناس، كنت أنتظر مرور الزمن ليمحو سلطته، ويحيله إلى كومة عظام تجمع من غير عناية في عربة المقعدين يدفعها عامل آسيوي متأففاً من إدخاله لدورات المياه كي يتخلص من كمية الطعام التي يزدردها في كل وجبة.

هذه الأمنية لم تصبه بل وصلت إلى أخيه (نادر) الذي بترت قدماه من جراء حادث مروري خرج منه بنصفه العلوي، ونادر نسخة محبرة من أخيه، نسخة سيئة التصوير مسود المزاج على الدوام، محب للنكات، وسماع الماجن منها، بقيت نكتة أسامة التي زوده بها (الله يخليك قولي حبحبة) هي الأثيرة لديه، والمحطمة للرقم القياسي في حصول أسامة على خمسين ألفاً مقابل تلك النكتة.

يتوافد مرافقوه لمجلسه في وقت مبكر، لإسماعه النكت التي كلفهم بجلبها، ويجزل العطاء للنكتة التي تستدر دموعه من شدة الضحك إذا أعيدت ثلاث مرات، وأحدثت نفس الأثر، وقبل بدء السهر يصغي للنكت التي جلبوها، حتى اذا حانت السهرة، أعاد سرد تلك النكات على مسامع الفتيات بطريقة باردة سمجة تشعرك بالتقزز.

وجهه كقامته طويل بميلان عند الذقن، افتقر للتناسق الجمالي، (سكسوكته) تشكلت على هيئة شبه منحرف، ويزداد انحرافها مع إطلاق ضحكاته، طوله الفارع لم يتأثر بجلوسه على العربة الكهربائية فمع جلوسه في حوض العربة تصبح قامته مربوعة، بقيت أناقته الشيء اللافت به، هيئته حسنة عندما يكون صامتاً فإذا تحدث، أو ضحك، تغيرت سحنته، واتجهت للقبح، والتقزز من أسنانه المرصوصة من غير استواء، يزداد مع حديثه المشبع برذاذ شدقيه.

جل خدم القصر سعدوا بأنه خرج نصف إنسان من تلك الحادثة، وكانت رغبتهم أن لا ينهض بتاتاً، إلاّ أن الإسراع بنقله لألمانيا خيب أملهم، ورأوه مرة أخرى، فانشطرت فرحتهم حامدين الله لتحقق نصف أمنيتهم، حيث غدا مقعداً تدفعه الأيادي من خلال عربة امتلأت بجسده المطوال، وشهوته الممتدة.

هذه الشهوة لم يقصفها الحادث كما قصم جزأه الأسفل، بقيت في صور لم يحددها إلاّ متأخراً عجلت برحيل أسامة من القصر.

انطلق في زيجات متتالية، وغير موفقة، فكلما اقتعد حوض امرأة من نسائه جفلت لرؤية ذبول همته ونشاط إبهامه الزائد.

ولم يشأ أن يعيش فترة إجازة مرضية تعفيه من الموقف المخزي،

والمتكرر أمام سيدات تخلت ألسنتهن عن الحشمة لتستر عجزه، فأخذن يساومنه بالإفصاح عن أدائه، أو التعويض المجزي حيال رحيل أي منهن صامتة حامدة له تسريحها بإحسان.

رغب أن يشارك أسامة في جولاته على المولات، والأسواق، وأمر أسامة أن يدفع عربته بدلاً من الخادم المكلف بهذه المهمة. كان غزله سمجاً وفجاً. معظم الفتيات اللاتي رأينه في مراكز الترفيه، أو التسوق ينجذبن إليه شفقة ورثاء لحاله، وعندما يرى تطلعهن على هيئته يظن أنهن علقن بوسامته. ضاق أسامة به. كان يأمره بتسليم (كرته) لأي فتاة يستحسن جمالها، بعضهن يحملن الكرت، ويتركنه على طاولاتهن، وبعضهن يمزقنه أمامه، وبعضهن يغريهن التعريف الذي يحمله (الكرت)، فيحتفظن به لتواصل لاحق معه.

يختار الفتيات الصغيرات، ويجبر أسامة على دفعه لمطاردتهن عبر ممرات (المولات)، وإن لم ينفع معهن الغزل الملح، يلجأ إلى الإغراء بالمال، وإن لم ينجح المال لجأ إلى التهديد بأخذهن بالقوة، هذا الأسلوب نجح مع بعضهن، فانقدن لمصاحبته إلى سيارته المظللة تماماً، والمفصولة من الداخل بمقصورة خلفية معزولة عن السائق.

وبمجرد أن يحمل من عربته المتحركة لداخل السيارة، وبصحبته فتاة حتى يرتمي عليها عابثاً بجسدها مستخدماً لسانه، ويده من غير أن تردعه صيحات واسترحام الفتاة التي بين يديه، يكتفي بهذه (الكلبنة) من غير الحاجة لحمل الفتاة إلى القصر.

اقتصرت متعته على أداء هذا الدور في الشوارع العامة، أمضى فترة زمنية يمارس هذه المتعة بمثابرة ونشاط زائدين، ومع تكرار الأحداث، وتشابهها ملّ، وأخذ يبحث عن متعة جديدة.

يعرف الدور الذي كان يقوم به أسامه قبل انتقاله لخدمته، فانحرفت شهوته كانحراف وجهه.

بدأت تظهر عليه مظاهر التخنث، يمضي يومه كاملاً في تلطيف بشرته تحت أيدي رجال فيليبينيين، مهمتهم تليين، وتلبين بشرته مع إزالة الشعر من ثنايا جسده، متخلياً عن كل شعرة نبتت في أي مكان، هذه الرغبة جارت على (سكسوكته)، ومع إزالتها ظهر أن وجهه ليس له حدود، فازداد طولاً وبشاعة، وخضعت أعضاؤه الداخلية لاستقبال مرطبات مختلفة لتلبينها، وتطرية تصلباتها وجفافها، واختار الملابس الحريرية الضيقة، واستعار شعراً طويلاً متموجاً لفروة رأسه يميل للون الكستنائي، وأخضع وجهه، وعينيه (للميك آب) الخفيف.

رؤيته في هذه الحالة تبعث على الاستفراغ، هذا الشعور تورط به أسامة حينما استدعاه لغرفة النوم، وكلما روى أسامة ما حدث ـ ويحدث ـ يستفرغ، ويلعن الدنيا بأسرها.

لا زال شارع الملك ممتداً، ونقطة التفتيش التي تسبق ميدان الكرة الأرضية أبطأت تدفق السيارات صوب الشمال، وخاطري يتقافز بين الماضي والحاضر، وما الذي يمكن أن يحدث بعد قليل.

لم أعد أبيت في الفيلا، فقد بالغت عمتي في إرسال تأوهاتها، وإن وقفت عليها محذراً، صمتت، وأغمضت عينيها، فألمح جثة تخففت من ملابسها لتظهر انكماش عظامها، وجفاف جلدها المكرمش.

عدت إلى موقعي داخل القصر القديم، فقد انتقل السيد إلى قصر شيده في شرم أبحر، يتنقل بين القصرين وفق مزاجيته، أبقى على أشيائه كما هي. لم يفرط في مخدوم انتعل به في ذات يوم. لا زالت يقظة

القط مع فريسته مستيقظة في داخله. تعلمت منه خصلة إبقاء الأعداء تحت النظر مع تجريدهم من أي سلاح، والاستعداد لسحقهم متى شئت.

عمتي عدوتي الوحيدة. أبقيتها في مكانها وتحت نظري، فهي الوباء الذي علق بي، ولم أعرف كيف السبيل للعلاج منه، فكلما التقينا فاضت كراهيتها في دمي، الشيء الوحيد الذي أمارسه معها، زيارتها في سجنها الذي ارتضيته لها. أزورها لأَتَفَقَّدَ كرهي لها، في كل مرة أزودها بالمواد الغذائية والماء، يكون موقفنا واحداً: الكره المتبادل.

بقي نادر في القصر القديم. انحرافه الأخير فجر رغبة الهرب عند أسامة. جاءني في المساء مهدماً تماماً:

ـ تهاني ترقد وحيدة، وهي بحاجة لي.

أعاد نفس بكائيته التي سمعتها عشرات المرات، ولم تفلح كل محاولاتي، ومغالطاتي من إبقاء نصف يقينه من كوني المجرم الحقيقي الذي قتل تهاني.

ظل صامتاً، يتجرع زجاجة كان يحملها على الدوام، لم تعد النصائح تجدي معنا، فمن العار أن أنصحه بترك منكر، وأنا أخوض فسوقاً مضاعفاً.

ثقلت كل أطرافه، وبقيت تهاني نشطة في مخيلته، أخذ يجمع قصائد العشاق ويرددها:

ـ ألا تعرف شاعراً عاشقاً ماتت حبيبته فرثاها؟ أريد قصائد كل عاشق بكى حبيبته.

لم تكن لي دراية بجنون هؤلاء العشاق، ولم أكن أستسيغ كذب

الشعراء والعشاق بنظم الكلمات، تعلمت من الصغر أن ما بيدك هو الامتلاك الحقيقي، ومتى ما تفلت من بين أناملك لم يعد لك.

ـ هذا المخنث، يزيد حياتي بؤساً.

كان بين لحظتين متأرجحتين، يميل كثيراً إلى فكرة الهرب، والبقاء بجوار قبر تهاني:

ـ ما الذي يمنع أن أبتني بيتاً بين تلك الكثبان الرملية، وتكون مهمتي الأساسية غرس البذور، وسقيها على قبر الحبيبة، ما الذي يمنع؟

لم ترتب الكلمات على فمه بهذه الصيغة إلاّ أن تفرقها، وبعثرتها يستطيع السامع لها أن يخرج بنفس المعنى.

منذ أن عاد من قرية صالح الخيبري، وهو يجمع أنواع البذور القادرة على مقاومة الجفاف، والنهوض بإخضرار كثيف؛ ليزرعها على قبر تهاني. هذا الهيام بزراعة الأشجار على القبور هي محاكاة لما فعله كمال أبو عيضة على قبر حبيبته سميرة، فبعد موتها تفرغ كمال لزيارتها عصراً، وسقي الأشجار والأعشاب التي تحفّ بقبرها. أسامة مغرم بتقليد خطوات العشاق وسيرتهم.

نهض فجأة، وسقط على وجهه، ثم نهض مرة أخرى، فحاولت أن أبقيه لينام الليل عندي، وفي الصباح نكمل حديثنا لكنه تحامل على نفسه، وخرج نحو الشاطئ، ثم وقف أمام الكسارات الصناعية ينشد قصائد شعر حفظها، وأخذ يتهاوى رويداً رويداً، ومع محاولتي إنهاضه نفر من بين يديَّ صائحاً:

ـ أنت اللص، أنت القاتل.

وسار متطوحاً صوب مسكنه لاعناً الدنيا، ومن فيها.

بلغت نقطة التفتيش السابقة لميدان الكرة الأرضية، فأشار لي الجندي بالمضي من غير تدقيق، حين تكون معي مرام أصاب بالتجمد أمام أي نقطة تفتيش، إذ أخشى أن يحدث شيء ليس في الحسبان، فيصل خبري للسيد، ويعلم أني سرقت روحه التي يحيا بها.

لا أعرف كيف تعلق بمرام بهذه الصورة، فهو قادر أن يأتي بنساء الأرض، لماذا مرام تحديداً؟

كنت أمني نفسي أن أقضي معها يومين متواصلين إلاّ أن مكالمتي له جددت مخاوفي، كان صوته مليئاً بالضجر:

ـ إحضر حالاً.

ليتني أستطيع التملص من هذا الاستدعاء.

تملصت من حياة بالية، قذفت بكل شيء خلفي، وركضت للأمام، لم ألتفت بتاتاً للخلف، ولم أجعل عاطفتي تبقيني سجين بقايا ذكريات تطفو أحياناً لتملأ مخيلتي ويغذيها أسامة، فأجفل منها، وأعود إلى واقعي، داومت على تمزيق كل لحظة عشتها قابعاً بين جدران الفاقة.

بواسطة السيد تطهرت من الماضي، والآن أبحث عمن يطهرني منه.

يعرف كيف يصل إلي حتى ولو أغلقت أذناي عن العالم، فله مقدرة على استجلاب آلة تعيد لأذنيّ تلبية أوامره.

منذ تلك الليلة التي اصطحبني فيها عيسى، وأنا أسير صوته.

ها أنا أخترق بوابة القصر ورعب حقيقي يعتريني من كونه اكتشف علاقتي بمرام.

** **

قبل الوصول لبوابة قصر شرم أبحر هاتفني السيد بالالتفاف، وملاقاته بالقصر القديم.

لم يكن هناك من سبيل لإظهار امتعاضي وسخطي من تقلب مزاجه، فكانت كلمات التبجيل، وتلبية الأمر تجري على لساني.

ـ إياك، والتأخر.

غزت مخيلتي هواجس شرسة، كل منها حمل معوله، ووسع فجوة في رأسي، معاول مسننة وصلبة تهوي، فتتساقط حجارة ما بنيته من أفعال. هل سبب استدعائي الملح هو اكتشافه لعلاقتي بمرام، أم اكتشاف اتصالات موضي بي، أم اشتهاؤه لأن أقوم بدور الفحل وتعذيب ضحية جديدة، أم تزويدي بآخر تسجيل فيديو لموقعتي الأخيرة مع عمتي.

بعد هروبي من (الفيلا) لم أعد إليها. فهل نفثت عمتي آخر نفس من حياتها، وهي تشتهي شربة ماء، فقد نسيت تزويدها بالمواد الغذائية، بالأصح تناسيت ذلك عل هذا يختصر مدة بقائها، وتموت لتريحني مما أجد منها.

وصلت لبوابة القصر القديم، وتوجهت للمواقف الخاصة بالقاطنين، وفي ممشاي لمحت حمدان الغبيني يقف محاصراً بحارسين، وهو في حالة يرثى لها، ومع رؤيتي صاح بي مستنجداً، فهرعت إليه:

ـ ماذا بك؟

حاول التملص من الحارسين، فمنعاه من الحركة، اقتربت منه، فسكب جملاً طويلة ومفككة، حاولت تهدئة روعه، ليروي أن عيسى جاء إلى البوابة، فسمح له بالدخول، ولم يكن يعلم أنه يحمل سلاحاً، هاجم به السيد.

دلفت ـ على عجل ـ للبهو الذي يقتعده، فاستقبلني ضاحكاً:

ـ صديقك لم يشأ إلاّ أن يعكر مزاجي، ورأيت أنك الوحيد القادر على تعكير مزاجه، وإسعادي!

راعني منظر عيسى الملقى على الأرض، والحرس يحفّون بجسده، ويخضعون رقدته بالضغط على بطنه بأحذيتهم، ارتعدت حينما سمعت السيد يوجه حديثه إلي:

ـ عليك أن تنجز مهمّتك الأخيرة.

كلف حارسين بانتشال عيسى من رقدته، وسحبه لداخل غرفة التأديب، ولأول مرة يضع يده على كتفي، ونحن نسير صوب تلك الغرفة، وهمس في أذني:

ـ صديقك سرق شرفي، وأراد قتلي.

التفت فرأى الحرس يحيطون به، فقلل من عددهم، وأمرهم بالتوقف عند بوابة مدخل غرفة التأديب المزري وأعاد يده لإحاطة كتفي:

ـ مثل هؤلاء الأوغاد لا يمكن أن تثق بهم. الآن سأعلمه حكمة: (لا تخن من ائتمنك، ولو كنت خائناً)، أظنك تفهمني!

أبديت غباء في فهم مراميه، فنفذ صبره سريعاً:

ـ اسمع يا كلب، عليك إذاقته الذل كما آمرك، وإن تقاعست سآتي بمن يذلك، ويذله في نفس الوقت.

ـ . . . .

ـ قم بهذه المهمة على خير وجه وإلاّ . . . .

وترك بقية تهديده ناقصاً، لأكمله أنا. كان أقرب إكمال لهذا التهديد ما حدث لمصطفى القناص كقرصة أذن فقط أما ما يلي هذه القرصة من عقاب فلا أعرف ماذا سيصنع بي لو رفضت أمره هذه المرة، وجهه على غير عادة جمع عدة ملامح، وصفف بها وجهه مبقياً على نفير زفراته المتلاحقة، لتعطي إنذاراً ببركان سيقذف حممه الهالكة قريباً. دفع بنا (أنا وعيسى) لغرفة التأديب مخفورين بثلاثة حراس. هذه المرة أقف متأملاً ساحة التعذيب (التي أعرفها جيداً، وكأني أجهلها) وحالة من التقزز تتسع دائرتها، وتسحبني لجوف الظلمة.

انهرت تماماً، لم يكن يدر بخلدي بتاتاً أن أجتمع أنا وعيسى في غرفة التعذيب، عيوننا تتبادل الانكسار، وحمحمة الروح تصهل، وتذوي، السنوات الطويلة التي بيننا تتقطر كما لو كانت لوح ثلج صهر بتسليط لهب موقد مستعر. تقطرت كل السنوات عن ماء مالح، سال من العيون، وانحدر باعثاً شيخوخة ذاكرة مليئة بنزقها وهياجها، تكومت دموعي عند ذكرى مراهقة بعيدة حين رفع عيسى الرديني يده ليمنع مصطفى القناص من نهش اعتدادي برجولتي:

ـ من يقينا الآن من بعضنا؟

مصطفى القناص، أين هو الآن؟ كُسر هنا أيضاً فحين أمتنع عن أداء هذه المهمة الحقيرة، أُخضع لتأديب قصري، وخرج من بوابة القصر يقسم على قتلي، ولو لم يبق له إلاّ نفس واحد في هذه الحياة.

أذان صلاة العشاء طال هذه الليلة. بقي المؤذن يردد أذانه لوقت طويل من غير أن يستجيب المصلون لندائه، تتموج مفردات النداء المقدس داخل القلب في محاولة لإنارة عتمة قديمة فيُحبس هناك، تغلق

المعاصي أبوابها عليه، وتتسع بقعة الظلام، ومع اجتراح عصب الروح تزداد عملية التعذيب إنهاكاً وقسوة. عملية مستمرة لم تنته في وقتها، وبكاؤنا المكلوم يواصل نحيبه، ويفيض عن حاجتنا، يفيض عن كل شيء، لأرى أيام وليالي جدة تبحر في دمعنا كما لو كانت مراكب تسابق بعضها بحثاً عن شاطئ قريب، وترتد لعمق البحر حين تجد أن الشواطئ محاصرة بالأبنية، والأسوار الطويلة الممتدة، لا منجى لنا من بعضنا، مضى الوقت ولا زال نداء الصلاة متواصلاً، والليل يلملم عباءته لا ليسترنا بل ليكشف سوءتنا معاً.

في كل العمليات التي خضتها كان الجلاد، والمجلود مجذوبين لهاوية سحيقة، والروح تسحق، وتذوب فيما بينهما.

كان كل شيء خاطئاً هذه المرة: المكان، والشخص، والتوقيت. فما أن شرعت بالتعذيب حتى ارتفع صوت ندي مؤذناً بدخول صلاة العشاء، يصلنا الصوت مخترقاً دواخلنا، ناخراً الطبقة السفلى منها، ويرتد، يعاود سكب مفرداته بتنغيم آسر، فينتفض جسدانا. ترتعد فرائصنا. نستغيث فلا نغاث، فنعجن بكاء مكلوماً في أعماقنا. ولحظات العذاب المتبادلة تطول، وصوت الإمام الندي انقلب من الأذان إلى إقامة الصلاة، أظنه يصلي بمفرده، فصوته رق، واسترق لدعوة من لم يأت لأن يأتي. كانت تلاوته تغذي حرقتنا، فنتبادل النشيج بهمهمة متقطعة، قبضت أذني على آية، وصلتني واضحة من تلاوة الإمام: «ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب».

ـ هل هي رسالة موجهة كان عليه إيصالها لي في مثل هذا الوقت!

انهرت، فوق ظهر عيسى، لم أعد قادراً على أداء المهمة، فاكتفى

السيد بما أنجز. حملت ملابسي بين يدي، تاركاً عيسى يلملم عظامه، ويكفكف دموعه قبل أن يستوعب ما حدث.

أيقنت منذ سنوات أني لم أعد قادراً على مواصلة إتيان هذه الآثام العظيمة، كنت خائفاً من التصريح بهذا اليقين كي لا أوضع في خانة المجلود، أما الليلة فهو يقين ثابت، وقف في مواجهتي تماماً مهنئاً إياي على أداء المهمة بنجاح:

ـ لا زلت قادراً على العطاء كما عهدتك!

ـ . . . .

ـ ربما أتراجع عن قرار اعتزالك!

بصقت أسفل قامتي في غفلة منه، بينما تفرغ لتقريع عيسى، ومنعه من ارتداء ملابسه، شده من شعره، وبصق في وجهه:

ـ ما الذي جاء بك ثانية؟

ـ أريد زوجتي.

نهض السيد صائحاً وركله على وجهه، بمقدمة جزمته على أنفه مباشرة، فسالت دماء عيسى مخضبة وجهه:

ـ لن تلحق لأن تقول هذه الجملة مرة أخرى.

دفعه أمامه عارياً لخارج غرفة التأديب، وأوصله إلى القرب من البوابة الرئيسة:

ـ منذ سنوات طويلة استقبلتك هذه البوابة، والآن سأوقف الزمن هنا.

ومن غير مقدمات أطلق عيارين ناريين صوب جسده العاري، أصاب

أحدهما معدته، والعيار القاتل نهش صدره، واخترق ظهره، فسقط في مكانه من غير حراك.

وزأر بصوت ثقيل:

ـ أين الكلب الذي سمح له بالدخول؟

دفع الحارسان بحمدان الغبيني ليقف أمام السيد مرتعداً، وعيناه تجولان ما بين وجه السيد المكتسي بالغضب الفائر، وبين حدائق الجنة التي ظل عمره كله يحلم بدخولها، غضب السيد كان أكثر جذباً لحمدان الغبيني من رؤية حلمه، وقد تحقق بالوقوف داخل الجنة، فشرع يحاول دفع الكلمات التي تعسرت ولادتها على فمه، تلك الولادة التي لم ينتظرها السيد حيث وجه إليه ما يجب قوله:

ـ قل إن المجرم حاول اقتحام القصر، وأطلق عليك النار، فقتلته.

ولم يكن عابها بما أخرجه فم حمدان من كلماته أو استفسارات، فصوب عياراً نارياً على كتف حمدان، وقذف المسدس بجوار جسده:

ـ يومان، وتكون بين أولادك، إن سمعت ما قلته لك.

وفي سرعة هائلة كانت سيارة الإسعاف تقل جسدين إحداهما جثة هامدة، والأخرى تتلوى من ألمها، ومع ارتفاع صوت عربة الإسعاف، واختراقها للشارع الرئيس الفاصل ما بين الجنة والنار، كانت عينا حمدان الغبيني زاهدتان من التطلع للجثمان المسجى بجواره، ومتلهفتان لرؤية بيوت وأزقة حارة جهنم التي عبرتها سيارة الإسعاف بسرعة قصوى، وكأنها تحاول التخلص من عبقها!

** **

الليل يمضي سخياً بوحشته.

كنت أنتظر أمراً يأمرني به بعد تأديتي لتلك المهمة المضنية، فلم يلتفت إلي بتاتا. كان مشغولاً بعيسى الذي تفلت من قدمه بينما أنا لا زلت حذاءً يجيد ربطه جيداً.

عدت إلى سكني داخل القصر منزوعاً من الحياة، أحمل حقيقة جديدة تبقي اعتواري شاهداً على فساد وجودي.

مات عيسى.

في خطواته الأخيرة دفعه السيد للبوابة الرئيسة عارياً تماماً، غارساً في ظهره فوهة مسدس عيار (٤٥ ملم)، فسار مقارباً خطواته، ورأسه مدلى على صدره، حائراً في سيره، يغطي دبره مرة، وقبله مرة، انتكاسة رأسه لم تمكنه من إحصاء عدد من يحف به، ولتقارب أحذية الحراس حوله جعلته يتخلى عن توزيع يديه بين قبله ودبره، ووضع يمناه ويسراه على دبره مع بحثه عن جدار، أو ركن يسند ظهره عليه. مكسور تماماً لا يضع عينيه بعين أحد ممن أحاط به. تقت لأن تلتقي عينانا عله يقبل اعتذاراً أرسله له. عيناه مدسوستان في الأرض، وإن زاغتا فزيغهما يتابع أحذية الحرس، وحركتهم حوله.

أمره السيد بالتطلع لنافذة مواجهة له، فلم ينصاع لأمره، أدرت رقبتي بالاتجاه الذي أشار إليه السيد، فرأيت مرام بشعرها المسكوب على وجهها بإهمال، وعيناها ترقبان ما يحدث.

ـ انظر لسيدتك هناك.

وصل عيسى لقراره الأخير، رفض تنفيذ أي طلب يطلبه السيد.

ووصل السيد إلى قراره الأخير،فصوب نحوه عيارين ناريين جفل

لهما كل من في القصر حتى مرام اهتزت في وقفتها،وأنثنت لداخل البهو على عجل.

تحرك السيد صوب سيارته، وأدار محركها، مخترقاً البوابة الرئيسة، وكأن شيئاً لم يكن. تمنيت إخباره بعلاقتي بمرام ليلحقني بعيسى، وأنهي هذه الحياة الغارقة في بدني.

مات عيسى.

هل أخبر موضي، كانت تحدثني عن خشيتها أن يجن عيسى فعلاً.

تنقلت بسيارتها بحثاً عنه في الأماكن التي أشرت لها بتواجده، وجدته قابعاً أمام بوابة فندق الهلتون، وأقسمت أنها لم تعرفه، فهيئته الرثة، وهزاله الشديد، وعريه الفاضح خبأوا عنها صورته التي عرفته، وأحبته من خلالها.

تنكر لها تماماً حين حاولت أن تحمله لسيارتها، أو أن تنزله جناحاً بالفندق، أو أن تعيده بين أمه وخالته وقف في وجه كل محاولاتها، وأخذ يصيح بالمارة متهماً إياها بإغوائه، فخشيت أن يتجمع الناس حولها، فتركته في مكانه، وزودت أحد الحرس بمبلغ مالي ليتنبه له.

كان يهرب من وضعه الذي وصل إليه، أراد فقط أن يغرق في دم السيد فغرق.

ـ هل أُخبرها أنه مات؟

كنت أسير صوب غرفتي حائراً، مخذولاً، مهزوماً، وحيداً أجالس هواجسي، فكيف أهرب من نفسي؟، كيف أغلق كل دروب الماضي

التي سفحت أحداثها في وجهي دفعة واحدة، وجرفتني، وأوقفتني عند نهاية المصب؟

كنت أبحث عن ماسحة لهذه الذاكرة، فتجرعت كميات كبيرة من المشروبات الكحولية المختلفة، بحثاً عن غيبوبة تدخلني لكهف النسيان، ولكي أسرع بالاختباء بذلك الكهف الآمن. قرنت الشراب بالتحشيش، لتطفو كل الوجوه في مخيلتي. كلهم يحاكمونني، وينعتونني بالخسّة، وتنادوا من كل زوايا حياتي:

ـ أمسكوا اللص.

ـ أمسكوا القاتل.

ـ هذا اللوطي أفسد حياتنا!

تداعوا كما يتداعى طفيليون على قصعة. أحاطوا بي جميعهم، ونبشوا أيامي، وأخرج كل منهم عريضة دعوته، ليتلو ما أحدثته في حياته من جرائم، وينهي شكواه باللعن. لعن، وبصاق، وتقريع، وطرق أحذية تزور رأسي بغلظة، وأنامل تفرغ جوفي من أحشائه، وأخذوا ينتظرون كيف ستكون نهايتي.

بعد وقت طويل من التجرع، والتحشيش لم أصل فيه إلى كهف النسيان. غفوت فجأة. فقدت هذا العقل كاملاً، وكجثة أفاقت من قبرها، استيقظتُ متأخراً، ولا زلت جنباً. أسير دنساً على الدوام. صداع يكاد يخرم قحف جمجمتي. يدفعني للبحث عن مسكنات ناجعة جلبها لي احد أصدقاء السيد من لندن كرشوة مقنعة طلب مقابلها ـ بعد أسبوع واحد ـ رقم جوال «هدب».

رنين جوال موضي لم ينقطع من ليلة البارحة، ورسائلها بلغت تسع عشرة رسالة، قرأت منها ثلاث رسائل فقط:

هاتفني عيسى قبل قليل، وقال كلاماً كثيراً ما عرفت مقصده، وأنهى المكالمة على وعد أن يراني الليلة.. نسيت أقلك أنه اتصل واعتذر عن تنكره لي عندما وجدته عند بوابة فندق الهلتون.

ما نمت طوال الليل، وأنت لا ترد، ولا أعرف اش اللي صار لعيسى، بالله عليك رد، أو قلي اش اللي صار.

وصل خبر لأمي عن دخول عيسى للقصر، وعن إطلاق نار، وما عرفنا اش هي الحكاية، طمني الله يطمنك بالخير.

كان أول عمل أقوم به ـ بعد استيقاظي ـ إغلاق جهاز الجوال، ولم يرضني هذا الفعل، فقمت بتحطيمه تماماً. أخذت أسحقه بمطرقة حديد تناولتها من المطبخ.

آثار الكحول التي تجرعتها ليلة البارحة خلفت صداعاً عنيفاً لم تذهبه المهدئات التي تناولتها على فترات متعاقبة.

كنت بحاجة لأن أهرب من نفسي، فإلى أين أتجه؟

** **

من يشاهدني، وأنا أقف هذه الوقفة لن يصدق أني أمتلك ذرة عقل واحدة.

أقف متصنماً أمام قبر مترب، متصبب العرق أهمهم بالكلمات، مثل ساحر نسي الطلاسم التي كتبها ليثبت من خلالها مقدرته على جعل حباله كائنات تسعى. أنفث بكلمات ترتد لداخلي كحجارة رخوة غير قادرة على الإصابة، أو الدحرجة، فأنشغل بتجفيف عرقي المتصبب، وأعاود المحاولة، والشمس ترميني بأشعتها، فأذوب في الضياع.

أشعة الشمس تنير كل عتمة، إلاّ أنها لا تنير القلوب.

توسطت الشمس كبد السماء وأنا أسير هائماً، أتخبط في ظلمتي لا أدري ما الذي يمكنني فعله.

ظلام دامس يعشش في داخلي، ويسحبني عميقاً فلا أرى، أو أحسّ أن هناك جهة ترحب، أو تستقبل تلمس يدي.

بكل فتنتها، وقفت مرام في النافذة المطلة للبوابة الرئيسة تشهد نهاية عيسى.

ـ هل اقتصّت لنفسها منه.

أسلمتها سرّه. الأسرار لا تدفن في صدور النساء، فصدورهن كفروجهن تنتظر التخصيب دوماً لتلفظ ثمرتها للخارج. والصدر العاقر لا يصلح لأن يكون لامرأة، دواخلهن مزرعة لتفريخ الأقاويل، فالضلع المقوس في صلصال آدم، كان ضلعاً متخماً بالأسماء والحكايات، حتى إذا أخذ كانت حواء، فهي حكاءة لأنها جاءت من حكاية، والنساء تورثن مهمة نقل لقاح الحكايات.

هكذا أسلمت عيسى لنهايته.

عشق موضي لسنوات طويلة، ولم يعرف أحد بهذا الوله، ومرام لقحت بحكايته غضب السيد، وقفتها على النافذة كتمثال رخامي تخلى عن (صنميته) مع انطلاق الطلقتين الناريتين اللتين اخترقتا جسد عيسى، وغادرت المسرح من غير أن تبادلني نظراتها، أبقت عينيها سجناً كبيراً لتحركات عيسى العشوائية حتى إذا سقط لوت عنقها مهملة التفاتاتي المتكررة لمكان وقوفها.

لم أكن راغباً في الاتصال بها. آخر محادثة أجريتها معها حينما

سألتها لأطمئن على غياب سر علاقتي بها عن معرفة السيد. أظن أن ردها علي جاء، وهي في مسرح الجريمة تنتظر رفع الستار، لتشاهد سقوط أبطال الرواية على خشبة المسرح. (هذا في البدء وفي أوقات تالية بحثت عنها فلم تمكنني حتى من رؤيتها داخل القصر. كان غيابها حضوراً يؤرقني).

تجرعي للمسكنات خفف الصداع الناشئ من خليط المسكرات والتحشيش اللذين بحثت بهما عن كهف النسيان، استيقظت ضحى، مسكوناً بوجوه كثيرة أولها عيسى، في آخر لحظات سكري تهيأت أني أقف على جسده المسجى، أسد فجوتي العيارين الناريين بإصبعين من أصابعي، وأعتذر منه، عريه الذي مات عليه، أبقى يديه ساترتين لدبره، لم ينزعهما كي يستقبل العيارين الناريين اللذين فاجآ وقوفه الأخير، دماؤه الغزيرة جرت على عانته وتجلّطت هناك. زارني البارحة في غفوتي الإجبارية. استطاع أن يخترق غيبوبتي. عاد فتياً كما عهدته في أزقة حارة الحفرة، لا يسكت على ضيم، جاء ليقتص لنفسه غير مكترث بدمائه الشاخبة من فجوتي العيارين الناريين، واستطعت أن أهرب منه بالاستيقاظ!

تسير الظهيرة في شوارع جدة كمتسول لم يجد من يمد له قطرة ماء، فواصل دبيبه بين السيارات، والأبنية، والإشارات، والمتاجر، والتغلغل في ثنايا العابرين بحثاً عمن يجود عليه، ويوقف دبيبه.

ضجر يستفحل في داخلي كوباء نشط، ولحظة اختيار غبية، اقترفت فعلها في مثل هذا الوقت. الاختيارات تكون متساوية عندما لا ترغب في شيء.

لم يكن من الفطنة الترجل من السيارة، والسير في هذا الجو الملتهب الذي لا يقتلك، ولا يرحمك، وإنما يكسبك عادة فتح أزارير ثوبك؛ ليبدو صدرك الضامر صالحاً لإخراج الهواء الفاسد، والحكايات الضامرة أيضاً.

أوقفت سيارتي بموقف في شارع باب مكة، وسرت لتنفيذ تلك الرغبة المتأججة.

استقبلتني بوابة مقبرة أُمّنا حواء مشرعة أبوابها، العاملون بها منهمكون في تعميق حفر قبر جديد لاستقبال ميت، وضعت جنازته بالقرب من مغسلة المقبرة، وانشغل أهله بمتابعة القبار ومعاونيه، وهم يُوسعون قبراً جديداً بعد رفض ذويه دفنه في الغرف الخراسانية، ونقدوا القبار مبلغاً كتطييب خاطر لدفن ميتهم لحداً.

تتابعت ثلاث جنائز في الحضور، وأخذت تنتظر دورها ريثما ينتهي القبّار من دفن من أشغلهم بحفر قبر جديد، لتعجّ المقبرة بأعداد كبيرة من المشيعين رغبوا في التخلص من حمولتهم تلك، ودسّها تحت الأرض، والهرب من هذا الجو الحارق.

- كيف يكون لظى أعماق القبور في مثل هذا الوقت؟

الأشجار، والأعشاب المتناثرة على القبور تشوكت، وبهت اخضرارها مظهرة تشوقاً لماء يبلل عطشها، كانت بي رغبة لتبليل عروقها من صنابير مغسلة المقبرة، هذا العته أفكر به، وأنا انتظر القبار لأسأله عن موقع قبرين.

ومع فراغ القبار من دفن الجنائز التي استضافتها المقبرة للتو، أطلق ضحكة مجلجلة في وجهي من غير مراعاة جلال موقع الموت الذي يقف فيه.

ـ أسألك عن قبر امرأة تدعى آمنة، وقبر رجل يدعى عيسى.

واصل ضحكته مع معاونيه عندما أخبرهم بسؤالي، كنت مُلحّاً في طرحه، فالتفت نحوي:

ـ ليس لدينا شواهد قبور لنعرف أسماء الموتى ومواقعهم، هنا ندس الجثة، وننسى تاريخها، فلا تتعبنا، ولا نتعبك.

اعتبرني سخياً، وأنا أضع في يده ألف ريال، فرق وتلطف عندما سمع حجة غيابي عن البلد:

ـ متى دُفنا؟

ـ الرجل دفن قبل يومين، والمرأة قبل سنتين.

أعلم أنه أيقن من تحامقي، ومع ذلك افتعل البحث في أوراق الدفن التي ـ ادعى أنها ـ في أرشيف المقبرة، واختار لي قبرين متباعدين بعد تقليب أوراق المقبرة المدسوسة أسفل مخدة نومه ـ والتي أعلم أنها لا تحمل أرقاماً، ولا أسماء للموتى، ولا يمكن أن تحمل اسم ميت مضى على دفنه شهراً، وليس سنتين ـ كنت بحاجة لأن أقف على نصبين، وأحاورهما كشخصين حيين لم يموتا بعد! فقبلت مختاراً تغافله لي.

غباء هذا القبار لم يسعفه في حسن الاختيار، فقد اختار قبراً قديماً ليشير لي أنه قبر عيسى، وروى حكاية دفنه كحكاية لم تمر بمقبرة أمّنا حوّا قط، ولولا جدتها لتناقلها كل سكان مدينة جدة. لم أكن محتاجاً لكذبه، ومع ذلك استمعت لحكايته عن دفن عيسى الذي لم يتخل عن دور الملاك حتى في موته!

ذرفت على القبرين كثيراً من الكلمات الحارة التي شاركت بها عبثية الجو الملتهب هناك.

وقوفي على قبر أمي ـ المزعوم ـ كان خفيفاً، وسريعاً، وخلتها تأمرني بصرامة لم أعهدها منها:

ـ اذهب حالاً، واحضر عمتك إلى هنا قبل أن تسبقها أنت.

يبدو أن لسانها المبتور استعاد عافيته، ومع ذلك لم تتذكر أن تعتذر لتركها لي، وتذكرت عمتي، وكأنها اشتاقت لمناكفتها إلى أن تقوم الساعة.

في وقفتي تلك كنت محط أنظار القبار ومعاونيه، وهم لا يشكون بتاتاً من رقة عقلي، وقبل أن تمتد ضحكاتهم لتصل إلي كانت ثمة جنازة تتقدم نحو بوابة المقبرة ليهبوا جميعهم لاستقبالها.

لمحت كمال أبو عيضة يتقدم المشيعين بعيون محمرة مقبقبة، لم أكن لأعرفه لولا تلك الشامة المختالة بكبرها، وهي تقف على حاجبه الأيمن لتبقيه في الذاكرة حتى ولو أكله الزمن كاملاً، فلن يقدر على مضغ شامته الفتية على الدوام، تقدمت به السنون، فأنسته أناقته، وخطفت بريق عينيه اللتين كانتا توميضان وهي تتلصصان على سميرة.

آه . . سميرة، هل يذكر سميرة، كما أذكر تهاني؟

هل أذكر تهاني كحبيبة فعلاً، أم أذكرها كضحية، ضحية تلطخت بدمها وواصلت الرغاء بدلاً عنها.

أجزم أن كمال يتذكر سميرة بعمق، فقد رحلت، وهي راضية عنه، بينما تبعتها تهاني ساخطة عليّ. سيرُ العشاق لا تكتب في وقتها، تحتاج لمرور الزمن كي تكتب، أو يعلن عنها، عندها تتكشف معادن العشاق. كم من عاشق زائف، نهب روح صنوه، وهرب في عربة الأيام.

كنت عاشقاً زائفاً، وحيواناً يأكل برازه. كاد كمال يُجن يوم وفاة

سميرة، أقسم أنه لم تمس يده يدها منذ إخبارها بعشقه لها، يكتفيان بالتحديق ببعضهما، والتحليق مع حلم جمعهما معاً.

يبدو أن زياراته الدائمة للمقبرة منحته الخبرة الكافية لأن يتحرك في مواراة الجثمان الذي يحملونه. أظهر انشغالاً زائداً بتوجيه المشيعين للجهة التي عليهم وضع الجنازة بها، متخلياً عن غترته، ومشمراً عن ساعديه، وهو يعاون المشيعين في إنزال النعش، وتسوية غطائه الأخضر المنقوش بكلمة لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، وحثّ بعضاً من المشيعين لتوجيه القبار باستكمال طقوس الدفن كما يجب.

لم أر كمال منذ مغادرتي للحي، تركت قبر أمي ـ المزعوم ـ وتحركت باتجاهه:

ـ عظم الله أجرك!

التفت بوجهه كاملاً صوبي، وخطفني لحضنه محيياً ومرحباً، وأطلق ضحكات وجهه، وفرحه برؤيتي متناسياً وقوفه أمام جثمان سيشق به الأرض عما قريب ـ مثله مثل خباز نسي قرصه وقدم يده للتنور:

ـ لم تتغير، أين أنت؟

ـ في هذه الدنيا.

ـ عظم الله أجرك في عيسى، كان موته صدمه لي.

لم أشأ أن ينبش جثة عيسى المدفونة في صدري، فسارعت بسؤاله عن المتوفي:

ـ أخوك حسن دربيل مات ليلة الأمس.

وحسن يموت أيضاً. الأجساد تدسّ داخل التراب، وتبقي حكاياتها

تنغر ذاكرتنا كلما صفونا. كلنا جبنا عن الموت. تهاني ذهبت إليه مختارة، ذهبت من غير التصريح بمن سلب حياتها، وكأنها فضلت الموت على هتك سر قاتلها.

أبقت تهاني لمعان المرأة في داخلي بهذا الإقدام، نساء القصر نسخ سيئة للمرأة، وربما نسخ سيئة للظروف التي تضع هذه هنا، وتضع تلك هناك. أيضاً سميرة عاشقة لامعة. أوشكت على التبسط مع كمال أبو عيضة، وانتهاك حرمة الميت بسؤاله عن ذاكرته. ألا زالت حبلى بسميرة؟ كدت أفعل ذلك إلاّ أن تكاثر المشيعين، جعلت كمال يتحرك داعياً إياي للنزول إلى القبر معه:

ـ كما تعلم ليس لحسن من قريب سوى أصدقاء طفولته، ووجودك هنا بالصدفة يجعلنا نتقاسم أجره.

طرد «حسن دربيل» من القصر ملعوناً مدحوراً. فأحد الكلاب المحلية التي ربّاها داخل القصر ـ من غير علم السيد ـ تجرأ، وانقض على أحد ضيوف القصر هتراً وقضماً.

ربت كمال على كتفي لأتبعه، فوازيته، ورغبة الهرب تنمو في داخلي كما نمت أصوات المشيعين بالتهليل والتكبير.

أثير النقع من خلال السير الجماعي، والعشوائي للمشيعين، وتقدم كمال للنزول لداخل القبر ومعه القبار وأحد معاونيه، ودل آخرون رأس الجثة لتسحب للداخل بعجلة وسرعة متقنتين.

انسحبت سريعاً قبل صعود كمال، وإهالة التراب على حسن دربيل، سرت سريعاً مخترقاً بوابة المقبرة التي حفت بمجموعة كلاب تنبح بعواء حزين:

ـ هل جاءت كلاب البلد لتودع صديقها حسن دربيل الذي عاش من أجلها؟!

وكمن يهرب من متابعة لصيقة، انحرفت في ممشاي، وسلكت لداخل الحي، معرجاً للشارع الخلفي الذي أوصلني لسيارتي، وما أن أدرت محركها حتى انبعثت أمي (من مرقدها) تعيد وصيتها على مسامعي بإلحاح:

ـ اذهب، واحضر عمتك إلى هنا حالاً قبل أن تسبقها أنت.

** **

ـ احضر عمتك حالاً.

اعتبرته أمراً واجب الوفاء به، وأمراً حصيفاً لا يصدر إلاّ من قلب محب!

مضى أكثر من شهرين من غير تزويدها بماء أو غذاء، فهل تصمد كضب ألف حياة التقشف والندرة؟ لا أظن ذلك، فهي لا تطيق الجفاف، فمع نضوب الماء من بيتنا، ترسلني لجلبه والويل لي لو عدت خالي الوفاض. ساعة سعدها عندما تخمش قطع الثلج الصغيرة وتضعها على عصير التوت أو الليمون، وترتشفه بلذة مقلبة بصرها بين ما ترتشفه وبين ما تبقى ممتلئاً من مشروبها، طوال الوقت تبلل ريقها بكأس ماء أو عصير. كانت في حاجة لذلك لتبقي لسانها طرية وطويلة!

كيف غدت جثتها الآن؟

كان علي تدبر عذر مقنع لميتتها المنفردة، ووضع غرفتها المقلوب رأساً على عقب، وفق الحالة التي غادرتها، وهي عليها.

ربما أستعجل موتها بتخيلات تخرج من أمنياتي المكبوتة في داخلي.

كان تصرفاً غبياً إهمالها كل هذه الفترة، لا أظنها ماتت، فلو حدث ذلك لانتشرت رائحة نتنها، وقادت الأنوف لإفشاء ميتتها، ومكنت رجال البحث من معرفة صاحب الفيلا، وسؤاله عن تلك الجثة النتنة.

الخشية من معاودتها مهاجمتي كما فعلت في السابق، لأجدها تنخر صدري بأداتها الحادة المدببة. ولو فعلت هذه المرة سأنهي تعلقها بالدنيا، وقبل أن تسحبني - هي - إلى الآخرة علي اتخاذ الحذر اللازم في هذه المرة، وأن أقدمها للموت هدية مجزاة.

كان وضع الفيلا مزرياً، بوابتها الرئيسة مفتوحة على مصرعيها، وأشجار المدخل تيبست، ونزعت جذور بعضها، وتحطمت مصابيح الإضاءة الخارجية، وعبث بمحتويات المسبح الذي تطحلب ماؤه، وانتشرت على سطحه أوراق الأشجار المتيبسة، وكسرت لوحة القفز، ومع تقدمي في السير عميقاً ظهر باب البوابة الداخلية مواربأ ومع دفعي له اتضح العبث الحقيقي الذي حدث داخل الفيلا، فقد نهبت تماماً، تركت أرضاً صفصفاً سكنتها الأتربة وبعض المصابيح التي حافظت على إضاءتها ليل نهار.

قفزت السلالم الداخلية على عجل، متسلحاً بقطعة حديد سحبتها من فناء الفيلا، بقيت فوضى غرفتها على ما هي عليه، كنت في غاية الحذر، وأنا أتنقل بين تلك القمائم المتراكمة، وخيالات مبادرتها بهجوم مباغت قائمة.

أزحت كل ما بداخل الغرفة من قمائم باحثاً عنها. أجريت تفتيشاً

دقيقاً، ولا أثر لها، ولا لجثتها. انتقلت إلى كل مكان: جميع الغرف، الحمامات، المطابخ، السطح، الفناء، أسفل المسبح، لم يكن لها وجود.

الآن أيقنت أنني تركت بابها مفتوحاً في آخر مرة، فأين ذهبت؟

ـ هل أبلغ الشرطة؟

بقيت متردداً حيال هذا الأمر، تذكرت الكاميرات المزروعة داخل (الفيلا) هل سجلت ما حدث لها بعد مغادرتي الأخيرة لها؟.

كيف أستطيع أن أطلب من السيد طلباً كهذا؟

تراجعت عن التبليغ عنها، لربما استطعت الحصول على تصوير لما حدث، كنت محتاجاً للحظة صفاء تهب على مزاج السيد كي أفاتحه بالأمر هل أجرؤ على ذلك؟ لا أظن!

** **

عاد «حمدان» الغبيني إلى موقعه كحارس مميز أبلى بلاء حسناً في الذود عن حرمة القصر.

لم يكن يعرف ما فعلته بعيسى، وكنت أعرف ما فعلت لسانه به.

تسامح معه القاضي، وأعتبر جريمته المنسوبة إليه دفاعاً عن النفس، وعن حرمة المكان الذي كلف بحراسته، فالمرء يموت دون ماله، وعرضه، ودمه.

وكان الدم هو المنفذ الذي نفذ منه حكم القاضي إلى راحة الضمير، لم يصل «حمدان» إلى السجن، أمضى شهرين داخل المستشفى محفوفاً بعناية خاصة، وحضر محاكمة سريعة انتهت بمنحه صك براءة لم يحتج لأن يرفعه في وجه أحد.

بقي يستشعر إدانته أمام من حضر الواقعة وفي قرارة نفسه. كلما رآني داخلاً للقصر أو خارجاً منه خبّ نحوي، فأبتعد مسرعاً خوفاً من وصوله إلى الحقيقة التي لا يعرفها.

مرات كثيرة أتلقى تحيته من بعيد، فأتشاغل عنها كأني لا أراه، الليلة استطاع ضبطي، وأنا أقف لتفويج السيارات المغادرة للقصر بعد حفل أقيم لاستقبال زوار وفدوا من واشنطن تربطهم علاقات عمل متينة بالسيد.

ومع تناقص عدد المدعوين، تحرك متخلياً عن حراسته، ومقترباً مني يمضغ كلمات تقف على حافة ارتباكه، فتتساقط لتردم حدثاً لا يريدني أن أتذكره، أو يبحث عن وسيلة لإقامة جدار فاصل، يعزلني عما حدث.

ـ كنت أتوقع زيارتك لي، وأنا في المستشفى، وعندما لم تأت عذرتك لمشاغلك.

ـ . . . .

ـ أخوك إبراهيم عادني ثلاث مرات، كان لطيفاً وودوداً.

ـ . . . .

ـ في كل مرة يذكرك بخير، وعندما عتبت أنك لم تعدني ضحك وقال إنك مشغول على الدوام، وأوصاني أن أذكرك أن وعدك لزيارته مضى عليه سبع أو تسع سنوات (أظنه قال تسع سنوات).

ـ إبراهيم!

ـ نعم، هل صحيح أنك لم تزره من تسع سنوات أم كان يمزح؟

ـ هذا لا يعنيك.

أحس بصدودي، ونفوري من الحديث معه، رغم أن كل ما قاله هو تمهيد لما يريد قوله، فتلعثم وألقى بجملته، وكأنه يتخلص من حجر ثقيل حمله بين يديه، ولم يعد يحتمل المواصلة قبل أن يقذفه:

ـ كان عيسى شهماً، لا يستحق تلك النهاية، ولم أكن قادراً على قول غير ما قلت.

ـ . . . .

ـ أريد أن أعرف ما الذي حدث بالضبط؟

ـ أنت الذي تعرف، ألم تقل إنك قتلته دفاعاً عن النفس.

صدم بهذه الإجابة التي تحمله مقتل عيسى لم يتوقع صدورها مني، وأنا الحاضر لكل التفاصيل، أراد قلب الموقف كاملاً:

ـ نسيت أن أخبرك. . .

ـ هل ستظل تثرثر متناسياً عملك؟ هيا عد لمكانك.

ربما كان متوقعاً نفوري، فلم يستغرب عبوس وجهي ولهجتي القاسية، فرغب بتخفيف تعكري بالاعتذار، وشرح ظروف قبوله بالعرض الذي عرضه عليه السيد مع مقتل عيسى، لم أمكنه من المواصلة:

ـ إذا أهملت عملك فهذه مسألة لن تقدر على دفعها، هيا عد إلى مكانك.

عاد حثيثاً إلى موقعه يتطلع نحوي بعينين متأرجحتين. حين قفزت عمتي إلى مخيلتي تمنيت أن أسأله عنها:

ـ هل عادت إلى بيتها؟

** **

ـ لا بد مما ليس منه بد.

الماضي أشبه ببركان خامد، نستوطن قمته وسفوحه بيقين جازم من تكلس حممه، وقبل أن نطمئن في جلوسنا، يثور فجأة، فيغرقنا، أو يحرقنا كما فعل بنا أول مرة.

وها هي حمم الماضي تنبعث في وجهي، فكل ندبة أحدثتها في زمن ما، شبت وتحورت إلى قنبلة ناسفة.

عمتي هي الحبل السري الذي يجذبني لظلمة الرحم الأول، كما لو كانت بذرة الموت ذاتها التي نحملها داخل أنفاسنا حتى إذا انتهت من إحصاء مالنا من شهقات، أغلقت صماماتها، لنختنق، ونسكت، وندخل الظلمة والوحشة من غير أنيس. لن تموت قبل أن تميتني!

ـ أين يمكن أن أجدها؟

هل يعقل استمرار نغل هذه الدودة كل هذا الزمن، مضى عليها أكثر من سبعين عاماً، وهي تدبّ في الأرض بمثابرة الماء الآسن المستعصي على الامتصاص، أو التبخر.

النساء لهن طبيعة البقاء، فما يموت من أيامهن يستبدلنه، بأطراف إضافية.

هل اشتقت لمرام؟

مضى على آخر لقاء بيننا ثلاثة أشهر، لم تعد تسأل، كنت أظن أنني من هجرها، فإذا بغيابي يتحول لديها إلى زرار انقلع من مكانه، وحرر

عنقها من الضغط الدائم، فلم تكترث بإعادته لمكانه، فتحررت منه ومنحت صدرها الهواء، وفرصة الإغواء!

أيقنت ببعدها بعد أن غادرت القصر، فجأة طلب مني السيد المغادرة.

ـ اسمع، ألم تكن راغباً في الخروج من القصر؟

ـ . . . .

ـ رؤيتك تذكرني بأمور لا أحبذ تذكرها، من الغد لا أراك داخل القصر.

ـ ولكن. . . . .

ـ اسمع، لا تخشى من شيء، فما دمت تسلك الطرق الآمنة فلن يصلك شيئاً.

ـ أريد ان أقول. . .

ـ انتهينا، وإذا احتجتك، سأصل إليك.

تركني مسمراً في مكاني كأول مرة دخلت عليه في بهو القصر، ومضى يجر كبره غير مكترث بتلعثمي وبحثي عن السبب الذي يبعدني عنه.

أبحرت في مخيلتي قوارب الأسئلة:

ـ هل علم بعلاقتي بمرام؟ أم بتواصلي مع موضي، أم بوسوسة إفشاء سر مقتل عيسى، أم استنبط من عينيّ تهديدي المبطن الذي أحمله له في مخيلتي؟

لا لا، لو علم بأي من هذه العلاقات لسحقني تحت حذائه من غير الحاجة لإبعادي.

فما الذي حدث؟

هل جاء هذا القرار من فم مرام خشية وتحرزاً منها كي تتخلص من علاقة يمكن لها أن تقضي على حياتها مع السيد.

وهل كانت ترافقني لتصل لأنفاس عيسى حتى إذا قطفتها غدوت حذاء مقطوعاً لا يليق بانتعاله في السهرات أو الدخول به إلى المراحيض القذرة؟

هجرتها متعمداً، وعندما لم تأبه بهجراني لها، لسعتني بغيابها، فأخذت أبحث عنها فلا أجدها، فتشت عنها كل الأماكن ولا أثر لها، وها هو قرار السيد بإبعادي عن القصر يزيد مساحة البعد.

مرام مثلها مثل تلك الدودة التي شاء القدر ان تكون عمتي، هل يحملان نفس الدماء؟، فكلتاهما لهما نفس الخبث المبطن، لهما نفس التوق لأن يجرجران بك في قارعة الطريق من غير خشية أن يلاما باقتراف إثم عظيم.

لم يعد من سبيل للوصول إلى مرام سوى التنقيب عن صديقاتها اللاتي عرفتهن أيام مغامراتي معها حيث كانت بيوتهن ملاذاً لتبادل مماحكات الهوى والترتيب لمواعيد الغواية.

هؤلاء الصديقات ينتشرن في المنتزهات والأسواق، أعرف أن لمعة وأطياف وعبير يرتدن (مول الايس لاند) باستمرار، كنت مؤملاً أن أصل لمرام من خلال إحداهن.

فأدمنت المكوث بهذا (المول) المليء بأصباغ النساء، لكل منهن صبغة وحكاية رديئة الذكر.

هل كن على علم ببحثي عنهن؟

فبعد رؤيتي للمعة لم أر أياً منهن، رأيت لمعة تتأبط ذراع أحد الشباب كميدالية رشت بماء الذهب، فأخذ بريقها يفاخر بلمعانه بين اكسسوارات منطفئة التوهج، شاب صبت الصحة مياهها كاملة في عروقه، فتوهج بعضلاته النافرة من أكمام قميصه، فباعدت ساعديه عن إبطيها، فمل من التواضع، وبحث عن قد يضاهيه فتوة، اقتربت من لمعة مصافحاً، فجفلت عند رؤيتي:

ـ أردت أن أسألك عن مرام.

ارتبكت لمباغتتي لها، واعتصمت بذراع الشاب المصاحب لها:

ـ هل تعرفني يا عم؟

ـ وهل نسيتيني يا لمعة؟

ضحكت متفحشة:

ـ لمعة! لا لا أنا شمعة!

وأطلقت ضحكة فاحشة التغنج، وسحبت صديقها مبتعدة عني، هممت بمواصلة محاولتي معها إلاّ أن فوران دم الشاب المصاحب لها، ورغبته في اظهار عضلاته المستفزة أجل متابعتي لها.

فتيات كن على مقربة من محادثتي للمعة استرقن السمع، وبقين يتابعن جمودي بعيون تسفح سخرية تفيض عن حاجتي.

هل غدوت هرماً لهذا الحد؟

منظري وأنا أجوب (المولات) يستثير السخرية المبطنة المتوثبة من عيون الصبايا، وهن يرقبن دوراني المحموم متفحصاً سحنات العابرات، والقابعات في أروقة، ومتاجر، وصالات تلك (المولات).

ـ هل تعرفني يا عم؟

بعيداً عن القصر تفرز الفتيات أعمار من يرغبن استقبال نظراته ومماحكات غزله، وإن شئن إيقاف تصابي من رحلت به الأيام، ذكرنه بعمره بكلمات التبجيل الحقيرة (في مثل هذه الأوضاع) ك(عم أو يا والدي).

عندما وصلت لمعة لداخل القصر استكانت في حضن «عمر الجصير»، ذاك الستيني الذي أذب كهولته بالأصباغ، والمنشطات، والفحوصات الطبية الدائمة، استكانت في حضنه من غير تذكر عمره بل أضفت عليه تدليلاً فصيحاً فلا تناديه إلاّ ب(عموره) أو يا عمري.

وها هي توقفني بكلمة يا عم التحقيرية!

مرام تلك الحلوى التي زهدت من لعابي، فاستترت بالبعاد.

كان يعنيني ساعتها إيجاد عمتي، فبعد مغادرتي للقصر، لجأت للعيش داخل فيلتي، كفأر أجبر على الاعتصام داخل جحر مكشوف، خشية أن تنبعث سيرة عمتي، وكلما داهمني هذا الخاطر أصاب بالهلع، فلم أعد أعتصم بقوة السيد، واكتشاف ما فعلت بعمتي سيدخلني في دوامة ستعجل بسحبي لقرار سحيق.

ـ اسمع، لا تخشى من شيء، فما دمت تسلك الطرق الآمنة فلن يصلك شيء.

ضمن لي السيد أن لا يؤذيني، فهل يصدق هذه المرة؟

كيف لو أنه يحتفظ بعمتي كرهينة؟

هذا السؤال انبثت له سخريتي، عندما برقت كلمة (رهينة) فمن أنا

حتى يحتاط السيد منه بأخذ رهينة، أمتزجت كل الأحداث وغدت سائلاً له لون معفر وطعم كريه.

حاولت تصفية ذهني، والتركيز في أي السبل يمكن لي أن أسلك، وكلما حاولت الثبات عند نقطة، فارت بقية الاحتمالات في رأسي.

عمتي.. عمتي...عمتي...عمتي.

هذا الترديد ساعدني على حصر أولويات ما سوف أقوم به، فأين يمكن أن أجدها قبل انفجارها في وجهي، حكايتها لوحدها إدانة صارخة، يمكن للسيد دفعي لساحة الإعدام بالأشرطة المسجلة لأفعالي معها، هو قادر من غير ذلك، لكن اختفاءها شوش داخلي، أريد معرفة مكانها حتى لو أدى الأمر إلى إنهاء حياتي أو إنهاء حياتها. حسن، خرجت من الفيلا فإلى أين ستقودها خطواتها المنهكة؟

غدت زيارة إبراهيم واجبة لتنقية هذا التشويش الذهني الذي يعصف بي علها لجأت إليه.

ضغطت على جرس الباب مع طرق الباب طرقاً خفيضاً، بزغ من الباب غلام في الثانية عشرة أو أكبر قليلاً، سكنت في صوته كلمات الكبار، واعتدادهم بالترحيب بالضيوف، فرحب بي بأحسن ما يكون، ودعاني للدخول من غير أن يسألني عن شخصي:

ـ هل أنت ابن إبراهيم فاضل.

ـ نعم، وصلت، حياك الله.

ـ أبوك موجود.

ـ تفضل، مرحباً، أهلاً وسهلاً، زارتنا البركة.

قادني إلى غرفة الاستقبال، وأجلسني في صدر المجلس، سائلاً عن الأخبار، والأحوال، وانسحب للداخل، ليحل بدلاً عنه أخ يصغره بقليل. كان نسخة من أبي، تقدم مسلماً، ومرحباً بحفاوة تقل كثيراً عن أخيه، جلس ساكناً، يعبث بعينيه في ملامحي، وهيئتي، وإذا تلاقت عينانا تبسم ابتسامة أجيدها تماماً عندما كنت في مثل سنه.

- ما اسمك؟

- طارق إبراهيم فاضل.

هزني رده. اعترتني قشعريرة باردة سرت في جسدي تياراً عالي الحمولة، صعقت، وأحسست ببويصلات شعري تتخلى عن دورها، عيناه لاهيتان، مستخفتان، يعبث بيديه في عروة المقعد الذي يقتعده، انشغل عني بتقليب مجموعة كتب دينية استقرت على الطاولة المقابلة.

وانشغلت بتقليب عيني في محتويات المجلس البسيطة، كان بيتاً متداعياً، تدخلت أعمدة حديد بتواشج بين الأضلاع والأسقف فأسندت صلب بيت آيل للسقوط، بيتاً متواضعاً، يضج بالحياة كما تشي رائحته.

أصوات تصلني من الداخل تفوح منها رائحة الحب والوئام، كنت مادة تسلية لطارق الصغير، أخذ ملامح وجه أبي وتصرفاتي:

- هل تعرف من أنا؟

هز رأسه نافياً، ولم يكترث بسؤالي عمن أكون، أردت استثارته فلم يستثر، ظلت عيناه تقلبني كما تقلب يداه عروة مقعده، وعلى حياء دلف صبي أبيض البشرة يحمل وسامة مبكرة، ووجهاً يبدو مألوفاً في بعض جوانبه، سلم وهو يكسوه الخجل، وارتمى بجوار طارق الصغير، كنت

راغباً في تقبيله إلاّ أنه نقر، واكتفى بمد يده من غير إخراج أي كلمة، وجهت سؤالي لطارق:

ـ من هذا؟

ـ هذا أغيد.

ـ أخوك.

ـ لا ابن عمتي!

أيضاً طارق وعمه (هل سيعيدان حكايتي وحكاية خيرية؟)، وأي عمة هذه التي بزغت في آخر العمر؟ الحياة تستنبت حكايتها كما تستنبت أحداثها التي تسير بها، فهل هي منشغلة الآن باستنبات حكاية: (طارق وخيرية جدد؟) إنه استنبات بمورثات جينية تحمل متغيرات طفيفة: عمة ولها ولد.

جلس الصبيان كقطين يتفحصان فريستهما بتلذذ، ركزا بصرهما على تحركاتي، تبادلا مكرهما، يشاغلني أحدهما بالنظر إليه، بينما يتحرر الآخر في العبث بهيئتي كما يحلو له، أنقذني من هذه المصيدة دخول الأخ الأكبر حاملاً دلة القهوة، وصحناً مليئاً بالتمر، وصوت ترحيبه يتواصل طازجاً حياً:

ـ زارتنا البركة، أهلاً وسهلاً.

كان ماهراً في تقديم القهوة، وكأنه مدرب على تقديمها منذ زمن طويل، تغاضى عن حركات طارق المستفزة محاولاً تغطيتها بمجاذبتي حديث الكبار باختلاق موضوع للحديث:

ـ تأخر المطر كثيراً هذا العام.

ـ ومتى كان في جدة مطر، مضى المطر مع الأيام الجميلة يا بني.

أربكته إجابتي، فصمت، وبقيت مركزاً لعيونهم، فبادلتهم نفس اللعبة لأدفع عني هجوم مخيلاتهم النشطة، تنقلت ببصري بينهم، ها هي أغصان جديدة نبتت من دمي، هل أجرب فراستي مستكشفاً أياً منهم سيعيد سيرتي، أيهم الأشقى.

كان وجه طارق الأقرب لإعادة السيرة.

محوت رسم مخيلتي، وأعدتهم إلى مواضعهم كأقلام لم تُبرَأ بعد.

ها هو جزء من أسرتي التي لا أعرفها ولا تعرفني، هذه هي القلوب التي أهرب منها، ودمي موزع في أوردتها وشرايينها، تحف بي من غير أن تعرف أن دماءنا جرت من نبع واحد، وهذا السافل الصغير (الذي اسمه طارق) يبث احتقاره في وجهي من غير أن يعلم أني منحته هذا الاستهتار من خلال الوراثة اللعينة.

ساد الصمت فيما بيننا لفترة، وأرهقتني عيونهم التي تقع على وجهي كذباب ضال، التفت إلى كبيرهم:

ـ ما هو اسمك؟

ـ فاضل إبراهيم فاضل، يا عمي.

تمنيت أن أثبت عمومتي له، بقولي: نعم أنا عمك. أخو أبيك. ابن فاضل ذاك الذي رحل بعد أن وزعنا في أرحام متباعدة.

ـ يبدو أن أباك خارج البيت.

ـ لا لا، موجود سينهي وضوءه، ويكون هنا حالاً.

مع إكمال جملته، أطل إبراهيم من الباب، وماء الوضوء يتقطر من وجهه، ولحيته الكثة، ومع رؤيتي صاح باستبشار:

ـ طارق!

قفز طارق الصغير من مكانه ظاناً أن صرخة أبيه موجهة إليه، أقبل إبراهيم نحوي عاصفاً، جمعني في حضنه. لم عظامي. أعاد أنفاسي الهاربة مني، فبكيت، لم أتمالك نفسي، واستجاب إبراهيم لهنهنتي، تناشجنا، استبقاني في حضنه، يلثم كل ما يصل إليه مني، وأبادله بالمثل.

ـ هذا عمكما طارق، هذا أخي الوحيد، هذا حبيبي.

شعر بأنه لم يقدمني لهم بما يكفي، فصاح بهم:

ـ قبلوا يده ورجله.

انثنى فاضل لتقبيل يدي، فرفعته، وأخذت أقبله.

ـ هذا فاضل ابني البكر.

وأقبل أغيد الذي منحني خده هذه المرة من غير تحفظ:

ـ هذا أغيد ابن أختك مريم التي تتمنى رؤيتك منذ زمن بعيد.

بقي السافل الصغير طارق الذي تلكأ في السلام مرة أخرى، ولم ينفذ أمر أبيه اقتفى أثر أغيد بعد تلقيه إشارات ملحة من أبيه في التقدم:

ـ هذا طارق، يشبه أبي في جانب ويشبهك في جوانب.

صاح إبراهيم، وهو لا يزال ممسكاً بكتفي:

ـ مريم، تعالي يا مريم.

لم أكن قادراً على تحمل هذا الإغراق العاطفي دفعة واحدة، فجأة تنبت أغصاني، أبناء أخ وابن أخت، وأخت، وأنا الذي سرت العمر كله غصناً يابساً لم يرتو يبلل ببلل مشاعري الجافة.

ما الذي سأقوله لمريم هذه؟

أنا أخوك الهارب منك، والهارب من دمه. وكيف سأبرر لها قطيعتي لها منذ أن ولدت؟ كنت أنسق أعذاراً سأختمها باحتضانها، وتقبيلها تفادياً من انبعاث العتاب واللوم، بزغت من فرجة الباب صبية لم تتجاوز العاشرة من عمرها، وتقدمت نحوي بحياء وعجلة:

ـ سلمي على عمّك، هذه مريم آخر العنقود كأختنا تماماً.

كانت لثغتها حية، وهي تبادلني السلام والسؤال، وأبوها يحتضنها بعينيه اللتين تشيان أنه يخبئ لها حباً عميقاً، جذبني للجلوس متودداً:

ـ لأنكم غبتم جميعاً سميت بكم لأحس أنكم معي لم تغادروني!

ـ . . . .

ـ أين عمتي؟ ظننتك أحضرتها معك.

ـ بصحة جيدة، لم أكن مخططاً لهذه الزيارة، وإلاّ كنت أحضرتها معي.

كان ردّاً غبياً، جعل إبراهيم يصمت، ويمسك عن لومي بحلم القادرين، إذاً عمتي لم تعد لبيتها، أو بيت ابن أخيها، تلك الدودة لا زالت تنغل في مكان ما من هذه البسيطة. عليّ أن أتخلص من هذه الزيارة بأسرع ما يمكن قبل أن ألصق في وحل العواطف الذي أخذ يجذبني للعمق، ها هو أغيد يشدني من كم ثوبي:

ـ هل أنت خالي؟

هزرت رأسي موافقاً، ولم تطاوعني نفسي في ضمه:

ـ أمي لم تحدثني عنك كثيراً.

ـ لأنها لم ترني بعد. ولا تعرف عني شيئاً.

ـ أخوها. ولا تعرف عنك شيئاً، كيف؟

ـ هكذا.

ـ هل كنت مسافراً منذ ولادتك؟

ـ . . . .

هذا السؤال الخبيث الماكر صمتُ حياله، لكنه أوغر ذاكرتي، ذكرني أني مسافر، غريب، تائه وضال، آوه. . طال سفري، ولم أصل لميناء، كل الموانئ التي أعبرها أراها من بعيد، عندما يطول السفر تكون ذاكرتك كجزيرة مهجورة لا تعرف تفاصيل العابرين. تعرف فقط أنها الوحيدة التي عليها أن تعيش من غير أن تموت.

لكزني أغيد:

ـ أخبرني.

لن أنفك منه فمع كل إجابة تتوالد على لسانه أسئلة مسمارية، تحاول تثبيتي كلوح معوج لم ينسجم مع بقية الألواح. كنت أدقق في ملامح أغيد التي بدت طاغية الوسامة وطافحة الرغبة في البقاء بجواري، وبجهد وضعت يدي على كتفه (كوني لم أعتد ملاطفة الأطفال) فهبط في حجري ضاماً كتفي إلى حضنه، كان من المفترض تسميته «أرغد» وليس «أغيد»، فقد أزبدت الأسئلة بين شدقيه:

ـ هل وصلت من السفر؟

ـ يعني

ـ يقولون إن جدتي سافرت معك، أريد رؤيتها كما رأيتك.

حفز سؤاله استنكاراً من قبلي:

ـ جدتك، أي جدة هذه؟

فتدخل إبراهيم مقللاً من تدفق أسئلة أغيد:

ـ يقصد عمتنا خيرية، كان يشتكي لأمه أن ليس له أهل، فأخبرته بجميع أفراد أسرتها وأسرة أبيه، وهو يعرف معظمهم بالأسماء، وكأنها مقررات دراسية، يفتح كل مقرر ويجلس لمراجعته حتى ولو لم يعرف صاحبه، وغالباً يعوض غياب الشخصية باستنباط صورة من مخيلته عن ذاك القريب.

اعاد أغيد شد كم ثوبي:

ـ خالي أريد صورة لك.

كان يحمل ألبوماً خصصه لأفراد أسرته، وكل صورة لقريب وضع تحتها معلومة عن نوع القرابة وكلمة أو كلمتين عن انطباعه عن تلك الشخصية، تجاورت أنا وعمتي في صفحتين متقابلتين من الألبوم، وقد استبدل صورتينا بشخصيتين كرتونيتين مضحكتين، وكتب أسفل كل صورة: لا أعرفهما.

قلبت ألبومه فوجدت مكان صورة أمه صورة للمطربة اللبنانية هيفاء وهبي، وأسفل منها عبارة (ست الحبايب)، فصحت به:

ـ هذه أمك يا كلب (محاولا إصباغ شتيمتي بضحكة ممازحة).

ـ لا، بس عيب أضع صورة أمي.

استشعر الجميع أن أغيد استحوذ على الجلسة، وكان طارق يبدي الاستياء بالضحك مما يقوله أو يفعله أغيد، وأردت قطع هذا السيل من الأسئلة، فالتفت إلى إبراهيم:

ـ حقاً، أين أختنا مريم، أريد رؤيتها.

ـ مريم تسكن مع أمها، وتأتي بأغيد لزيارتنا، وفي أحيان أذهب به لرؤية أبيه.

ـ هل طلقت؟

ـ الموضوع طويل، وقد جئت إليك قبل سنوات لمساعدتها ولم تهتم.

حاولت الاعتذار بجمل طويلة شرقت فيها وغربت، ولأنها أعذار واهية فلم تكن مقنعة بتاتاً قاطعني إبراهيم:

ـ ما مضى قد مضى، هي الآن تعمل، وتصرف على نفسها وأمها وابنها.

ـ هل تحتاج إلى مساعدة، فأنا جاهز.

وأخرجت دفتر شيكاتي مرة أخرى، فأطبقت يد ابراهيم عليه ـ كما فعل في السابق ـ لكنه لم يقل جملته التي بقيت تلازمني (المال الفاسد له رائحة فاسدة).

ـ لا أظن، فعملها يدر عليها الكثير.

ـ وماذا تعمل؟

ـ تدير شركة للملبوسات النسائية الجاهزة، ويبدو أنها حصلت على أموال من زوجها قبل دخوله للمستشفى، لو رأيت حاله تشفق عليه.

ـ هل مرضه خطير؟

قطع حديثنا ارتفاع أذان صلاة العشاء من عدة حناجر تقاربت مساجدها، تصل إلينا عبر مكبرات الصوت في مستويات تناغم متقاربة، التفت إبراهيم للصبية المجتمعين:

ـ هيا تجهزوا للصلاة.

أجابوا أنهم متوضئون جاهزون لأداء الصلاة، التفت إبراهيم نحوي:

ـ هل أنت متوضئ أم تتوضأ؟

ـ لا لا، متوضئ.

هكذا وجدت لساني يسارع بالإجابة بينما آخر مرة توضأت عندما كنت في حلقات تحفيظ القرآن، ومنذ دخولي للقصر، وأنا أحمل دناستي. لم أتطهر منها يوماً. وجَّه إبراهيم حديثه للصبيه بالتحرك للمسجد، فنشط فاضِل وأغيد، وظل طارق يماطل مدعياً بأنه سيرافقنا حالما نخرج من المجلس.

ـ لم تخبرني عن مرض أبو أغيد، هل يحتاج لنقله إلى الخارج، أنا أقدر على تسفيره.

ضحك إبراهيم، وربت على ركبتي:

ـ لا لا، مرضه ليس خطيراً، هو بكامل قواه فقط هناك ملابسات ووصلت قضيته إلى الديوان، وستنفرج إن شاء الله.

ـ لم أفهم، ما علاقة مرضه بالديوان، إن كان في حاجة إلى العلاج في الخارج فأنا على اتم الاستعداد لذلك.

ـ لا تشغل بالك، سأخبرك بالموضوع كاملاً.

ونزع مريم من حضنه موجهاً حديثه لي:

ـ سنكمل حديثنا بعد العودة من المسجد.

ـ لم تقم الصلاة بعد، أكمل.

ـ أنا إمام المسجد، ولا يصح ان أصل متأخراً.

تحركنا متلازمين، يقبض على يدي مبتهجا، ومستشعراً رغبتي في الانفلات، والهروب إلى تلك الأزقة الضيقة:

ـ الصلاة تخلق الطمأنينة يا طارق!

أظنه يعلم بدناستي، ولم يشأ أن يحرجني حينما أخبرته أني على وضوء، كان يقبض على يدي كمن يخشى تلاشي دخان من بين أنامله،

اخترقنا الأزقة الموصلة لبوابة المسجد، وتريث أغيد ليمسك بيد خاله إبراهيم (من الجهة الأخرى، وكأنه استشعر بنفوري)، فخاطبه:

ـ سنزور أباك اليوم بصحبة خالك طارق هذه المرة.

وسَّع ابراهيم بين خطواته، جاذباً تقاعسي معه، واقترابنا من بوابة المسجد، فتحلق أهل الحي حولي للسلام، وبث الأشواق، والسؤال عن غيبتي الطويلة، احتضنني سليمان أبو عيشة:

ـ والله زمان، يا طارق، أين كنت في كل هذه الغيبة؟

وأنثنى ليقبل أغيد:

ـ أهذا ابنك يا طارق؟

فرد عليه إبراهيم: لا، هذا أغيد، ابن وليد خنبشي.

أظن أني سمعت صاعقة قرقعت في الفضاء، شطرتني نصفين، ومادت بي الأرض، أحسست بتجويفات هائلة تسحبني لعمقها، وأنصافي تتشظى، أغدو أشلاء ممزقة، وأهوى إلى قراري السحيق، ها أنا أصل لقرار السقوط، ولا أقدر على الصراخ.

مادت بي الأرض، وسكنت الفجيعة داخلي وهويت، غبار يمضغ غباراً، وقرقعة تلتهم ضجيجاً، فحين ينهار المبنى لا تتنبه أسقفه ولبناته

من خان من. وكالميت حين تغادره روحه فجأة، ويسقط جسده قطعة تالفة تقذف أمامه للحفر العميقة.

لم أعد في مكاني.

إبراهيم يجذبني لداخل المسجد يعمق خطواته ليصل إلى المحراب، ويوقفني في الصف الأول خلفه تماماً، وأنا أرغب في الهرب، ولا أقدر على جمع أشلائي المتساقطة، وجموع المصلين، ينهضون مع إقامة الصلاة، أتلفت بحثاً عن منفذ لأنجو بانهياراتي، فألمح إبراهيم يتهيأ لتكبيرة الإحرام، وهو يحث المصلين على الاستواء والاعتدال، وينظر إلي مبتسماً، وكتل من الأجساد تلمني في استقامة الصفوف، تحشرني داخل الصف الأول، وأنا أبحث عن منفذ، وأغيد أهمل تكبيرة الإحرام وأخذ يلاحق ارتباكاتي، ويبتسم في وجهي، فألمح مرام تقف بكل فتنتها تحاول ستر عورتها، المصلون أنهوا تكبيرة الاحرام ودخلوا في فيض من التبتلات، وأنا وأغيد نتبادل النظرات، وصوت إبراهيم يرتفع مرخماً، اجتاز سورة الفاتحة بخضوع تام فضج المسجد بالتأمين، صمت للحظات وكأنه يبحث عن آية يقيم بها انهياراتي، وانساب صوت شلال متناغم يهبط مترنماً وجاذباً: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾.

كان آخر السقوط، استقرت الأنقاض في مواقعها، فلمحت الغبار الكثيف ينبعث من داخلي، ويملأ فضاءات المسجد، فأغيب خلف أدمعي، أجهشت بالبكاء، وصوت إبراهيم يلاحق مردة عبثوا في داخلي، فتفيض روحي، وتتقصف. لم يعد الدمع يلحم تصدعاتها، فارتفاع

عويلي، غطى على سكينة المصلين، وجذب البعض منهم لأن يتخلى عن صرامة عدم الالتفات، أغيد لا يعرف ماذا يفعل، فنزت عيناه بدمع شحيح وهو يرقبني. جاء صوت إبراهيم آمراً بالركوع، فلم أقدر على ثني جذعي، وحينما كبر ابراهيم للسجود سجد المصلون، خرت كل الرقاب، ورقبتي المتطاولة في فضاء المسجد، تلوب بحثاً عن جحر أندس به، كانت عينا أغيد تراقبني، فألمح مرام كعمود ملح يذوب، استرخت الطمأنينة في سجود المصلين، وكان علي ان استقر في سقوطي بعيداً عن أعينهم، فقفزت من على رقابهم بحثاً عن هرب أبدي.

وأخذت أعدو أجرجر أصفاداً ثقالاً، ألحق بكل القوافل الهاربة من مصيرها، التقينا في مضمار واسع، الكل يعدو نحو نهايته، منهم من وصل، ومنهم من ينتظر: تهاني، مصطفى القناص، عيسى، موضي، وجوزيف عصام، عمتي خيرية، ومرام، وخلفي طابور طويل يعدو في هرب غير مجد.

قراري بقتل السيد نضج تماماً، لقد مضى زمن طويل، وأنا أحمل جثته في مخيلتي، ولا أعرف كيف أواريها، فحينما آوي إلى فراشي استجلب النوم بخيالات مقتلة، وفي كل ليلة أقتله بطريقة مغايرة عن الليلة السابقة، آه كم هي المسافة بعيدة بين الخيال والواقع.

انتهت

٢٠٠٩/١/١

البرزخ

هياكل لأحداث ميتة
لم تستوعبها حياة السرد

كل لحظة في حياتنا لها برزخ سابق وتال، ولا يحدث أي فعل قبل أن يأتي من برزخه الماضوي ليعيش في وقت وقوعه زمناً قصيراً ومن ثم ينتقل إلى البرزخ المستقبلي، لنتجمع هناك كعلب تغذية فاسدة يجمعنا برميل لحفظ القمائم، كلنا جئنا من برزخ وسنذهب إلى البرزخ تاركين أثراً باهتاً للتدليل أننا كنا هنا (في نقطة ما) بينما سيتذكرنا الزمن في لحظة أخرى ويسترجعنا، لنقف في مواجهة بعضنا من أجل إحداث فعل آخر.

هكذا تستمر الحياة بلا انقطاع!

لذلك كان لزاماً أن تلحق هذه الأحداث بأصحابها حتى لو تم تمريرها من غير أن تذكر في حياة السرد.

فهناك أحداث لا نعرف عنها شيئاً إلاّ عندما نتجمع جميعاً في حافظة القمائم.

هذا هو التدوير الحقيقي للنفايات البشرية!

** **

ولأن الحياة تحتاج دائماً لمقبرة تدس بها من انتهت من مضغه وهضمه كي تخرجه مرة أخرى على هيئة فضلات، كانت هذه الأحداث مجرد فضلات يمكن لها أن تستخدم كسماد لإحياء أرض جدباء وتعيد نفس الدورة، ويمكن أن تظل فضلة تعافها النفوس وتتبخر في الهواء لكنها لا تتلاشى أبداً.

الكارثة أن هناك من يعيش حياة الفضلة في محياه ومماته.

المهم أن هذه الأحداث أجداث سكنت مقبرتها قبل الفعل (أو بعده) ومن أراد تقليب جثث أحداث هذا السرد سيجد هنا ما لم يتم سرده، ربما جاء على هيئة بلوزة لمرأة نستها بعد حمحمة عجلة، أو حذاء لرجل اشتراه ولم ينتعله وبالتالي لم يعرف أي قدم أخرى سارت به في منتزه أو في حي كان منتعله يفاخر به، وربما تجد بقايا أطعمة أبقت روائح ملتهميها لتدلل على طبقتهم، أو تجد حدثاً لا معنى له بالنسبة لك، أو تجد أشخاصاً لا تعرفهم وليس لهم علاقة بما تبحث عنه.

هي هكذا المقبرة الذي يهمنا فيها مواقع من دفنا من أقربائنا أو أصدقائنا، ولكل واحد منا قريب أو صديق، يعرف موقع مقبرته وإن لم يعرفها يضع لها مقبرة في مخيلته، لهذا فالمقبرة مهمة للجميع، يقف بين أجداثها ليرى أن الحياة تتجمع في مكان واحد.

ربما لا يكون المكان المناسب لمن نحب لكن المصب يجري في اتجاه واحد في الواقع الذي وجدنا به.

فاحتمل استنشاق ما لا تطيق!

** **

مقطع من جلسة
سبقت كتابة هذا السرد

بينما كنت أجول داخل منتزه (الأيس لاند) غاضباً من تصرف أحد أبنائي لتبلل ملابسه جراء قيامه بالتزلج داخل الصالة الثلجية في حين كان يعاني من مرض الربو، ومع اشتداد ارتعاد جسده برداً خشيت أن تعاوده نوبة ضيق التنفس، وضاعف من غضبي إهماله المتكرر من نسيان حمل البخاخ الموسع للقصبات الهوائية معه مما يعني انتهاء النزهة، والعودة للبيت مبكراً، وهذا ما لا أوده، حيث كنت أتابع شخصيات ظننت أنها شخوص صالحة لأن تكون أبطالاً لقصص أو روايات، ولا يمكن الالتقاء بها إلاّ في هذا التجمع الوحيد المسموح به (أو هكذا أتصنع)، لذلك أغلظت القول لابني، ولم يكفني هذا التعنيف من تقليل فورة غضبي، فاحتجت لشتائم مرادفة تساعدني من تقليل منسوب ارتفاع موجة الغضب التي اجتاحتني، الحب كالكره يحملك أحياناً لأن تلقي بكل أسلحتك لإيذاء عدوك أو حبيبك فقط لتشعره بما يموج في داخلك عليه.

هذا الغضب ـ المبالغ به ـ اعتقله أحد المتنزهين، وهو يتفرس في وجهي متفحصاً ملامحي:

ـ أأنت عبده خال؟

هذا التصرف الذي أحدثته مع ابني سيكون معيباً لي خاصة وان بعض مقالاتي اليومية تسفه الآباء الذين يقدمون على إهانة أولادهم فكيف إذ كانت هذه الإهانة علنية وعلى الملأ، سيكون تصرفي ذاك، محل انتقاد هذا السائل، وتكذيب ادعاءاتي حينما ينفرد بزملائه ليروي لهم كيف كنت هائجاً في وجه ولدي، وربما يضيف زوائد تجعل حديثه مستساغاً لإسقاط مقولات الكتاب وافتراق حياتهم الخاصة عما ينادون به على هيئة إيمان مطلق، كلنا لا يرغب أن يبهت فجأة كلوحة زيتية ذهبت ألوانها.

ـ أنت عبده خال؟

ـ أهلاً (قلتها بخجل شديد).

ـ شاهدتك هنا مراراً، وسمعت أنك تكتب روايات، وعندي لك قصة يمكنك كتابتها.

حسناً، نفدت من ازدرائه ولومه إزاء ما دار بيني وبين ابني، إلاّ أني علقت من جانب آخر، كيف للمرء أن يتخلص من مثل هذه الدعوة التي تواجهك في كل حين بإبداء رغبة مصافحك بعرض سيرته كمادة صالحة لأن تكون مسلكاً لكتابة رواية من غير أن يغزوك ذلك الشعور الغامض بأن هذه روايتك.

كنت لا أزال محتدماً وغاضباً، ومشفقاً على ابني الذي أخذ صدره (ينهج) كمقدمة لظهور الأزمة، ولم أكن قادراً على الفكاك من محدثي كنوع من اللياقة الأدبية التي نضعها كأوسمة على صدورنا بينما نكون قد نسينا في أي محفل تقلدناها، ونتمنى قذفها في أي مكان قفر.

الوضع الذي أعيشه بسبب الكتابة يضعني في موقف المستمع دائماً، لم يكن محدثي ليقبل أن يلقي جملة عابرة ويمضي، هذا يريد مني الاستماع لحكايته كاملة.

حاولت الاعتذار بأن الوقت غير ملائم لسماع حكاية طويلة، ويبدو أنه استشعر بهذا الزهد من حكايته، فأراد تقديم المقبلات الشهية لجذبي لحكايته، فمال لأذني:

ـ أنا لوطي!

هذه هي الرصاصة التي تنطلق محدثة الدهشة والرغبة الملحة لمعرفة ما حدث:

ـ هل سمعت، أنا لوطي بل أكثر رداءة مما تتصور.

لتتسع شهيتي في سماع حكايته، وجلسنا.

في منتصف حديثه، أقبل صبي تتقافز من ملامحه وسامة طاغية:

ـ خالي، انتهى شحن كرت الالعاب.

فنقده مائة ريال، ليرتد الصبي إلى صالة الالعاب.

ـ هذا هو أغيد، الضحية الحقيقية لكل ما أحدثك به، فأمه اختفت تماماً كريح لا يعرف أي الجهات سلك، ولم أعد أعرف لها مكاناً، وأبوه لا زال في المصحة.

ـ من أغيد هذا؟

ـ أصبر علي، سيصلك خبره لو أكملت سماعك لقصتي.

وقد أمضيت جلسات طويلة ـ عبر فترات زمنية مختلفة ـ وأنا أصغي إليه، فيما كان يسترسل كموج بحر لا تحاصره الأسوار الإسمنتية التي سحبت على امتداد البحر وحجبت زرقته.

في آخر جلسة قال لي: هل ستكتب حكايتي كما هي.

ـ سأحاول.

وقفت مودعاً له، فضغط على يدي وضحكته تحاول إنارة وجهه الكالح:

سأقتله يوماً ما، لا زلت أحاول أخذه على حين غرة لكنه كسمك قرش ينام مفتح العينين، لن أيأس سأحاول مراراً.

وكعادتي معه تركته يهذي كما يشاء، ويبدو أنه لم يشف من ثرثرته الطويلة التي اتخذها كوسيلة لإظهار الندم أو التطهر بإخراج الكلمات الحارة، أخيراً قرر أن ينهي حديثه فضغط على يدي مودعاً وموصياً:

ـ لو سمعت خبراً عن فعلتي لا تصدق أني معتوه.

* * *

مانشيت صحافي

بسالة ويقظة حارس الأمن ترديه قتيلاً:

مقتل معتوه داخل أحد القصور حاول الاعتداء على ساكنيه بالقتل

«جريدة الوفاق»

العدد ١٤١٢

** **

رصاصة مبكرة

حوار جرى بين عيسى الرديني وعدنان حسون

قلة قليلة حضروا هذا الحوار وكثرة كثيرة سمعوه.

ـ رصيدك مكشوف!

ـ ماذا تعني؟

ـ بح.. خلاص!

ـ هل تعني أن المائة مليون تبخرت في الهواء.

ـ هذا ما حدث!

والذي حدث بعده ذبول ملايين النفوس، لتتحول حياتهم إلى بسط رثة لعتبات تصعدها الأقدام الصلفة.

** **

تمر البلاد بهزة عنيفة تتمثل في نهوض العمليات التخريبية على أيدي إرهابيين أصوليين ينتمون للقاعدة، ويستهدفون زعزعة النظام، ورافق هذا التواجد وفرة مالية في أيدي المواطنين مما حمل بعض المتعاطفين مع القاعدة على تغذية هذا التيار بالمال من خلال التبرعات ذات الصبغة الخيرية لتصب (تلك الأموال) في نهاية الأمر بأيدي أولئك المخربين، والتوصية تقتضي إيجاد طرق فعالة لتجفيف الأموال من أيدي المواطنين وتبصير الناس بخطورة التفجيرات على حياتهم بشكل مركز.

ملخص لتقرير سري

نشر في موقع «الطائر» يبرر سبب انهيار الأسهم

** **

www.alftheh.com

رابط لتسلل بعض أخبار المتلاعبين بسوق الأسهم مع ذكر سير لحياتهم وعمليات نصب وتحايل عديدة قاموا بها على المواطنين.

** **

www.alftheh.com

تم حجب هذا الموقع يمكنك المحاولة من خلال الروابط التالية:

www.alhaahna.com

www.seerk.com

www.elamen.com

** **

* كم من امرأة عبث بشرفها، أو دفعت دفعاً للبغاء ولم ينصفها أحد، لا قضاء، ولا حقوق إنسان، ولا من يدعي الصلاح في نفسه، فاختلط الحابل بالنابل، ولا خير في أمة تقيم الحد على الضعفاء وتغض الطرف عن الوجهاء.

*........والإرهاب ليس من يفجر هنا أو هناك، الإرهاب هو إفساد المجتمع وتجفيف مبادئه وقيمه، هذا هو الإرهاب بعينه وهذا هو البلاء حين يتم التغافل عن المنكرات وعدم رفع الضيم عن المظلومين.

* تركنا الرسول صلى الله عليه وسلم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، وهناك من يريدها ليلاً في ليل.

مقتطفات من خطبة جمعة

تم تنحية قائلها الشيخ إبراهيم فاضل إمام مسجد الإخلاص

** **

جزء من تقرير إخباري

جريدة الضحى تتجول بين صالات البنوك:

الأسهم تهبط والعقول تقلع

سعيد منصور ـ جدة



لا زال سوق الأسهم يواصل انهياره الحاد من غير أن يبين أين مستوى القاع الذي سوف يستقر عنده، ومع هذه الانهيارات المتوالية، تعددت حالات المستثمرين وردود فعلهم وقد رصدت الجريدة من داخل صالات التداول حالات بعض المتداولين التي تعددت بتعدد حالة أحد المتضررين من ضياع أمواله داخل السوق، والذي لم يتمالك أعصابه، فانهار انهياراً يوازي الخسائر التي تكبدها، وفي أحد البنوك الواقعة شمال جدة فقد أحد المواطنين عقله من جراء تسيل محفظته ولم يتمالك نفسه فخرج من البنك عارياً.

جريدة «الضحى» العدد ٣٤٣٢١

*** ***

مانشيتات لصحف محلية

ضحايا انهيار السوق: رجل يسير عارياً بعد أن فقد عقله

جريدة «الوفاق» العدد ٢٩٤٦٢

حالات إغماء في صالات تداول الأسهم مع الانهيار العظيم

جريدة «الصباح» العدد ٢٣٤٣٢

المواطنون يصرخون:ما هي أسباب انهيار سوق الأسهم ولا يجدون جواباً

جريدة «البحر» العدد ٦٥٤٥٤

* * *

خبر صحافي

الشرطة تضبط متسولاً عارياً في الشارع العام:

ضحية انهيار سوق الأسهم يظهر مرة أخرى

يوسف العمري ـ جدة

قامت الشرطة بضبط متسول جاب الشوارع العامة عارياً تم إلقاء القبض عليه في منطقة الحمراء في نحو الساعة السادسة مساء، وقد رصده بعض المبلغين عنه يتنقل في أماكن متفرقة بتلك الهيئة عند فندق الانتركونتيننتال ومركز الحمراء وفندق الهولداي إن. وقال بعض شهود العيان إن الرجل كان يمشي على هذا الحال فترة تبلغ الساعة أو الساعتين قبل قدوم الشرطة لإيقافه.

وأضافت المصادر أن الرجل المتسول يتردد على المنطقة بين الفترة والأخرى ويستعمل المال الذي يكسبه لشراء الكحول.

وترجح مصادرنا أن المقبوض عليه هو نفسه ذلك الرجل الذي خرج عارياً قبل ثلاثة أسابيع من أحد البنوك بعد خسارته لكل أمواله (ويمكن للقارئ مقارنة الصورتين).

** **

انهار بيت يوسف الرديني، فسقط سقف أحد الغرف عليه ورغبة ملحة تطارده بالإبحار، ولو لمرة واحدة داخل البحر كما كان يفعل في شبابه كي ينسى عقوق ابنه، ونشاز زوجته.

فاجتمع شمل الأسرة في بيت عيسى حيث انتقلت إليه اختاه (نورة وابتهال) وأخوهما راشد.

** **

خبر صحافي

مشروع تطويري يبدأ بإزالة منطقة الحفرة:

تعويضات على المباني والأراضي لمن لا يملكون صكوكاً تثبت تملكهم

مبارك المؤيد ـ جدة

قضى التعميم الصادر حديثاً بصرف تعويضات على الأرض والبناء لكل صاحب عقار يملك صكاً أو لا يملك في منطقة الحفرة بمحافظة جدة حيث سيقام عليها مشروع تطويري كبير يضم عدداً من الأبنية ذات الطراز المتقدم. وجاءت التوجيهات أيضاً بأن من يرغب في عدم أخذ

حقه مادياً فسيكون له الحق في الدخول ضمن المشروع كشريك بالقيمة المالية التي كان المفترض أن يأخذها، وسيبدأ التنفيذ بهذا النظام بعد ستة أشهر من الآن. وكشفت مصادر مطلعة أن المواقع المنزوعة في مكة المكرمة والداخلة ضمن آلية التطوير ستعامل بنفس النظام بعد تطبيقه في جدة، وسيعلن عن كافة التفاصيل الجديدة بعد أخذ المسوحات والخرائط للمواقع المنزوعة. وكانت إجراءات نزع الملكيات تقتصر على احتساب قيمة العقار دون الأرض في نزع ملكية المنازل التي لا يملك أصحابها عليها صكوكاً شرعية. وتستقبل أمانة جدة حالياً أصحاب العقارات المستهدفة بالمشروع الجديد في منطقة الحفرة لإنهاء إجراءات نزع الملكية خلال مهلة حددتها الأمانة تصل إلى شهرين. وسيستثنى من النزع بعض المباني كمسجد الإخلاص والمنازل ذات العمق التراثي والتي تحمل سمة العمران القديم لجدة مع التوصية بترميمها ضمن المشروع التطويري، وكانت الجهات المعنية قد أوقفت تصاريح البناء في المنطقة الخاضعة للتطوير منذ صدور القرار قبل نحو خمسة أشهر. ويشمل نظام نزع الملكيات على أربعة أبواب و٢٤ مادة أحدهما خاص بنزع الملكيات للمنفعة العامة ويشتمل على ١٣ مادة.

جريدة الحصاد

العدد ١٩٦٧

نساء القصر



رحاب: اسمها الحقيقي فايزة من مواليد ١٩٨٢ م أسلمت بكارتها لرجل أحبته وتنكر لها، فهربت من مدينتها (الطائف) ووقعت في فخ داعرة سوقت جسدها للراغبين، تنقلت بين أحضان الرجال حتى وصلت إلى القصر وهي تمتلك حرفة البغاء أصيبت بمرض الزهري قبل أن تنتقل إلى القصر وخضعت لعلاج مكثف، واكتفت بمصاحبة رجل الأعمال عدنان خيري الذي تكفل لها بتوفير حياة رغدة.

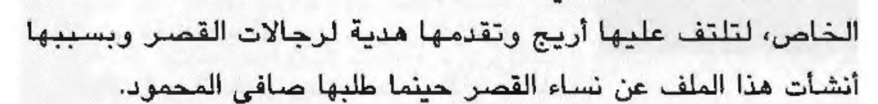
** **

لمعة: اسمها الحقيقي لمياء من مواليد عام ١٩٨٣ م تعيش أغلب الوقت مخمورة وعندما اعتادت على الكحول ولم تعد تؤثر بها انتقلت مباشرة إلى تعاطي الهيروويين على أمل نسيان ماضيها، فقدت بكارتها منذ أن كان عمرها ١٢ عاماً على يد أبيها، وظل يضاجعها إلى أن بلغت ١٨ من

عمرها، خضعت لعملية إجهاض مرتين، وعندما علمت أمها تقدمت للقضاء لرفع ولاية الأب عنها، فلم تقبل دعوتها، فهربت من المنزل، وتنقلت بين أحضان الشباب إلى أن وصلت للقصر لتجد حضن عمر الجصير متسعاً فاستكانت له طلباً للأمان، فصانها لكنه لم يستطع صيانة مخيلتها من صور الماضي التي تداهمها كل حين.

** **

داليا: اسمها الحقيقي إيمان من مواليد عام ١٩٨١ م ابنة بين خمسة ذكور، حملهم أبوهم من إحدى مدن المناطق الداخلية، وسقط في أوحال الديون، فترك البيت ولم يعد، وكانت إيمان أكبر إخوتها، فخرجت للعمل كموظفة استقبال في مستشفى الأمان الخاص، لتلتف عليها أريج وتقدمها هدية لرجالات القصر وبسببها أنشأت هذا الملف عن نساء القصر حينما طلبها صافي المحمود.



** **

تغريد: اسمها الحقيقي هديل، من مواليد عام ١٩٨٣ م ابنة من طبقة ارستقراطية تعشق السهرات الصاخبة والدعوات الجماعية المختلطة، شبقها الجنسي قادها للقصر لتحفظ مكانتها الاجتماعية وتشبع نزواتها الخاصة لم تقبل البقاء مع شخص واحد، تتنقل بين المدعوين وفق مزاجها، ومدى ارتوائها، انتهى بها المطاف لمسايرة المليونير وفيق الطيب.

** **



أفنان: اسمها الحقيقي هاجر من مواليد عام ١٩٨٠ م في بداية عمرها وحينما كانت في السابعة عشرة تعرفت على شاب يتعاطى المخدرات، واستطاع تحويلها إلى مدمنة هيروين، قبض على صديقها في إحدى الاستراحات وتم ترحيلة للسجن العام، وتنقلت بين أصدقائه بغية توفير ما يعدل مزاجها إلى أن وصلت للقصر لحضور الحفلات مقابل ثمن تصرفه لشراء الهيروين، فوقع في غرامها طارق الحفالي وتوافقا لكون مزاجهما متطابقاً.





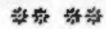
صهايل: اسمها الحقيقي خولة من مواليد ١٩٧٩ م تعشق المظاهر، كثيرة الادعاء، وضع أسرتها المادي لم يمكنها من إشباع رغبتها، كانت تدعي أن ملابسها واكسواراتها وعطورها ماركات عالمية وحين يفتضح كذبها تغير صديقاتها وتبدأ في البحث عن صديقات أخريات، سمعت بالمبالغ الخيالية التي تعطى للفتيات اللاتي يحضرن مناسبات القصور والفلل المطلة على البحر، فانضمت إلى مجموعة فتيات أوصلنها للقصر، فغدت كل ملبوساتها واكسسواراتها ومجوهراتها تجلب لها من العواصم الأوروبية خصيصاً لها على نفقة ياسر السروجي.

** **

عبير: اسمها الحقيقي حصة من مواليد عام ١٩٨٠ م قدمت من



مدينة عفيف للانضمام إلى الجامعة لدراسة إدارة الأعمال، وفي سنتها النهائية، انضمت إلى شركة التعاون للمواد الكيميائية لتطبيق بحث التخرج، فوقعت في غرام رئيس الشركة حاتم طرابي الذي اصطحبها في سهراته داخل القصر، وعندما طرد لأنه تغزل في مرام انتقلت بمشاعرها لطارق التاغي، وفضلت أن تظل من نساء القصر خشية أن يصيبها الغضب الذي لحق بحاتم طرابي.





أريج: اسمها الحقيقي عواطف من مواليد عام ١٩٦٥ م كانت جميلة للغاية ثم كبرت ولجأت لعمليات التجميل فتشوهت وطلبت من سيد القصر إبقاءها معه على أن تتحول إلى قوادة وهي ضمن ثلاث قوادات يعملن من أجل إرضاء السيد بتزويد القصر بالفتيات الصغيرات الجميلات، وفي زمنها لم تكن ترضى بأحد ومع التشوهات التي جلبتها لها عمليات التجميل تهشم اعتدادها بأنوثتها وغدت تقبل بأي عين تقع عليها ثم تواضعت أكثر وغدت هي المبادرة لجلب الرجال المحرومين من اللذة.

** **

ليالي: اسمها الحقيقي بشائر من مواليد عام ١٩٨٠ م بدأت مراهقتها بحلم أن تغدو شاعرة يشار إليها بالبنان، كان جمالها يفوق شاعريتها بمراحل، ومع نشر كل قصيدة تكون وهبت شيئاً منها لمن نشر قصيدتها، استقبلها الموسيقار محمد رحيم لتلحين قصائدها مع



وعود أن تتحول إلى أغانٍ عبر حناجر أكبر الفنانين. وأوهمها بامتلاك صوت رخيم يمكن لها بقليل من التدريب أن تصبح فنانة كبيرة يشار إليها بالبنان، وفي كل حين يطلق المدائح تغزلاً بعذوبة صوتها ونقاؤه، فتعلقت بحلمين:أن تغدو شاعرة، ومطربة، وإزاء نفخه الدائم في مواهبها، لم تكن تمانع من اصطحابه إلى أي مكان حتى ولو إلى جهنم، فاصطحبها في سهراته الخاصة، لتتعلم فنون الاستلقاء على الفراش، ووجدت في هذا سهولة تفوق سهولة الشعر، والغناء.وبقيت بصحبة الموسيقار محمد رحيم إلى أن وصلت للقصر، فانتقلت لمصاحبة المليونير إسماعيل زعرور لتكشف له عن مواهبها الفذة على السرير يقبل على سماع صوتها قبل أن يقضي وطره حتى إذا أناخ بلذته ولا تجد من يستمع لغنائها تلجأ إلى الحمام لترديد الأغاني التي تحلم بغنائها بصوتها العذب ـ كما كان يصفه الموسيقار محمد رحيم.

** **



أفراح: اسمها الحقيقي فرحة من مواليد عام ١٩٧٩ م كانت فرحة أبويها اللذين لم يرزقا بمولود خلال عشرين عاماً من زواج عقد بينهما بعد قصة حب طويلة، ومع مجيئها تحولت حياتهما إلى فرح دائم، تساهلا مع رغباتها لدرجة الانحراف، ولم يمانعا أن تبات مع صديقاتها، ومن خلال تواجدها الليلي الدائم مع صديقاتها كانت تحضر الحفلات المختلطة وجربت لذة الاحتكاك فغدت غير قادرة أن تفترق عن

هذه المتعة ليكتشف أبواها أنها فقدت عذريتها فسافر بها أبوها إلى القاهرة لإجراء عملية رتق بكارة وعندما عادت لم تحافظ عليها سوى أسبوع واحد، واستمرت في حضور الحفلات إلى أن وصلت للقصر لتجد المال والمتعة معاً.رافقت رجل الأعمال أحمد خليل رئيس مجلس شركة الأخيار للأسمدة الكيميائية.

** **



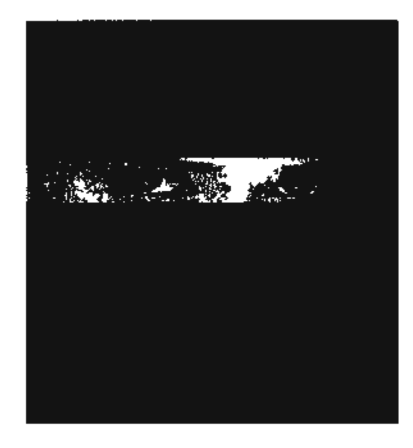
هدب: اسمها الحقيقي ليلى من مواليد عام ١٩٨٠ م تعرضت لحادثتين أفقدتها ثقتها بالرجال وخرجت لتنتقم من كل رجل يقف في طريقها.

عقد قرانها لمرتين من شابين وجدا في عقد القران فرصة للاستمتاع بالنساء أثناء فترة العقد، وقبل الانتقال إلى مراسم الزواج الحقيقية تبخرا، أحبت الأول حباً عنيفاً حيث استمر عقد قرانها معه لسنتين وبعد خروجها وإيابها معه مل منها قبل أن يصلا إلى الزواج الفعلي، فطلقها، أما الرجل الثاني فوصل لبكارتها وطلقها غيابياً وجاء صك طلاقها بأنه طلقها عذراء ولم يصل إليها.

ومع استدارة بطنها لم يصدق أحد من أهلها أن من عقدت عليه هو المتسبب في حملها، وبسرية تامة أجرت إجهاضاً لمولودتها وتسلحت بحبوب منع الحمل وجدول الدورة الشهرية وزيادة في الحرص بتركيب لولب وخرجت للانتقام من الرجال لينتهي بها الحال داخل القصر غير قادرة أن تذل الرجل الذي احتجزها لنفسه وهو سليمان العياف صاحب

مطاعم ومنتزهات الساحل الغربي، فبقيت تمني نفسها بمواصلة انتقامها من الرجال حين يمل منها العياف.

** **



اطياف: اسمها الحقيقي هيفاء من مواليد ١٩٨٠ م تزوجت من ابن عمها وعمرها ستة عشر عاماً بعد قصة حب تولدت من طفولتهما، وعندما بلغ عمرها الواحد والعشرين كان عمها - أبو زوجها - متحرقاً لرؤية حفيد له، ويدفعها لأن تعرض نفسها للأطباء بدلاً من الاستسلام لهذا الوضع، فكانت تماطل - هي وزوجها - العرض، وخضعت مجبرة لأن ترافق عمها لعيادة طبيبة نساء وولادة، وصعق العم عندما أخبرته الطبيبة أن هيفاء لا تزال عذراء، فعاد بها لزوجها، ولم يدخل إلى بيت ابنه مرة أخرى.

انكشاف عذريتها منحها العذر الداخلي لأن تستقبل (ترقيم الشباب) لها وتظل طوال الليل تتقبل الاتصالات منهم، كشفها زوجها عدة مرات، وتغاظى عنها وكأنه لا يسمع، فاكتسبت مساحة أخرى بالخروج لمقابلة من يهاتفونها، وفي إحدى (المولات) وقع نظر أسامة عليها، فجذبها سريعاً، وأوصلها للقصر، وخلال عام ونصف كان رحمها يلفظ أول مولود لها، استقبله زوجها بفرح غامر مكن أبويه من إقامة حفل كبير لمقدم أول حفيد لهما، أذعن الزوج لخروجها وسهراتها الطويلة، كان همه أن تظل رائحتها داخل البيت.

وكانت قد وصلت إلى مرحلة الضيق الشديد من رائحة زوجها، والبيت معاً.

فحصلت على لقب سيدة أعمال، وانطلقت في مشاريع وهمية يساندها في ترويجها المليونير صبري الطائر.

*** ***



رفيف: اسمها الحقيقي أمال من مواليد عام ١٩٨٥ م متزوجة بإمام مسجد، منع عنها كل ما له علاقة بالحياة، لا تلفزيون ولا أغاني، ولا نزهات، ولا حضور حفلات زواج، يختار لها ملابسها الخارجية والداخلية ويمنع عليها وضع المساحيق أو الذهاب للتجمل في صالونات التجميل، وإن خرجت عليها أن تغطي كل أجزاء أطرافها بشراريب وقفازات، وعندما يأتيها لا يستأذن جسدها ولا يراسل مشاعرها بكلمات حب كي تتفتح مسام جسدها لحرثه المضني، يأتي إعصاراً يلوب تربتها ويمضي، ومع انتهاء وطره منها يمنحها ظهره، زاجراً وناهراً أن تمسه، وموصياً إياها إيقاظه لصلاة الفجر قبل الوقت بنصف ساعة، كان يستخدمها كمنبه ومرحاض.

ألفت على حياتها من غير تذمر إلا أن أختها لميس حركت في داخلها نوازع الخروج من حياتها الرتيبة، فكانت تأتيها لتصطحبها معها إلى بيت العائلة ومن هناك سربتها لحضور حفلات الزواج، والخروج في نزهات بحرية وسهرات في معظم مقاهي (الكوفي شوب) المنتشرة في أركان جدة.

ليبدأ تذمرها من حياتها، وبحثها عن خلاص من زوجها، ومع أول سهرة في القصر سربت هذه الأمنية لمن رافقها في تلك السهرة (كان محمد أبو زناد العضو المنتدب لأحد البنوك المحلية)، فوعدها أن يحرر قيدها، وبعد ثلاثة أسابيع من وعده استلمت وثيقة طلاقها، وغدت (هي وأختها) من عناصر السهرات الصاخبة، إلا أن لميساً اختارت أن تكون خارج القصر، تتنقل بين العشاق وفق هواها.

** **



نوار: اسمها الحقيقي نورة من مواليد عام ١٩٨٥ م أصيب أبوها بسعار الأسهم، فانطلق لجمع كل مدخراته وبيع عمارتين امتلكهما بعد مثابرة طويلة، وعرج على ممتلكات إخوته جمع ما يقارب من ثلاثة ملايين ريال، ودفع بها لسوق الأسهم، صعد رصيده إلى العشرة ملايين خلال ثلاثة أشهر فقط، ليقترض من البنك ما يماثلها وانتظر أن تقفز أرباحه للسقف، ومع انتظاره انهار السوق وتم تسيل محفظته، ليتناقص رصيده بسرعة مذهلة، وهو عالق داخل السوق، لتنهار معه حياته، من خلال مطالبات بسداد ديون مثقلة، فجمع أولاده وأخبرهم أنه لم يعد مسؤولاً عن أحد وكل فرد منهم يتدبر حياته كيف شاء.

كان ابنه الأوسط (سلطان) هاو للعزف، يشارك فرقة موسيقية العزف على القيثارة، في إحدى المرات كانت فرقته حاضرة في القصر، وتسرب إليه المبالغ الكبيرة اللاتي تدفع للفتيات الحاضرات، فأخذ أخته

معه لتحضر، ومن هناك لم تستطع الخروج فقد علقت في القصر كما علق أبوها في سوق الأسهم.

*** ***



غيداء: اسمها الحقيقي غالية من مواليد عام ١٩٨٣ م هي الابنة العاشرة (بين أبناء وبنات) لأب مسجون في حالة متأرجحة بين الإعفاء أو القصاص، مضى على سجنه خمسة عشر عاماً في انتظار بلوغ (أهل الدم) السن القانوني، ووصلت إشارات أن أصحاب الدم يرغبون في الدية، فأخذ أبناؤه يطرقون الأبواب للتدخل عند أهل الخير، وعندما سمعت غالية بأحدهم سعت للوصول إليه، فقادها للقصر وأقنعها أنها من هناك تستطيع جمع أي دية يطلبها أهل القتيل.

وقبل أن تصل إلى عرض مشكلتها كان دم عذريتها ملتصقاً بين فخذيها، ومع رؤيتها لدمها المسفوك، فضّلت أن تبقى في القصر على أن يذهب أحد إخوتها ويجاور أباها في ساحة الإعدام بسببها.

وظلت تتنقل بين المدعوين وفق من يختارها في السهرة المقامة مما جعلها تبذل جهداً كبيراً للإغواء، فتمضي ليلة السهرة ورقبتها تتنقل بحثاً عمن يركز بصره بها.

*** ***

سماهر: اسمها الحقيقي فاتن من مواليد ١٩٧٨ م هربت من منزل الزوجية أو قبر الزوجية، خرجت من هذا القبر بإرادة اختيارية، يدعمها



رفض داخلي لموقعها داخل بيت الزوجية، كان زوجها (شغارا)، عملية (سوتش) تبادلي، قدمها أبوها لزوجها وأخذ مقابلاً لها (أو مهراً) ابنة زوجها الستيني، فوجدت نفسها ممرضة بدلاً من زوجة، كانت الحياة تضج في جسدها، والموت يدب في أطراف زوجها، بدأت عصيانها باستقطاب العشاق لمنزلها، ثم تطورت خطواتها لخارج البيت، ومنذ أن عرفت الشراب وتناول المكيفات المختلفة، تسربت لداخل القصر كملجأ أمن يحميها من سلطة أبيها أو من استمرار عملية البحث عنها.

اقترنت برجل الأعمال سالم بن عياف فأسكنها في جناح خاص في فندق (سبعة نجوم) يمتلكه، فبقيت في الدور العاشر تشاهد كل ما يسقط من أعلى إلى الأسفل، وتنتظر ما الذي يمكن أن يحدث لها لو أنها سقطت من هناك.

زوجة أبيها (التي تبادلت معها الزواج والأدوار) قلدتها بالهروب من بيت الزوجية، فقبضت عليها هيئة الأمر بالمعروف، ويقال إن أباها وزوجها تشاركا في تاديبها تاديباً أوصلها للعناية المركزة.

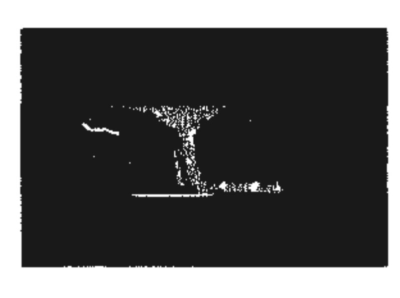
*** ***

روبي: اسمها الحقيقي رابية من مواليد ١٩٨٢م هي ابنة سنابل التي أزيحت من الخدمة لكبر سنها، ومع انفاقها الباذخ رغبت في البقاء في نفس المستوى المعيشي، فتقدمت بابنتها كي تكون (جليسة سهرة) مع تأكيدها على الابقاء على عذرية ابنتها، هذه التوصية كانت بمثابة التحفيز لهتك تلك العذرية، فرضيت بما



جلبته لها رابية من مال في ذات مساء كتعويض عن عذريتها دفعها إليها المستشار القانوني فيصل الطواف، وبعد أن قطف عذريتها عافها، فانتقلت ملكيتها لرجل الاعمال كامل غريب.

❋❋ ❋❋

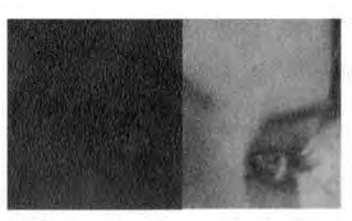


كعوب: اسمها الحقيقي هبة، من مواليد عام ١٩٨٤ م، خريجة كلية المعلمات، حصلت على الشهادة وانتظرت وظيفتها بفارغ الصبر لتعول اخوتها الخمسة بعد وفاة أبيها، وطافت بها ثلاث سنوات عجاف من غير ان تجد وظيفة، قضت سنواتها الثلاث (مع أمها) في استجداء، وانتظار هبات المحسنين، ومع تراكم الديون واتساع الفاقة داخل أسرتها، خرجت لتعمل أي عمل، فوجدت المساومات تقف في طريقها، ارتضت في البداية للخروج إلى الأسواق، وتحفيز من يسايرها لشراء ما تحتاجه لها ولإخوتها، تم استقطابها للقصر لحضور الحفلات فقط، وهناك لم تقو على المحافظة وابقاء عذريتها، فأسلمتها لرجل الاعمال ادريس حمزاوي مقابل شراء شقة تمليك بمبلغ ٣٥٠ ألفاً.

وعندما تحررت من غشائها، عرفت كيف تعرض مفاتن جسدها في السهرات كما عرفت كيف تساوم طالبي المتعة مقابل ليلة واحدة فقط.

❋❋ ❋❋

نسايم: اسمها الحقيقي نسمة، من مواليد ١٩٨٢ م، هي الابنة الثالثة لرجل ميسور الحال، كان يصطحب أسرته لخارج المملكة لقضاء فترة الاجازة الصفية، وفي كازينو سكاي بار ببيروت سمح لنسمة أن



تتراقص من موقعها، ذلك التراقص جذب إليها عيون بعض السائحين السعوديين، فشاغلها توفيق الحمراوي طوال السهرة ولم يغادر سكاي بار إلا بعد ان تبادلا أرقام الجوالات. وفي تلك النزهة الصيفية تتفرق العائلة وفق رغباتها في قضاء سهرتها، هذه الميزة سمحت لكل فرد امتطاء رغبته، فجنح كل واحد منهم لإشباع النهم الناقص منه.

نسمة سلت نفسها من التحرك بمعية والدتها، وقضت بقية لياليها بصحبة توفيق الحمراوي، وفي فندق موفمبيك خطف توفيق بكارتها، ووعدها بالتقدم لخطبتها حالما يصلان إلى جدة.

وفي جدة أولم عليها في سهرة خاصة دعا لها اثنين من أصدقائه، فأيقنت بعدها أن حياتها لن تستقيم إلا بالبحث عمن يقبل بها وهي على هذا العطب، وعندما وصلت للقصر، نامت في أحضان الكثيرين وهي تغري كل واحد منهم بالاقتران بها حتى ملت من هذا العرض، وتفرغت لجمع المال المنسكب من تلك الجيوب بفكرة أنها إذا وجدت من يريد الاقتران بها لن يكلفها الأمر سوى عملية رتق بسيطة.

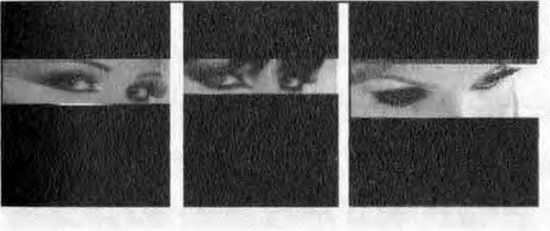
*** ***

مهجة: اسمها الحقيقي عواطف، من مواليد عام ١٩٨٥ م، عشقت ابن الجيران منذ المراهقة الاولى، ومع الأيام زاد تعلقها به، وارتضت الاقتران به بالرغم من سيرته العرجاء، وبعد سنتين من زواجهما، وجدت نفسها تشارك زوجها تعاطي المخدرات، فباعا كل شيء حتى لم يعد معهما شيئاً سوى حب ذابل في



صدريهما ودم ينهش أعصابهما للحصول على ثمن لشراء الهيروويين،وعندما جفت أموالهما وجد أبو فادي الصديق المقرب لزوجها وصاحب اليد الطولى بإمداد حياتهما بالهيروويين الفرصة لمساومة زوجها لقطف ثمارها مقابل عشرة غرامات من البودرة النقية، ففاتحها بالأمر، لتستجيب لرغبته، ومع تساوي الأشياء،قام زوجها بتقديمها لرجالات القصر بنفسه، كان يوصلها وينتظرها ريثما تخرج من هناك. وسكن الرخاء حياتهما القاحلة فطاب لهما تبادل كلمات الغزل بدلاً من التواصل الحميم، فهي عندما تأتي يكون جسدها منهكاً تماماً وغير قادرة على تلبية احتياجاته.

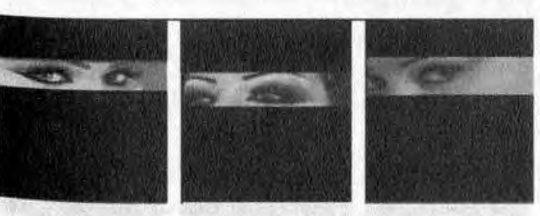
** **



فتنة، حلم، أنجي، نانسي، هديل، ونبيلة:
لم تجمع عنهن معلومات أكيدة وإن كن جميعهن يشتركن في حالة فقر مدقع أو مترد أو فقر (يودي في ستين داهية). قادهم إلى القصر لتعويض ذلك العوز المدمر.

** **

سنابل، طرفة، أماني، شوق، رهام، صافيناز، حلوى، ديمة وسكايب:



كن كالجياد التي يطلق عليها النيران لهرمها، وقد غادرن

القصر لكبر سنهما، وبقيت بعضهن يتواصلن مع هبات السيد حين يقمن بتذكيره بأنفسهن من خلال مكاتبات تصل حيناً وتحتجب أحياناً.

** **

ثم دخلت سنة ١٤٢٨هـ
حدثت فيها الأحداث العابرة والغائرة

ماتت خلالها السيدة شهلا بجلطة دماغية، عقب رحيل عيسى بشهرين، وبقيت حياتها معلقة بالأجهزة الصناعية لثلاثة أسابيع، وأثناء هذه المدة لم يزرها سوى ابنتها موضي.

وقفت على جثمانها في المطار أثناء نقلها لتدفن في البقيع بالمدينة المنورة بجوار سلالتها التي جاءت من أصلابهم.

** **

لم يعثر على خيرية محجوب، ولم يبلغ أحد عن فقدها.

** **

خرج ميمون عبدالهادي من السجن بعد سنوات طويلة، خرج صامتاً، غريباً بين أولاده، ولم يحفل به أحد، الكائن الوحيد الذي كان بالامكان أن يسنده في عذاباته تلك زوجته التي انتظرته طويلاً، وعندما لم يجد معها الانتظار سبقته إلى قبر صغير، فاستعجل الرحيل، ليجده أبناؤه ذات صبيحه مدهوساً في الشارع العام، وعجزوا عن لم لحمه وعظمه، فتركوه لرجال الاسعاف يتدبرون جمعه، ودس ما تبقى منه في قبر غير متساو.

** **

لم تستطع ليلى جبريل (أم عيسى) رؤية جثة ابنها، وصعقت خالته سلوى للخبر، ونقلت إلى المستشفى لتلقي العلاج من حالة انهيار عصبي حاد، ودفن عيسى من غير أن يحضر جنازته أحد من أهله أو أي من أصدقائه أو أبناء حارته.

** **

رزقت سعاد بابن خامس، فسمته طارق، لم يوافقها ياسر المفت على هذا المسمى، مشككاً في علاقتها بطارق فاضل، ووصل اختلافهما إلى بوابة المحكمة الكبرى ليطلب القاضي منهما (المباهلة).

وعادت سعاد للشارع تصنع عرائس قماشية وتبيعها للصبايا الصغيرات اللاتي يحلمن بليلة العرس.

** **

تزوج كمال من غصون أبنة عم سميرة والتي كانت مرسال الحب فيما بينه وبين سميرة، وارتضت ان تطلق اسم ابنة عمها على ابنتها البكر.

استطاعت ان تميت سميرة في قلب كمال باتباع وسيلة الاشباع، فكانت تجالسه يومياً وتذكر له قصصاً عن سميرة حتى جاءت ليلة من الليالي تمنى عليها كمال ان لا تذكره بسميرة بتاتاً، وأخذ مجلسها ليسرد لها كيف تسللت هي إلى قلبه!!

** **

ماتت لمعة بعد أن تناولت جرعة عالية ومخلوطة من مجموعة مكيفات وكانت وفاتها داخل شقة مستأجرة. رائحة جثتها دلت عليها، استلم أبوها جثتها وأودعها مقبرة الفيصلية لم يقم لها عزاء. ووجد في موتها نهاية لقضية رفع ولايته عنها التي تتنقل بها أمها بين القضاة.

** **

موت لمعة حرك النور الخامد في قلب عبير، تطهرت واعتمرت، وتعلقت بأستار الكعبة في بكاء طويل، وخرجت من الحرم لمدرسة تحفيظ القرآن، وخرجت من هناك داعية راجية من الله أن يغفر لها ما مضى من أيامها.

في كل مجلس تجلس فيه للدعوة تسبقها سيرتها الماضية، فتقلل من استقبال السيدات لدعوتها، فاختارت المولات وتجمع الفتيات في المنتزهات لتحكي فقط عن سيرتها الذاتية وما رأته، فكانت تستقبل بالانتقاص دائماً.

** **

مصطفى القناص استقام على طريق الهدى، وداوم على فروضه في المسجد، وغادر البلد إلى سوريا متسللاً إلى العراق بحثاً عن الشهادة، وبعد أسبوعين من مغادرته تم التبليغ عن وفاته فقط من غير أن تصل جثته، حيث لم يتمكن أحد من جمع أشلاء جسده المتطاير بسبب الحزام الناسف الذي كان يرتديه.

كانت ثمة ملاحظة تشغل أجهزة الأمن تتركز في تسجيله كحالة أولى يقدم على ارتداء الحزام الناسف في مثل عمره المتقدم.

** **

غادر جوزيف عصام القصر إلى لبنان لحضور القداس الذي أقامه البابا يوحنا الثاني في بيروت، ولم يعد، كان يعتبر حضوره لهذا القداس تطهيراً نهائياً لمسيرة الإغواء التي سلكها.وفي بداية هذا العام وصل خبر وفاته بعد أن تبرع بكل امواله مناصفة: لابنة أخته، ولأطفال الحجارة!!

أصيب ـ في آخر أيامه ـ بحالة قلق مرضية جعلته غير ميقن من أي

شـيء، كان وجلاً من اقتفائه لأثر الأم تريزا التـي اتـهمت بـأنـها تدعو لعقيدة غير صحيحة بعد نشر رسائلها الخاصة وازمتها الخاصة مع الايمان.

** **

ثم دخلت سنة ١٤٢٩هـ وحدثت بها أحداث نوجزها فيما يلي :

نهى ونهلة أختا تهاني، تجاوزتا الثلاثين من عمرهما، ولم يتقدم لخطبتهما أي شاب من شباب الحارة، فقد علقا في سيرة أختهما الذي ذاع سرها منذ سنوات.

نهلة أخذت مبادرة الزواج من سائق هندي، ولا زالت تسعى خلف معاملة الزواج بين أروقة الجهات المختصة، اما نهى فقد عزفت في البدء عن الزواج وأخذت تبحث عن أي وسيلة تخرج بها إلى خارج البلاد، كان آخر محاولاتها التقدم للحصول على بعثة لمواصلة دراساتها العليا إلاّ أن اشتراط المحرم قادها للبحث عن زوج يمررها لخارج البلد، وقبلت عرض الزواج من غيث المهند الذي وصلت قدماه إلى القبر لمرتين متواليتين، وتراجع!!

** **

أصر طارق فاضل على أخيه إبراهيم تغيير اسم ابنه طارق (سميه) خشية من انتقال قدر عمه إليه، في البدء رفض إبراهيم، وعندما استعرض حياة أخيه سارع بإبدال اسم ابنه، واستقر على اسم ناجي!

** **

ركن حمدان البغيني للراحة التامة بعد أن ترجل عن العمل، وأراد أن يحدث سنة حسنة في حياته، فجمع أعيان رجالات الحارة واقترح عليهم قشع مسمى النار عن حيهم، بتبادل المسميات مع القصر المجاور،

وكانت حجته أن الله عز وجل أخبر أن: جهنم ترمي بشرر كالقصر بينما حارتهم مليئة بالخيرين الزاهدين من وسخ الدنيا وهي الأحق بتسميتها حارة الجنة.

ولم يحضر هذا الاجتماع إلاّ قلة قليلة ممن سمعوا مقترحه القديم بتسمية حارة الحفرة بحارة النار رغبته الأخيرة هذه لم يكتب لها النجاح.

بالرغم من أن حديثه لم يستقبل بالاستهجان كسابق الأيام فوقار لحيته البيضاء وخشوعه حال دون ذلك، لكن الأنفس لم تنشط لإعادة التسمية، فأيقن أن المجرب هو من يعرف الحقيقة.

وقبل أن يسمع بخبر إزالة حي الحفرة مع المشروع الكبير، كان قد انتقل إلى مكة ليعيش ما تبقى له من عمر بجوار بيت الله الحرام تائباً مما اقترفه لسانه طوال عمره.

** **

بقي وليد الخنبشي نزيلاً في المصحة النفسية، لا يزوره في مشفاه إلاّ ابراهيم فاضل بصحبه أغيد في أغلب الأحيان.

** **

ظلت حارة الحفرة تتذكر ثلاث شخصيات من أبنائها، قفزوا إلى مصاف الأثرياء، ثم انتكست حالتهم، وسقطوا سقوطاً ذريعاً، وهم:أسامة البشري، وعيسى يوسف الرديني، وطارق فاضل.

** **

تبقى إحصاء أنوار القصر عادة لا ينفك صبية حي الحفرة من ممارستها مساء مع بقاء حلم الدخول إلى ردهات القصر متوفرة أيضاً.

ثم دخلت سنة ١٤٣٠هـ كصفحة بيضاء تقافز صبية الحي لكتابة أقدارهم بها.



الاثنين
MONDAY

١٤٣٠هـ
الجدي
٨
١٣٨٧
هجرية شمسية

١
المحرم

٢٠٠٨م
ديسمبر
٢٩
كانون ١
29 DEC. 2008

الزمن زوالي	الفجر		الاشراق		الظهر		العصر		المغرب		العشاء	
	ق	ع	ق	ع	ق	ع	ق	ع	ق	ع	ق	ع
مكة	٣٧	٥	٥٧	٦	٢٣	١٢	٢٨	٣	٤٩	٥	١٩	٧
المدينة	٤٢	٥	٠٤	٧	٢٤	١٢	٢٣	٣	٤٣	٥	١٣	٧
الرياض	١٤	٥	٣٦	٦	٥٦	١١	٥٥	٢	١٥	٥	٤٥	٦
بريدة	٢٧	٥	٥١	٦	٠٧	١٢	٠٣	٣	٢٢	٥	٥٢	٦
الدمام	٠٢	٥	٣٦	٦	٤٢	١١	٣٨	٢	٥٧	٤	٣٧	٦
أبها	٢١	٥	٤٠	٦	١٣	١٢	٢٢	٣	٤٤	٥	١٤	٧
تبوك	٥٩	٥	٢٥	٧	٣٦	١٢	٢٨	٣	٤٧	٥	١٧	٧
حائل	٣٨	٥	٠٢	٧	١٦	١٢	١٠	٣	٢٩	٥	٥٩	٦
جازان	١٩	٥	٣٨	٦	١٣	١٢	٢٣	٣	٤٧	٥	١٧	٧
نجران	١٣	٥	٣٢	٦	٠٦	١٢	١٦	٣	٣٩	٥	٠٩	٧
الباحة	٢٨	٥	٤٨	٦	١٧	١٢	٢٣	٣	٤٥	٥	١٥	٧

هذا الكتاب

هل تحرزنا، وحذرنا مما في الأرض، يقينا مما يلقى علينا من السماء؟!

هذه هي الحكمة العظيمة التي تعلمتها!

وبسببها لم أُحاذر بقية حياتي من أي دنس يعلق بي، سعيت في كل الدروب القذرة وتقلدت سنامها. سمة القذارة هذه هي التي أدخلتني القصر. عندها لم يعد من مناص سوى البقاء مغموراً في دناستي لأتعلم حكمة أخرى:

«كل كائن يتخفى بقذارته، ويخرج منها مشيراً لقذارة الآخرين!».

حكمة متواضعة أصطدم بها يومياً، ولا يريد أحد ممن يتسربل بها الاقتناع بممارسته للغباء، لذلك أجد في تذكرها ممارسة لغباء إضافي!

في ليالي القصر الصاخبة تتزاحم السيارات الفارهة في المواقف الداخلية، ويتحول الخدم ببزاتهم المزركشة إلى كائنات غير مرئية، وهم يتنقلون بين المدعوين بالمشروبات، والفواكه، والحلويات ذات الأصناف، والأشكال المتنوعة، يتحركون من غير أن تمسهم عيون الحضور كبيوت حيّنا المواجه للقصر، بيوت تبدو من داخل القصر كما لو كانت قامات انحنت في حالة ركوع دائم لم يؤذن لها برفع هاماتها.

الليل صاخب، والنساء أحرقن أطرافه بهز قدودهن، وغنجهن الفائر، والرؤوس ثقلت، وبقيت الكلمات المعجونة تستعر على لهيب شهوة مؤجلة.



علي مولا